

دورة الخليفة الراشد علي بن أبي طالب العلمية 12

شرح الوصية الصغرى

لشيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني
رحمه الله

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. سليمان بن سليم الله الرحيلي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية في المدينة النبوية

شرح الوصية الصغرى

لشيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني
رحمه الله

شرح فضيلة الشيخ

أ.د. سليمان بن سليم الله الرحيلي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية في المدينة النبوية

رقم الإيداع ٢٠١٤/٦٨ م





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فقد منَّ الله عليّ فشرحت «الوصية الصغرى» لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله في دورة الحنفية الشاذلية على يد الإمام العلامة في دولة الكويت حرسها الله؛ وهي دورة علمية متميزة في تنظيمها وحضورها واختيار موضوعاتها، ثم شرحت الوصية مرة أخرى في مسجد النبي صلّى الله عليه وآله.

فكان من نتاج هذين الشرحين هذا الشرح المكتوب المفرغ منهما، وقد اجتهدت في مراجعة الشرح قدر الإمكان، وحاولت جعله مناسباً ليكون مكتوباً، وأسأل الله عجل أن ينفع به الشارح والسامع والقارئ، وأن يجزي خير الجزاء كل من كان له نصيب في إخراج هذا الشرح مكتوباً.

والله تعالى أعلى وأعلم وصلى الله على نبينا وسلم.



ترجمة شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني رحمه الله (١)

عندما أردت أن أسطر ترجمة موجزة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله احترت فيما اختار وكيف أترجم لهذا العالم الجهد باختصار، فسيرته العطرة كلها دروس وعبر، وقد صُنفت في سيرته مصنفات مستقلة وشرُفت كتب التراجم بترجمة طويلة له رحمه الله وكلها صفحات ناصعة، واختيار النفيس من بحر غزير كله نفائس أمر من الصعوبة بمكان، وقد حاولت جهدي أن أقتبس من سيرته رحمه الله ما يفي بالمقصود من هذه الترجمة في المطالب التالية :

المطلب الأول : اسمه ونسبه وشهرته ولقبه وكنيته :

هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد بن تيمية الحراني، ثم الدمشقي .

الإمام، العلامة، الفقيه، المجتهد، الناقد، المفسر، البارع، الحافظ، المحدث، الأصولي، علم الزهاد، ونادرة الدهر .

كان رحمه الله من أسرة علم وورع؛ فوالده العلامة المفتي شهاب الدين عبد الحليم كان محدثاً وفقيهاً وصاحب تدريس وإفتاء، تولى مشيخة دار الحديث السكرية والتدريس في الجامع الأموي .

(١) انظر هذه الترجمة في المصادر التالية : «معجم الشيوخ للذهبي» (١/ ٥٦-٥٧)، و«المقصد الأرشد» (١/ ١٣٢-١٣٩)، و«الذيل على طبقات الحنابلة» (٢/ ٣٨٧-٤٠٧)، و«البداية والنهاية» (١٤/ ١٤١-١٤٥)، و«شذرات الذهب» (٦/ ٨٠-٨٦)، و«البدر الطالع» (١/ ٦٣)، و«الدرر الكامنة» (١/ ٥٤)، و«الوافي بالوفيات» (٧/ ١٥-٣٣)، و«مرآة الجنان» (٤/ ٢٧٧-٢٧٨)، و«النجوم الزاهرة» (٩/ ٢٧١-٢٧٢)، و«العواصم من القواصم» (٥/ ٢٦١)، و«العقود الدرية» لابن عبد الهادي، و«الأعلام العلية» للبزار، و«الرد الوافر» لابن ناصر الدين، و«شيخ الإسلام ابن تيمية إمام السيف والقلم»، و«ابن تيمية» للدكتور محمد يوسف موسى، و«طبقات المفسرين» للداودي (١/ ٤٦-٥٠).

وجده الإمام المجتهد شيخ الإسلام أبو البركات مجد الدين من كبار العلماء .

شهرته : اشتهر **رَحِمَهُ اللهُ** بابن تيمية .

وسبب تسميته بذلك أن أم جده محمد كانت تسمى تيمية وكانت واعظة فنسب إليها.

وقيل : إن جده محمد بن الخضر حج في إحدى السنين ولما مرَّ بتيماء رأى طفلة أعجبتة، فلما رجع من حَجِّه وجد امرأته ولدت له بنتاً فقال: يا تيمية يا تيمية، تشبيهاً لها بتلك الطفلة التي رآها؛ فاشتهروا بذلك^(١).

لقبه : يلقب بشيخ الإسلام وبتقي الدين .

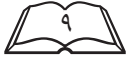
كنيته : أبو العباس ولم يكن له ولد إذ لم يتزوج ولم يَسِرَّ **رَحِمَهُ اللهُ**.

المطلب الثاني : مولده ونشأته :

ولد يوم الإثنين عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة بحرَّان، وقيل : ثاني عشر ربيع الأول .

وعاش في حران بضع سنين، ثم قدمت أسرته إلى دمشق فراراً من التتار الذين استولوا على البلاد سنة سبع وستين، وأقبل على العلوم في صغره، وختم القرآن، وأخذ الفقه والأصول عن والده، وعن الشيخ شمس الدين بن أبي عمر، والشيخ زين الدين ابن المُنَجَّى، وبرع في ذلك، وقرأ في العربية أياماً على ابن عبد القوي، ثم أخذ كتاب سيبويه فتأمله ففهمه، وأقبل على تفسير القرآن الكريم وبرَّز فيه،

(١) انظر : «سير أعلام النبلاء» (٢٢/ ٢٨٩).



وأحكم أصول الفقه، والفرائض، والحساب، والجبر، والمقابلة، وغير ذلك من العلوم، ونظر في علم الكلام وبرز في ذلك على أهله، ورد على كبارهم، وتأهل للفتوى والتدريس وله دون العشرين سنة، وأفتى من قبل العشرين أيضاً .

وأمدّه الله بكثرة الكتب، وسرعة الحفظ، وقوة الإدراك والفهم، وبطء النسيان، حتى قال غير واحد: إنه لم يكن يحفظ شيئاً فينساه .

ثم توفي والده وكان عمره إحدى وعشرين سنة، فقام بوظائفه بعده؛ فدرّس بدار الحديث السكرية أول سنة ثلاث وثمانين، ثم جلس عقب ذلك مكان والده بالجامع لتفسير القرآن العظيم، وكان يورد من حفظه في المجلس نحو كراسين أو أكثر .

وشرع الشيخ في الجمع والتصنيف من دون العشرين، ولم يزل في علو وازدياد من العلم والقدر إلى آخر عمره .

وقد كانت نشأته **رَحِمَهُ اللهُ** في تصون تام، وعفاف، وتعبّد، واقتصاد في الملبس، والمأكّل، فنشأ على جانب كبير من الخوف من الله تعالى، زاهداً، ورعاً، ملازماً للعبادة، وتلاوة القرآن الكريم، وكان قد قطع جل وقته وزمانه في عبادة الله، ولم تشغله شاغلة عن عبادة ربه، وكانت بضاعته طوال عمره العلم ونصرة السنة .

المطلب الثالث : صفاته الخلقية والخلقية والعلمية :

صفاته الخلقية :

كان الشيخ أبيض، أسود الرأس واللحية، قليل الشيب، شعره إلى شحمة أذنه، كأن عينيه لسانان ناطقان، تلوح نضرة النعيم على وجهه، ربعة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوري الصوت .

صفاته الخُلُقِيَّةُ :

كان سمحاً كريماً بطبعه لا يتصنع ذلك، وكان لا يرد من سأله شيئاً، وكان حليماً، كثير العفو عمن آذاه، حتى قال: (فلا أحب أن يُنتصر من أحد بسبب كذبه علي، أو ظلمه، أو عدوانه، فإني قد أحللت كل مسلم، وأنا أحب الخير لكل المسلمين، وأريد بكل مؤمن من الخير ما أحبه لنفسه، والذين كذبوا أو ظلموا فهم في حل من جهتي).

وكان شجاعاً من أشجع الناس وأقواهم قلباً، ما رأى الناس في عصره أحداً أثبت جأشاً منه، ولا أعظم عناءً في جهاد العدو، وكان لا يترك سبيلاً من سبل الجهاد إلا ولَّجه فجاهد بقلبه ولسانه ويده.

صفاته العلمية :

كان **رَحِمَهُ اللهُ** شديد التمسك بالأثر معظماً له، ومن أشد الناس تعظيماً لرسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** حريصاً على اتباعه، باذلاً كل ما يملكه في نصر ما جاء به، فبنى علمه على نصوص الكتاب والسنة ونصوص سلف الأمة، وكان في تأليفه ومناظراته مُستحضراً للأدلة من الكتاب والسنة كأن الكتاب والسنة نصب عينيه وعلى طرف لسانه.

قال عنه الذهبي **رَحِمَهُ اللهُ**: (برع في تفسير القرآن وغاص في دقيق معانيه بطبع سيال، وخاطر إلى مواقع الإشكال ميال، واستنبط منه أشياء لم يسبق إليها، وبرع في الحديث وحفظه؛ فقل من يحفظ ما يحفظه معزواً إلى أصوله وصحابته، مع شدة استحضار له وقت إقامة الدليل، وفاق الناس في معرفة الفقه، واختلاف المذاهب، وفتاوى الصحابة، والتابعين، بحيث إنه إذا أفتى لم يلتزم بمذهب بل بما يقوم دليله عنده، وأتقن العربية أصولاً وفروعاً وتعليلاً واختلافاً، ونظر في



العقليات وعرف أقوال المتكلمين ورد عليهم، ونبه على أخطائهم وحذر منهم، ونصر السنة بأوضح حجج وأبهر براهين).

وكان **رحمته الله** متواضعاً في تعليمه للناس يجلس تحت كرسیه ويدع صدر المجلس عند جلوسه للتدريس، ويجري في درسه مجرى السيل، ويصير منذ يتكلم إلى أن يفرغ كالغائب عن الحاضرين مغمضاً عينه من غير تعجرف ولا توقف ولا لحن، وإذا فرغ من درسه فتح عينيه، وأقبل على الناس بوجه طلق بشوش، وخلق دمث، كأنه قد لقيهم حينئذ .

وكان لا يسأم ممن يستفتيه أو يسأله، ويقف معه حتى يكون هو الذي يفارقه كبيراً أو صغيراً، رجلاً، أو امرأة، حراً، أو عبداً، ويجيب السائل ويفهمه بلطف وانبساط.

المطلب الرابع : شيوخه وتلاميذه :

شيوخه :

أولع الشيخ بطلب العلم من صغره، وأوقف حياته على طلب العلم، فسمع من كثير من الشيوخ، فسمع من أكثر من مائتي شيخ منهم :

والده عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحراني شهاب الدين (٦٢٧-٦٨٢هـ)^(١).

محمد بن عبد القوي بن بدران المقدسي الصالح الحنبلي (٦٣٠-٦٩٩هـ)^(٢).

(١) انظر ترجمته في : «المقصد الأرشد» (١٦٦/٢)، و«ذيل طبقات الحنابلة» (٣١٠/٢).

(٢) انظر ترجمته في : «المقصد الأرشد» (٤٥٩/٢)، و«ذيل طبقات الحنابلة» (٣٤٢/٢).

عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الصالحي
(٥٩٧-٦٨٢ هـ) ^(١).

مُنَجَّى بن عثمان بن أسعد بن المُنَجَّى الدمشقي الحنبلي زين الدين (٦٣١-٦٩٥ هـ) ^(٢).
عباس بن عمر بن عبدان البعلي (ت ٦٨١ هـ) ^(٣).

محمد بن إسماعيل بن أبي سعد بن علي الشيباني الآمدي الحنبلي (٦٣٣-٧٠٤ هـ) ^(٤).
أحمد بن عبد الدايم بن نعمة بن أحمد زين الدين أبو العباس (٥٧٥-٦٦٨ هـ) ^(٥).

تلاميذه :

عاش الشيخ باذلاً نفسه في نشر العلم، وقد أقبل على الأخذ عنه تلاميذ كثيرون،
اشتهر كثير منهم بالعلم والإمامة في الدين ومن هؤلاء :

الإمام الحافظ مؤرخ الإسلام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي
(ت ٧٤٨ هـ) ^(٦).

الإمام الحافظ شيخ الإسلام محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي ابن
قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١ هـ) ^(٧).

الإمام الحافظ المحدث محمد بن أحمد بن عبد الهادي (٧٠٤-٧٤٤ هـ) ^(٨).

(١) انظر ترجمته في : «المقصد الأرشد» (١٠٧/٢)، و «ذيل طبقات الحنابلة» (٣٠٤/٢).

(٢) انظر ترجمته في : «ذيل طبقات الحنابلة» (٣٣٢/٢)، و «المقصد الأرشد» (٤١/٣).

(٣) انظر ترجمته في : «المقصد الأرشد» (٢٧٧/٢).

(٤) انظر ترجمته في : «المقصد الأرشد» (٣٧٩/٢)، و «ذيل طبقات الحنابلة» (٣٥٢/٢).

(٥) انظر ترجمته في : «المقصد الأرشد» (١٣٠/١)، و «ذيل طبقات الحنابلة» (٢٧٨/٢).

(٦) انظر ترجمته في : «طبقات الشافعية» للأسنوي (٢٧٣/١).

(٧) انظر ترجمته في : «ذيل طبقات الحنابلة» (٤٤٧/٢)، و «الدرر الكامنة» (٢١/٤).

(٨) انظر ترجمته في : «المقصد الأرشد» (٣٦٠/٢)، و «ذيل طبقات الحنابلة» (٤٣٦/٢).



ابن قاضي الجبل أحمد بن الحسن بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي الصالحي (٦٩٣-٧٧١ هـ) (١).

عماد الدين أبو الفداء ابن كثير إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن ذرع القرشي البصري ثم الدمشقي (٦٧١-٧٧٤ هـ) (٢).

الحافظ خليل بن كيكلي بن عبد الله العلائي الدمشقي الشافعي (٦٩٤-٧٦١ هـ) (٣).

المطلب الخامس : جهاده وابتلاؤه :

كان **رَحِمَهُ اللهُ** في طليعة المجاهدين للتتار بنفسه، وكان يحث السلطان والولاة على الجهاد، ويبشرهم بنصر الله ويحذرهم من مخالفة أمره بترك الجهاد، وكان يخطب الناس، ويحثهم على القتال وبذل النفس والنفيس في جهاد أعداء الله، كما كان يحارب البدع بشتى صورها وألوانها، ويعمل للقضاء على مظاهرها، باذلاً كل وقته لبيان الحق للمسلمين، والدعوة إلى العقيدة السلفية المبنية على كتاب الله وسنة نبيه **ﷺ**، وإلى تحكيم الأصول الشرعية، فكان سيفاً مسلواً على المخالفين للسنة، وشجى في حلق أهل الأهواء المبتدعين، وإماماً قائماً ببيان الحق ونصرة الدين، ناصراً للسنة وإن خالفت ما عليه الناس، مما أصابه بمحن وشدائد.

يقول الذهبي **رَحِمَهُ اللهُ**: (ولقد نصر السنة المحضة والطريقة السلفية واحتج لها ببراهين ومقدمات حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياماً لا مزيد عليه، وبدَّعوه وناظروه وكابروه، وهو ثابت لا يدهن ولا يماري، بل يقول الحق المر الذي أداه إليه اجتهاده).

(١) انظر ترجمته في: «المقصد الأرشد» (٩٢/١).

(٢) انظر ترجمته في: «طبقات المفسرين» للداودي (١١١/١).

(٣) انظر ترجمته في: «طبقات الشافعية» للأسنوي (١٠٩/٢).

وقد كان خصومه يكدون له حتى تمكنوا من جعل السلطان ونوابه يسألونه عن معتقده في عدة مجالس، ولكن الحق أبلج، وقد كان كما قال عنه الذهبي : (وكم من نوبة قد رموه من قوس واحدة فينجيه الله).

وشاء الله أن يتلي الشيخ فأوذي في ذات الله من المخالفين، وأخيف في نصر السنة المحضة، وامتنع مراراً، واتفق أهل الأهواء والبدع والشهوات على معاداته، وجُلُّ من عاداه تستروا باسم العلماء والزمرة الفاخرة فتخرصوا عليه بالكذب والبهتان، ونسبوا إليه ما لم يقله وما لم ينقله وما لم يوجد له بخط ولا سمع منه في مجلس، فسجن بسببهم في قلعة مصر، والقاهرة، والإسكندرية، وفي قلعة دمشق مرتين، كل ذلك بسبب تمسكه بنصوص الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح عليه السلام، وكان رحمته الله ينشر دعوته بين الناس وهو في داخل سجنه، حتى كان الناس يأتون إليه من كل مكان يستفتونه ويتلقون كلمة الحق منه، وفي آخر حياته رحمته الله سجن في قلعة دمشق حتى أتاه اليقين وهو ثابت على الحق المبين، لا يشتري راحة الدنيا بشيء من الدين، فرحمه الله رحمة واسعة وجعله من أهل الفردوس الأعلى.

المطلب السادس : مؤلفاته :

بارك الله للشيخ في عمره وأمه بتوفيقه فصنف مصنفات عظيمة هي أشهر من أن تذكر وأعرف من أن تنكر حتى قال غير واحد : (إنها سارت مسير الشمس في الأقطار، وامتلات بها البلاد والأمصاير قد جاوزت حد الكثرة فلا يمكن أحد حصرها).

ولابن القيم رحمته الله رسالة خاصة في مؤلفات الشيخ ذكر فيها واحداً وأربعين وثلاثمائة كتاب، ومع ذلك فقد فاتته من رسائل الشيخ الكثير.

ومن مؤلفاته :

- «منهاج السنة النبوية في نقد كلام الشيعة والقدرية».
- «درء تعارض العقل والنقل».
- «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح».
- «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم».
- «شرح العمدة في الفقه».
- «القواعد النورانية».
- «الفتوى الحموية».
- «العقيدة الواسطية».
- «بغية المرتاد».
- «النبوات».

المطلب السابع : وفاته، وثناء العلماء عليه :

وفاته :

مرض الشيخ وهو في سجن قلعة دمشق بضعة وعشرين يوماً، ولم يعلم أكثر الناس بمرضه، ثم توفي في سحر ليلة الإثنين والعشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، فصلي عليه بالقلعة ثم حمل إلى جامع دمشق، وصلى عليه وشيعه أناس لا يحصون كثرة وعدداً، ولم تفتح الأسواق المعتادة بالفتح أول ذلك النهار، واجتمع عنده خلق يبيكون، وأخبرهم أخوه زين الدين عبد الرحمن أنهما ختما في القلعة ثمانين ختمة والحادية والثمانين انتهيا فيها إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلنَّافِلِينَ فِي جَنَّتِ وَنَهْرٍ ۝٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٥﴾ [القمر: ٥٤-٥٥]، وحزر الرجال في جنازته بستين ألفاً أو أكثر، والنساء بخمسة عشر ألفاً.

ثناء العلماء عليه :

قال الذهبي رحمته الله: (قد قرأت بخط شيخنا العلامة كمال الدين بن الزملكاني^(١) ما كتبه سنة بضع وتسعين تحت اسم ابن تيمية : (كان إذا سئل عن فنٍّ من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحداً لا يعرفه مثله) . وقال الذهبي عنه: (يصدق عليه أن يقال: كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث ولكن الإحاطة لله).

وقال أيضاً : (فوالله ما رمقت عيني أوسع علماً ولا أقوى ذكاءً من رجل يقال له ابن تيمية مع الزهد في المأكل والملبس والنساء، ومع القيام بالحق والجهاد بكل ممكن)^(٢).

وحكى الذهبي عن الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد^(٣) أنه قال للشيخ عند اجتماعه به وسماع كلامه: (ما كنت أظن أن الله تعالى بقى يخلق مثلك).

(١) هو كمال الدين محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم الأنصاري، ابن الزملكاني، ولد بدمشق في شوال سنة (٦٦٧هـ)، كان عالماً، بليغاً، من أذكى أهل زمانه، درس، وأفتى، وصنف، وتخرج عليه تلاميذ كثير، توفي في مصر سادس عشر من رمضان سنة (٧٢٧هـ)، انظر ترجمته في: «طبقات الشافعية» للأسنوي (١/ ٣١٠-٣١١).

(٢) «زغل العلم» (ص: ٣٨).

(٣) هو محمد بن علي بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد، ولد قريباً من ساحل ينبع وأبواه متوجهان إلى الحج يوم السبت الخامس والعشرين من شعبان سنة (٦٢٥هـ)، كان جامعاً للعلوم الشرعية والعقلية، صاحب نظم رائق، ونشر فائق، من مؤلفاته: «الإمام»، و «إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام»، توفي في القاهرة حادي عشر من صفر سنة (٧٠٢هـ). انظر ترجمته في: «طبقات الشافعية» للأسنوي (٢/ ١٠٢-١٠٤).



وقال الحافظ المزي **رحمته الله**^(١) : (ما رأيت مثله، ولا رأى هو مثل نفسه).

وقال ابن عبد الهادي **رحمته الله** : (كان بحراً لا تكدره الدلاء، وحبراً يقتدي به الأخيار الألباء، طنت بذكره الأمصار، وضنت بمثله الأعصار).

(١) هو يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف القضاعي الحلبي المزي، أبو الحجاج، جمال الدين، ولد في حلب سنة (٦٥٤هـ)، كان أحفظ أهل زمانه، وكانت الرحلة إليه لروايته، وكان إماماً في اللغة، والتصريف، ديناً، خيراً، من مصنفاته: «تهذيب الكمال في أسماء الرجال»، و«تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف»، توفي بدمشق ثاني عشر من صفر سنة (٧٤٢هـ) انظر ترجمته في: «طبقات الشافعية» للأسنوي (٢/٢٥٧-٢٥٨).

ترجمة الشيخ أ.د. سَليمانَ بنِ سَليمَ اللهِ الرَّحيلي

قال الشيخ مترجماً لنفسه^(١):

أنا سليمان بن سليم الله بن رجاء الله بن بَطي الرحيلي، من قبيلة حرب.

ولدت ونشأت ولا زلت - وأسأل الله أن أموت - في المدينة.

أول ما تلقيت العلم - قبل الدراسة النظامية - في مسجد النبي ﷺ، فحضرت بعض مجالس الشيخ الأمين رَحِمَهُ اللهُ، وأنا دون السادسة من العمر، وحضرت بعض مجالس الشيخ عمر فلاتة رَحِمَهُ اللهُ، ومجالس الشيخ أبي بكر الجزائري حفظه الله، وهذه قد جلست فيها كثيراً، وحضرت بعض مجالس الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللهُ، عندما كان يقدم إلى المدينة، وبعض مجالس الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ، في الرياض والمدينة. وبعض مجالس الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ، العامة والخاصة التي كان يعقدها في المدينة.

وهذا يعود إلى أن الوالد - حفظه الله وختم لنا وله بالخير - قد حُبب إليه مجالس أهل العلم منذ عرف المدينة، وحضر مجالس المشايخ: الشيخ الأمين، والشيخ الإفريقي، حتى إن الشيخ عمر فلاتة رَحِمَهُ اللهُ، كان يقول لي: (إن والدك زميلي، كنا نجلس بجوار بعضنا في حلقة الشيخ الإفريقي)، وحضر أيضاً مجالس الشيخ ابن باز رَحِمَهُ اللهُ، وذكر لي أنه كره مجلساً لشخص ما؛ لأنه كان يسطر يده ليقبلها الناس، وكان يأخذني إلى المجالس، وأنا دون السادسة.

(١) من شريط «الدرر العتيقة في جلسة العتيقة» بتصرف.

ثم وأنا في السادسة التحقت بمسجد في الحي لتحفيظ القرآن على يد أحد المشايخ من قبيلتنا، اسمه: عتيق بن جابر الرحيلي، في مدرسة كان يرعاها فضيلة الشيخ راشد بن عاتق الرحيلي - رحمهم الله جميعاً -، وأتممت حفظ القرآن قبل العاشرة بحمد الله.

ودرستُ الدراسة النظامية، وتخرجت من الابتدائية، فأصرَّ والدي على أن التحق بالجامعة الإسلامية، بالمعهد المتوسط، وكانت الجامعة إذ ذاك لا يلتحق بها من أبناء السعوديين إلا المتردية والنطيحة ومن شذَّ من لهم شأن، حتى إن الوالد جُوبِهَ برفض شديد من أن ألتحق في الجامعة، حتى إن مدير المدرسة الابتدائية قد أخذ عليه تعهداً بأنِّي إذا لم أقبل بالجامعة لا أقبل في أي مدرسة أخرى، تخويفاً؛ سبب ذلك أنِّي كنت متفوقاً بالمواد العلمية، لكنَّ الوالد أصرَّ إلا أن أدخل الجامعة الإسلامية، قال لهم: (الرزق بيد الله، أنا أريده أن يتعلم العلم الشرعي)، فالتحقت بالمعهد المتوسط بالجامعة، فدرسنا على مشايخ - في الحقيقة - أجلاء، وكان أكثرهم من الأزهر، وكانوا في علوم الآلة من الأقوياء، ولا زالت عندي كتابات لبعضهم إلى اليوم، كتابات خاصة بي.

ثم انتقلت إلى المعهد الثانوي بالجامعة، وكان الأمر مثل سابقه.

ثم التحقت بكلية الشريعة، ودرست في كلية الشريعة، وزاملت عدداً من الفضلاء أذكر منهم الآن: أخي وزميلي ومن أحببته في الله وأحبني في الله: الشيخ ياسين محمود - رحمه الله رحمة واسعة -، وكنا نتبادل الأول والثاني في الكلية، ففي السنة الأولى كنت الأول وكان الشيخ الثاني في الكلية، ثم في السنة الثانية كان الأول وكنت الثاني، ثم في الثالثة والرابعة كنت الأول.



أيضاً زميلي وأخي الشيخ ترحيب الدوسري، وهو زميلي في الدراسة، وإن كان أسنّ مني، لأنه كان قد التحق بكلية أخرى قبل أن يلتحق بكلية الشريعة، وكذلك زاملت عدداً من الفضلاء، وتشرفت بالتلمذ على عدد من المشايخ في الكلية، منهم شيخي الشيخ عبد السلام بن سالم السحيمي حيث تتلمذتُ عليه سنتين، في كلية الشريعة، والشيخ صالح السحيمي والشيخ علي الحذيفي، وجمع من المشايخ.

تخرجت في كلية الشريعة، وأُجبرتُ على قسم أصول الفقه، حتى قيل لي: إن لم ترضَ بقسم أصول الفقه فلن تقبل في أي قسم آخر، فمن فضل الله عليّ، أن مشايخي كان كل منهم يوجهني في القسم الذي يريد، كان من مشايخي من يقول لي: لا تلتحق إلا بقسم العقيدة، نحن نريدك في قسم العقيدة، وكان الشيخ فيحان المطيري يقول لي: (لا تلتحق إلا بقسم الفقه، ولا نأذن لك إلا في قسم الفقه) وشاء الله أن أكون في قسم الأصول، فُعِينت في قسم الأصول معيداً، ودرستُ السنة المنهجية، وفي السنة الثانية أصررت على أن أدرّس في الكلية، فبحمد الله درّست القواعد الفقهية منذ تقريرها في كلية الشريعة على طلاب الكلية، فكنت أول من درّسها في الكلية، واستمرّيت على ذلك سنين، إلى أن انتقلت إلى التدريس في الدراسات العليا في الجامعة، ولا زلنا - ولله الحمد والمنة - ندرّس في الجامعة.

رزقني الله **وعجل** نعمة عظيمة، وهي التلمذ على مشايخي الذين حببونا في منهج السلف، وعلمونا أن هذا هو المنهج الصالح للعلم والعمل معاً، فالعلم النافع هو الذي يكون على طريقة السلف الصالح - رضوان الله عليهم -، والعمل الصالح إنما هو على طريقتهم؛ لأنها مأخوذة عن النبي **صلّى الله عليه وآله**، ولا زلنا على هذا، وأسأل الله، أن يثبتنا وإخواني على هذا، وأن يميّتنا عليه، مهما خالف المخالفون.

أما الحالة الاجتماعية: فأنا متزوج وموحد وخائف، كلها صفات مدح، فالزواج مدوح شرعاً، والتوحيد مدوح شرعاً، والخوف مدوح شرعاً.

لي من الأولاد - الحمد لله - سبعة، خمسة من الذكور .
ألفت بعض الكتب، بعضها مخطوط عندي، وبعضها نُشر:

فمما كتبه:

- «شرح الأصول الثلاثة». (تحت الطبع).
- «شرح منظومة السعدي في القواعد الفقهية» - وهي مخطوطة عندي كاملة - (تحت الطبع).
- «شرح كتاب البيوع من منار السبيل» - وقد فرَّغه بعض الفضلاء من أشربة لي - (تحت الطبع).
- «قواعد تعارض المصالح والمفاسد».
- «مسائل الكتاب والسنة ودلالات الألفاظ التي أخطأ فيها الرازي في المحصول والمعالم».
- «التعريفات الأصولية في مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية».
- مسائل الأمر الأصولية التي انتقدها شيخ الإسلام ابن تيمية.
- «الإشراقات على كتاب المقاصد في الموافقات». (تحت الطبع).
- «نقد شيخ الإسلام ابن تيمية لمسألة تكليف ما لا يطاق». (تحت الطبع).
- «انحراف الشباب، الوسائل والعلاج».
- «من فقه الفتن».



رسالة الماجستير كانت عن: «التأويل وأثره في أصول الفقه»، كان المشرف الشيخ عمر عبد العزيز، من خيرة من عرفت، عرفت فيه حبه للتوحيد، عرفت فيه حبه لعقيدة السلف، وعرفت فيه حبه لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وكان يفرح جداً عندما آتية بكلام لشيخ الإسلام ابن تيمية أو ابن القيم.

ثم رسالة الدكتوراه كانت بعنوان: «القواعد المشتركة بين أصول الفقه والقواعد الفقهية»، وكان المشرف عليّ الشيخ عمر عبد العزيز، وهو عراقي، الآن في قطر، الشيخ مريض، أسأل الله أن يشفيه^(١)، أشرف عليّ في الدكتوراه، وانتقل إلى أم القرى قبل أن يتم الإشراف فقلت رسمياً أن يكمل الإشراف عليّ، ومن فضله أنه كان يأتيني إلى المدينة لساعة الإشراف، لا أذهب إليه أنا في مكة؛ بل يأتي بسيارته يوم الثلاثاء - لأنه لا محاضرات عنده -، أحياناً يأتي مباشرة إلى الكلية ويحضر ساعة الإشراف، ثم قد يسافر من نفس الليلة إلى مكة، وهذا أمر لا أظن أن أحداً يفعل، أسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يجزيه عني خير الجزاء.

الأعمال العلمية والإدارية:

أستاذ في قسم أصول الفقه بكلية الشريعة بالجامعة الإسلامية.

التدريس في مرحلة الدكتوراه في قسم الفقه وفي مرحلة الماجستير في قسم أصول الفقه إضافة إلى التدريس في المرحلة الجامعية.

الإشراف على عدد من الرسائل في داخل الجامعة وخارجها.

(١) وقد توفي الشيخ رحمه الله في (٢٥ / ٧ / ٢٠١٠ م).

أستاذ كرسي سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمته الله، للفتوى وضوابطها في الجامعة.

المشاركة في التدريس في المسجد النبوي.

رئيس لجنة أفريقيا في عمادة القبول والتسجيل سابقاً.

رئيس لجنة آسيا في عمادة القبول والتسجيل سابقاً.

رئيس لجنة أوروبا في عمادة القبول والتسجيل سابقاً.

وكيل كلية الشريعة للدراسات العليا والمسائية سابقاً.

عميد شؤون الطلاب في الجامعة الإسلامية سابقاً.

عضو مجلس الجامعة سابقاً.

عضو اللجنة العليا للتوجيه والإرشاد بالجامعة الإسلامية.

المشاركة في البرنامج الثقافي للجامعة.

إلقاء محاضرات في داخل السعودية وخارجها.

إقامة دورات علمية في داخل السعودية وخارجها.

المشاركة في مؤتمر المواطنة، وغيره في دولة الكويت الشقيقة.

المشاركة في برنامج الأستاذ الزائر الدولي في الولايات المتحدة الأمريكية.

هذا بعض ما يحضرني في هذا المقام، وهو أمر على كل حال، لا أظن أن فيه فائدة سوى ألا نسمع لغواً.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الملك القدوس السلام، أكرمنا بدين الإسلام، وأكمل لنا الدين وأتمّ علينا الإنعام، وبَيَّن لنا الحلال والحرام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، المعبود الحق على الدوام، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، النبي الإمام، المبعوث رحمةً للأمم، من التزم سنته اهتدى واستقام، ومن أعرضَ عن دينه تخبط في دياجير الظلام، ومن أحدث في أمره ما ليس منه فهو ردٌّ مع الآثام، صلى الله عليه وسلم أكمل صلاة وأتمّ سلام، ورضي الله عن آله الطيبين الأعلام، وصحابته الخيار الكرام.

أما بعد:

فبين يدي شرح هذه الوصية الصغرى حجماً، الكبرى مضموناً، أذكر نفسي وإخواني بأمر غفل عنه كثير من طلاب العلم، فقلَّ الانتفاع بالعلم، وكثر التباهي به، واتسع الخلاف وشُقِّق، ذلكم الأمر العظيم: أن نتعلم العلم لأنفسنا أصلاً، وقد كان السلف يتعلمون لإصلاح أنفسهم، ويعلمون أنهم المقصودون أصالة بما يتعلمون.

يقول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: (ما تعلمت حرفاً واحداً للناس)، فكان الواحد من السلف يتعلم؛ ليصلح نفسه، ثم يفيض الخير على غيره من الناس.

وكلامنا في شرح «الوصية الصغرى» لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، حيث سأل العالم الرحالة أبو القاسم السبتي المغربي شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أربعة أمور:

الأول: أن يوصيه بما ينفعه في دينه ودنياه.

الثاني: أن يدلّه على كتاب جامع يغني عن غيره في علم الحديث خاصة، وعلوم الشريعة عامة.

الثالث: أن يدلّه على أفضل الأعمال الصالحة بعد الواجبات.

الرابع: أن يدلّه على أرجح المكاسب.

وقد أجابه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله وبدأ بالأمر الأول؛ وهو الوصية بما يُصلح الدين والدنيا، وبين أمرًا عامًا؛ وهو: أن الذي يُصلح دين الإنسان ودنياه: أن يتمسك بما في الكتاب والسنة.

ثم أوصاه بالوصية الخاصة؛ وهي وصية النبي صلّى الله عليه وآله لمعاذ رضي عنه، هذه الوصية من تمسك بها أصلح دينه ودنياه؛ حيث قال النبي صلّى الله عليه وآله لمعاذ رضي عنه لما بعثه إلى اليمن: «يا معاذ، اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»^(١).

وخلاصة هذا الوصية: أن تعمل أيها المسلم بما أمرك الله به، وأن تجنب ما نهأك الله عنه؛ وهذا معنى «اتق الله حيثما كنت»، وأن تحرص إذا زلت القدم على أن تزيل أثر الذنب؛ وهذا معنى «وأتبع السيئة الحسنة تمحها»، وأن تتعامل مع الناس بكريم الأخلاق؛ وهذا معنى «وخالق الناس بخلق حسن».

ولا شك أن من عاش حياته على هذا، عاش سعيد القلب، مطمئن النفس، مرتاح البال، على صراط مستقيم.

(١) يأتي تخريجه .



شرح الوصية الصغرى

وبين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله وجه كون هذه الوصية أنفع ما يكون للمسلم في دينه ودنياه من وجوه:

الوجه الأول: أنها من آخر وصايا النبي صلوات الله عليه؛ لأن النبي صلوات الله عليه وصى بها معاذًا رضي عنه لما بعثه إلى اليمن، وكان ذلك قبل وفاة الرسول صلوات الله عليه بيسير.

والوجه الثاني: أنها وصية يحتاجها كل إنسان مهما علت منزلته، ولا يستغني عنها أحد، ولو كان يستغني عنها أحد لعلو منزلته، لاستغنى عنها معاذ رضي عنه.

والوجه الثالث: أنها جامعة لجوامع الخير؛ لأن النبي صلوات الله عليه وصى بها معاذًا، الذي له منزلة عليّة عنده، والمعلوم أن من يوصي من يحب يختصه بجوامع الخير.

والوجه الرابع: أنها جمعت بين كونها تفسيرًا لوصية الله تعالى، وكونها وصية لرسول الله صلوات الله عليه؛ فجمعت الحسنيين؛ هي تفسير لوصية الله تعالى، ووصية رسول الله صلوات الله عليه.

ثم بين شيخ الإسلام كونها جامعة للخير، وبين أن العبد في الدنيا بين حقين: حق الله، وحق عباد الله سبحان الله، وأن المطلوب منه أن يؤدي الحقوق، لكن الإنسان لضعفه، لا بد أن يقع منه الخطأ في حق الله، وفي حق عباد الله سبحان الله، ولذلك قال النبي صلوات الله عليه: «اتق الله حيثما كنت» أي: افعَل المأمور، واجتنب المحظور أو المنهي عنه ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، فإذا زلت القدم؛ فأتبع السيئة الحسنة تمحها.

ثم بين شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله أن الذنوب لها آثار على العباد؛ عاجلة وآجلة، وأن الله من رحمته قد جعل لعباده أمورًا تزيل آثار الذنوب.

وقد عدّ العلماء ما يزيل آثار الذنوب في عشرة أمور، وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في هذه الوصية ذكر أربعة منها؛ لأنها التي تقع في الدين؛ وهي:

١. التوبة.
٢. الاستغفار.
٣. العمل الصالح.
٤. البلاء الذي يصيب المؤمن.

وهذه الوصية ينبغي أن يهتم بها الإنسان، فإن العقلاء يحرصون على استماع الوصايا رجاء الانتفاع بها؛ لأن العادة جرت بأنه لا يوصي إلا من كان كبير الشأن واسع الحكمة، وأنه يودع فيها جوامع الكلم ومهمات الحكم، فكيف إذا جاءت الوصية من عالم رباني أثري عُرِفَ عنه رحمه الله سعة العلم ونصرة (قال الله، قال رسوله صلوات الله عليه)، والصبر على ما يصيبه في ذلك، كما عرف عنه حسن خلقه مع الناس، ورحمته بالخلق، وسعيه فيما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم، وقد دلت سيرته على هذا أعظم دلالة؛ ألا وهو شيخ الإسلام، ابن تيمية رحمه الله، وما أحوجنا إلى مثل هذه الوصية! في هذا الزمن، الذي كثر فيه التعالم، وازدادت قسوة القلوب، وكثرت الفتن.

وهذه الوصية معروفة عند أهل العلم بـ «الوصية الصغرى» وهو أشهر أسمائها، وإن كان متأخراً، وبـ «سؤال أبي القاسم المغربي»، وبـ «وصية شيخ الإسلام لأبي القاسم السبتي»، وأقدم هذه الأسماء الثالث منها.

ووصفت بالصغرى تمييزاً لها عن الوصية الكبرى من حيث الحجم؛ حيث تقع الوصية الصغرى في «مجموع الفتاوى» في ثلاث عشرة صفحة في المجلد العاشر، وتقع الوصية الكبرى في المجلد العاشر في سبعين صفحة.



شَرْحُ الوَصِيَّةِ الصُّغْرَى

وهذه الوصية اشتهرت في حياة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله حيث قرأها عليه بعض تلاميذه .

والسائل أبو القاسم السبتي اسمه: القاسم بن يوسف، السبتي، من أهل المغرب، وهو موصوف بأنه: فاضل، محدث، رحال، وكان يكتب ما يستفيده من العلماء في رحلاته.

وقد جاء في مفتاح هذه الوصية العظيمة قول أبي القاسم المغربي رحمته الله:
(يتفضل سيدنا الشيخ، الفقيه، الإمام، الفاضل، العالم، بقية السلف، قدوة الخلف، المبدع المُنْعَرَّب، المغرب، المفصح).

قوله رحمته الله: (سيدنا) أي: صاحب الشرف والرفعة، والله هو السيد الكامل السؤدد، ويطلق على البشر بما يليق بهم؛ فمحمد صلوات الله عليه سيد ولد آدم^(١)، ووَصَفَ النبي صلوات الله عليه بعض الصحابة بالسيادة؛ كقوله في سعد بن معاذ رضي عنه: «قوموا إلى سيدكم» كما في «الصحيحين»^(٢)، وقال في سعد بن معاذ رضي عنه: «اسمعوا إلى ما يقول سيدكم» كما في «صحيح مسلم»، فيصح ويستقيم أن نقول سيدنا محمد صلوات الله عليه إلاّ في الأذكار المنقولة، كالصلاة الإبراهيمية، فإنه لا يجوز أن يضاف على المنقول شيء؛ لأن الأذكار توقيفية.

قوله رحمته الله: (المبدع)؛ أي: أنه لسعة علومه وكثرتها، كأنه يخترعها، لقلة من يهتم بالعلم المبني على المنقول في زمنه، ويقال للشيء إذا كان غريباً في وقته: (بدعة) وإن كان ثابتاً معمولاً به فيما مضى؛ كقول عمر رضي عنه لما جمع الناس في

(١) أخرجه الإمام مسلم في «الصحيح» كتاب: الفضائل رقم: (٢٢٧٨).

(٢) «صحيح البخاري» كتاب: الجهاد والسير، باب: إذا نزل العدو على حكم رجل، رقم:

(٣٠٤٣)، و«صحيح مسلم» كتاب: الجهاد والسير، رقم: (١٧٦٨).

صلاة التراويح في رمضان: (نعمت البدعة هذه)، لأن الناس قد تركوها، وإن كان النبي ﷺ قد صلى بالناس جماعة في قيام رمضان ليلتين أو ثلاثاً، ثم ترك ذلك؛ خشية أن تفرض على الأمة^(١)، فلما تولى عمر رضي الله عنه الخلافة، جمع الناس على إمام واحد^(٢)، فكأنه أبدعها لعدم عمل الناس بها.

قال **رحمته الله**: (المغرب) هو: المكث، الذي يتكلم في كل شيء، ومقصوده **رحمته الله**: المتفنن في العلوم المختلفة، الذي يتكلم في كل علم بإحسان، وقد صدق **رحمته الله**؛ فقد كان شيخ الإسلام متبحراً في العلوم، وإذا تكلم في علم، أحسنه أكثر من أهله بل من ميزات شيخ الإسلام ابن تيمية **رحمته الله** أنه يعرض حجة غيره - وقد يكون من مخالفه - أقوى من عرض أهلها لها وهذا لسعة علمه وإنصافه **رحمته الله**.

قال **رحمته الله**: (أعلم من لقيت ببلاد المشرق والمغرب، تقي الدين، أبو العباس، أحمد بن تيمية أبقى الله علينا بركته).

الله أكبر!! أبو القاسم، العالم الفاضل، يصف شيخ الإسلام ابن تيمية **رحمته الله** بهذه الأوصاف العظيمة، التي اشتهر بها في ذلك الزمن، ولم يكن **رحمته الله** تجاوز السادسة والثلاثين من عمره؛ لأن هذه الرسالة قد قرئت على شيخ الإسلام **رحمته الله** سنة ستمائة وسبع وتسعين من الهجرة، والمعلوم أن شيخ الإسلام ولد سنة ستمائة وإحدى وستين من الهجرة، وهذا من بركة العلم بالكتاب والسنة

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الجمعة، باب: من قال في الخطبة بعد الثناء: أما بعد، رقم: (٩٢٤)، و«صحيح مسلم» كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، رقم: (٧٦١).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: صلاة التراويح، باب: فضل من قام رمضان، رقم: (٢٠١٠).



شرح الوصية الصغرى

على فهم السلف الصالح عليه السلام، فإن شيخ الإسلام رحمته الله عُرِفَ من نعومة أظفاره بشغفه بالمنقول وآثار السلف الصالح عليه السلام، ومن وُفِّقَ لهذا العلم كان من أعلم الناس بالحق، وأرحمهم بالخلق .

قال رحمته الله : (بأن يوصيني بما يكون فيه صلاح ديني ودنياي، ويرشدني إلى كتاب يكون عليه اعتماد في علم الحديث، وكذلك في غيره من العلوم الشرعية، وينبهنني على أفضل الأعمال الصالحة بعد الواجبات، ويبين لي أرجح المكاسب، كل ذلك على قصد الإيماء والاختصار، والله تعالى يحفظه، والسلام الكريم عليه ورحمة الله وبركاته).

طلب أبو القاسم رحمته الله من شيخ الإسلام أن يوصيه بهذه الجوامع - كما قدمناه - وأن تكون الوصية على سبيل الإيماء والاختصار؛ لتكون أسهل في الحفظ والضبط، وأيسر في العمل، وهذا ديدن السلف؛ فإنهم كانوا يحرصون على العمل لا على التكثير .

وانظر - يا طالب العلم - إلى هذا السؤال المبارك، كيف كان سبباً للأجر الكبير الكثير، الذي يُرجى أن يفوز به أبو القاسم رحمته الله كلما قرئت هذه الوصية، أو شرحت، أو عمل بها إلى يوم القيامة، فاحرص - وفقك الله - على أن يكون لقاءك بالعالم سبباً للخير، واحذر من أن تكون سبباً في صدور كلام من العالم؛ بناء على قولك، يكون فيه شر وفتنة، لا من جهة العالم؛ وإنما من جهة صنيعك.

(قال شيخ الإسلام بحر العلوم ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ وَرَضِيَ عَنْهُ: الحمد لله رب العالمين).

شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ كان معروفاً بالسخاء؛ لا سيما في بذل العلم، ويظهر هذا في أجوبته رَحِمَهُ اللهُ حيث يبسط الجواب، ويدل عليه، ويجيب عما يشكل عليه ويزيد السائل فوائد لم يسأل عنها، ومن سخائه رَحِمَهُ اللهُ بالعلم أنه ما طلب منه أحد كتاباً إلا أعطاه إياه، ولو كان محتاجاً إليه، وكان يقول: (كيف أردته وقد سألتني علماً).

وجوابه في هذه الوصية على طريقته بالسخاء بالعلم، مع تحقيق مقصود السائل بالاختصار، وبدأ جوابه بحمد الله عَزَّوَجَلَّ؛ اقتداءً بكتاب الله الكريم؛ فإنه مبدوء بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١].

ثم تكلم عن الوصية، والوصية في لسان العلماء هي: (الكلام الجامع لخير كثير، المتضمن أمراً ونهياً).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (أما الوصية فما أعلم وصية أنفع من وصية الله ورسوله ﷺ لمن عقلها واتبعها).

الله أكبر!! هذا الاعتصام بالكتاب والسنة، والخير كله فيه؛ أوله وآخره وظاهره وباطنه، فمن أراد الخير لنفسه وأهله ومجتمعه فعليه أن يحرص على نشر ما في الكتاب والسنة، بفهم السلف الصالح رَحِمَهُمُ اللهُ، وأن يربي الناس على ذلك.

ولا أنفع للعبد من وصية ربه ﷻ ووصية رسوله ﷺ لمن فهمها فهماً يؤثر في نفسه، وعمل بها، فلا بد عند استماع الخير من إحضار القلب، ومن حسن الاستماع، وصدق العزم؛ يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].



شَرْحُ الْوَصِيَّةِ الصُّغْرَى

قال شيخ الاسلام رَحِمَهُ اللهُ: (قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]).

هذه وصية الله للأولين والآخرين، وهذه الآية تدل على أن الأنبياء قد اتفقوا على أمر الناس بالتقوى.

والله ﷺ أمر بها الناس جميعاً، فقال سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١].

وأمر الله بها المؤمنين، فقال سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٧٨].
وأمر بها خير ولد آدم أجمعين، فقال سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١].

قال شيخ الاسلام رَحِمَهُ اللهُ: (ووصى النبي ﷺ معاذاً لما بعثه إلى اليمن، فقال: «يا معاذ، اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»).

النبي ﷺ بعث معاذاً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى اليمن قبل موته بيسير؛ فهذه من آخر وصاياه ﷺ، وهذا الحديث رواه أحمد، والترمذي، والطبراني، واختلف في إسناده، وأعدل الأقوال فيه أنه حسن لغيره^(١)، وأنه من الأحاديث التي تلقاها علماء الأمة بالقبول، وجاء التصريح بكون هذه الوصية عند بعثه إلى اليمن في «شعب الإيمان» للبيهقي «والتمهيد» لابن عبد البر^(٢).

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٨٤/٣٥) رقم: (٢١٣٥٤)، والترمذي في «الجامع»، أبواب: البر والصلة، باب: ما جاء في معاشرته الناس، رقم: (١٩٨٧)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٤٥/٢٠)، رقم: (٢٩٧)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (١٣٧٣).

(٢) «شعب الإيمان» السابع والخمسون من شعب الإيمان: وهو باب في حسن الخلق، رقم: (٨٠٢٥)، و«التمهيد» (٥٥/٦).

وقد كان السلف يهتمون بهذه الوصية العظيمة فقد جاء في «مسند ابن الجعد»: حدثنا علي، أنَّ شعبة، قال: قلت للحكم: (أوصني) قال: (أوصيك بما أوصى به النبي ﷺ معاذًا: «اتق الله حيثما كنت، وخالق الناس بخلق حسن، وأتبع السيئة الحسنة تمحها»)(١).

قال شيخ الاسلام رحمه الله: (وكان معاذ رضي الله عنه من النبي ﷺ بمنزلة علي، فإنه قال له: « يا معاذ، والله إنني لأحبك»، وكان يردفه وراءه، وروي فيه أنه أعلم الأمة بالحلل والحرام، وأنه يحشر أمام العلماء برتوة - أي بخطوة - ومن فضله أنه بعثه النبي ﷺ مبلغاً عنه، داعياً ومفقهاً ومفتياً وحاكماً إلى أهل اليمن، وكان يشبهه بإبراهيم الخليل عليه السلام، وإبراهيم إمام الناس، وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: (إن معاذاً كان أمة قاتناً لله حنيفاً ولم يك من المشركين)؛ تشبيهاً له بإبراهيم عليه السلام(٢)، ثم إنه رضي الله عنه وصاه هذه الوصية).

في هذا الكلام بيان لأهمية هذه الوصية، وعظم شأنها، وعلو منزلتها؛ من وجهين: الوجه الأول: أنه يحتاجها كل أحد، الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والعالم وغيره، ولا يستغني عنها أحد مهما علا شأنه، وعظم فضله، إذ لو كان يستغني عنها أحد لاستغنى عنها معاذ رضي الله عنه لكنه لم يستغن عنها، بل أوصاه بها النبي ﷺ بل كلما علا شأن المسلم كلما كان أحوج إلى هذه الوصية؛ لأنه كلما علا شأن المسلم كلما كان أثره في الأمة أعظم، وكلما كان الشيطان على إغوائه أحرص.

والوجه الثاني: أن النبي ﷺ كان يحبه ويُقسِمُ على ذلك ويؤكد، والمعلوم أنه كلما عظمت المحبة كلما اعتنى الموصي بجوامع الكلم والخير في وصيته لمن يحب.

(١) انظر: «مسند ابن الجعد» رقم: (٣١٢).

(٢) يأتي تخريج هذه الأحاديث في الصفحة التالية.



وبين شيخ الإسلام رحمته الله علو شأن معاذ رضي عنه بأمور :

الأول : أن النبي صلوات الله عليه كان يحبه ويؤكد ذلك ويقول: «يا معاذ، والله إنني لأحبك» رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح^(١).

الثاني : أن النبي صلوات الله عليه كان يردفه وراءه كما ثبت في «الصحيحين» أن النبي صلوات الله عليه أرفده وراءه على حمار^(٢)، وهذا يدل على منزلته عند النبي صلوات الله عليه.

الثالث : أنه فقيه الأمة، فهو أعلمها بالحلال والحرام، فقد روي عن أنس بن مالك رضي عنه، أن رسول الله صلوات الله عليه قال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي بن أبي طالب، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، ألا وإن لكل أمة أميناً، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»، رواه أحمد، وابن ماجه والترمذي وقال: (هذا حديث حسن صحيح)، والنسائي، وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: (صحيح لغيره)، وقال شعيب الأرناؤوط: (صحيح)، وصححه ابن باز^(٣).

(١) «السنن» لأبي داود، كتاب: الصلاة، باب: في الاستغفار، رقم: (١٥٢٢)، و «السنن الكبرى» للنسائي، كتاب: المساجد، باب: نوع آخر من الدعاء، رقم: (١٢٢٧)، وانظر «صحيح أبي داود الأم».

(٢) «صحيح البخاري» كتاب: الجهاد والسير، باب: اسم الفرس والحمار، رقم: (٢٨٥٦)، و «صحيح مسلم» كتاب: الإيمان، رقم: (٣٠).

(٣) «المسند» للإمام أحمد (٤٠٥ / ٢١)، رقم: (١٣٩٩٠)، و «الجامع» للترمذي، أبواب: المناقب، باب: مناقب معاذ بن جبل وزيد بن ثابت...، رقم: (٣٧٩١)، و «السنن الكبرى» للنسائي، كتاب: المناقب، باب: أبي بن كعب رضي عنه، رقم: (٨١٨٥)، و «السنن» لابن ماجه، أبواب: الإيمان وفضائل الصحابة، باب: فضل زيد بن ثابت، رقم: (١٥٤)، و «المستدرک» للحاكم، كتاب: معرفة الصحابة، (٤٢٢ / ٣)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم: (١٢٢٤)، و «حاشية البلوغ» لابن باز (ص ٥٦٤).

الرابع: أنه يحشر أمام العلماء برتوة، رواه الطبراني^(١)، وقال كثير من العلماء إنه مرسل، وقال الألباني في «السلسلة الصحيحة» إنه: (مرسل صحيح)^(٢)، وقال في «صحيح الجامع» إنه: (صحيح)^(٣)، وقال في تعليقه على «كتاب الإيمان» لأبي عبيد: (صحيح بمجموع طرقه)^(٤).

ومعنى رتوة: قيل خطوة، وقيل: أكثر من خطوة، وقيل: منزلة، وقيل: درجة، وقيل: رمية سهم، وقيل: مد البصر، وهي تدل على أن معاذاً رضي عنه يتقدم العلماء.

الخامس: أن النبي صلوات الله وسلامه عليه بعثه إلى اليمن معلماً وحاكماً، كما ثبت في «الصحيحين»^(٥).

السادس: أن النبي صلوات الله وسلامه عليه كان يشبهه بإبراهيم الخليل عليه السلام، هكذا في بعض نسخ «الوصية»، وفيها إشكال؛ لأنه لم يرد أن النبي صلوات الله وسلامه عليه كان يشبه معاذاً بإبراهيم عليه السلام لا بإسناد صحيح ولا ضعيف، فلعل الكلمة - والله أعلم - : (كان يُشَبَّه بإبراهيم عليه السلام)، ويدل عليه ما جاء في بعض النسخ (وكانوا يشبهونه)، وكذا يدل عليه ما بعده؛ أي: قوله: وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: (إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين) تشبيهاً له بإبراهيم.

وجاء عند الطبراني عن الشعبي، عن مسروق، عن عبد الله قال: (قرأت عنده، أو قرأها: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾ [النحل: ١٢٠])، فقال عبد الله: إن معاذاً

(١) «المعجم الكبير» للطبراني، (٢٩/٢٠) رقم: (٤٠).

(٢) «السلسلة الصحيحة» رقم: (١٠٩١).

(٣) «صحيح الجامع» رقم: (٥٨٨٠).

(٤) «الإيمان» لأبي عبيد بتحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني (ص: ٤٧).

(٥) «صحيح البخاري»، كتاب: الفرائض، باب: ميراث البنات، رقم: (٦٧٣٤)، و«صحيح مسلم» كتاب: الإيمان، رقم: (١٩).



شرح الوصية الصغرى

كان أمة قانتاً، قالوا: يا أبا عبد الرحمن، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا﴾، فقال عبد الله: وهل تدرون ما الأمة؟ الذي يعلم الناس الخير، والقانت: الذي يطيع الله ورسوله^(١).

وعن الشعبي، عن مسروق قال: (قال عبد الله: إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً، ولم يك من المشركين، فقال فروة - رجل من أشجع - : نسي، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ﴾، فقال: ومن نسي؟ إنا كنا نشبه معاذاً بإبراهيم، وسئل عن الأمة فقال: معلم الخير، وسئل عن القانت، فقال: مطيع لله ورسوله^(٢)).

و عن فروة بن نوفل الأشجعي، قال: (قال ابن مسعود: إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً، فقلت في نفسي: غلط أبو عبد الرحمن، إنما قال ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ﴾، قال: أتدري ما الأمة؟ وما القانت؟! قال: الله أعلم، قال: الأمة: الذي يعلم الناس الخير، والقانت: المطيع لله ورسوله، وكذلك كان معاذ بن جبل يعلم الخير، وكان مطيعاً لله ورسوله)، ورواه الحاكم، وقال: (صحيح على شرط الشيخين)، ووافقه الذهبي^(٣).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (فَعَلِمَ أَنَّهَا جَامِعَةٌ وَهِيَ كَذَلِكَ لِمَنْ عَقَلَهَا).

هذا وجه آخر في بيان علو منزلة هذه الوصية، وهي أنها جامعة لأصول الخيرات النافعة، وسيأتي بيان جمعها.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (مَعَ أَنَّهَا تَفْسِيرُ الْوَصِيَّةِ الْقُرْآنِيَّةِ).

هذا وجه آخر في بيان علو منزلة هذه الوصية وهو أنه يجتمع فيها أمران شريفان، أحدهما: أنها تفسير لوصية الله عَزَّوَجَلَّ لعباده في القرآن كما تقدم.

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (٥٩/١٠) رقم: (٩٩٤٣).

(٢) المصدر السابق، رقم: (٩٩٤٤).

(٣) «المستدرک» (٣/٢٧١).

والثاني: أنها نص وصية رسول الله ﷺ.

فتحصّل من هذا أن هذه الوصية عالية المنزلة جداً؛ لكونها لا يستغني عنها أحدٌ، وكونها وصية محب لحبيبه، وكونها جامعة، وكونها تفسيراً لوصية الله تعالى، ونص وصية رسول الله ﷺ، وفي هذا تشويق لاستماع هذه الوصية، وحث على العناية بها والعمل بما فيها.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (أما بيان جمعها، فلأن العبد عليه حقان: حق لله وعجل، وحق لعباده).

العبد عليه حقان: حق لله، وحق لعباد الله، والموفق من عباد الله من أدى الأمانات إلى أهلها، ووفّى كل ذي حق حقه، وقد قال النبي ﷺ: «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب، آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران» رواه البخاري^(١).

وفي رواية له: «وأما عبد أدى حق الله وحق مواليه فله أجران»^(٢).

وعند مسلم: «إذا أدى العبد حق الله وحق مواليه، كان له أجران»^(٣).

وحق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، كما في حديث معاذ رضي الله عنه في «الصحيحين»، وحق العباد: ما جعله الله حقاً لبعض العباد على بعض؛ كحق الوالدين والأقارب، والعلماء، وولاة الأمر، وهكذا.

(١) «صحيح البخاري»، كتاب: العلم، باب: تعليم الرجل أمته وأهله، رقم: (٩٧).

(٢) «صحيح البخاري»، كتاب: العتق، باب: العبد إذا أحسن عبادة ربه ونصح سيده، رقم: (٢٥٤٧).

(٣) «صحيح مسلم»، كتاب: الإيمان، رقم: (١٦٦٦).



قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: (ثم الحق الذي عليه لابد أن يخل ببعضه أحياناً، إما بترك مأمور به، أو فعل منهي عنه).

العبد مأمور بأن يؤدي حق الله، وحق عباد الله، لكن العبد لابد أن يخل بشيء من هذا، إما لقصوره، أي: لأنه قاصر فيلحقه النسيان أو الضعف أو الزلل، وإما لتقصيره؛ بأن يقصر في التعلم؛ فيكون جاهلاً ببعض حق الله أو ببعض حق عباد الله.

وهذا الإخلال إما أن يكون بترك مأمور به، أو فعل منهي عنه، وترك المأمور به قد يكون تركاً للواجب؛ فيكون ذنباً وسيئاً يستحق بسببه العقاب، وقد يكون تركاً لمستحب؛ فيكون نقصاً في الثواب والكمال، وفعل المنهي عنه قد يكون فعلاً للمحرم؛ فيكون ذنباً وسيئاً يستحق به العقاب، وقد يكون فعلاً لمكروه؛ فينقص به الثواب.

قال شيخ الإسلام رحمته الله: (فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «اتق الله حيثما كنت» وهذه كلمة جامعة، وفي قوله: «حيثما كنت» تحقيق لحاجته إلى التقوى في السر والعلانية).

أي احرص على فعل المأمور به ما استطعت راجياً ثواب الله، وعلى ترك المنهي عنه خائفاً من عقاب الله، وهذه هي التقوى؛ أن تفعل طاعة الله، على نور من الله؛ ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله؛ خوفاً من عقاب الله.

وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم: «حيثما كنت» بيان أن العبد بحاجة إلى تقوى الله في السر والعلانية، فهو بحاجة للتقوى في العلانية، بأن يحرص العبد على تحقيق الإخلاص، ودفع الرياء، وبهاجة للتقوى في السر، حيث يخلو بنفسه ولا يراه الناس فقد تضعف نفسه، ويشتد عليه مكر الشيطان؛ فيحتاج إلى تقوى الله ليدفع

هذا، ومن غفل عن التقوى لابد أن يصاب في مقتل في العلانية أو في السر؛ في العلانية: بأن يقع في مصيبة الرياء، وفي السر: بأن ينتهك محارم الله في الخلوات، فالإنسان بحاجة إلى تقوى الله في السر والعلن؛ لأنه يعلم أن الأمر كله عند الله. علن لا تخفى عليه خافية.

قال شيخ الاسلام **رَحِمَهُ اللهُ**: (ثم قال: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها»).

أي: اتق الله أيها العبد، واحرص على أداء الحقوق، فإذا زلّت القدم، ووقعت في الإخلال، فلا تيأس من رحمة الله، وتستسلم للشيطان، ولا تقل: ذهب الخير مني، ولا تنحدر في طريق الخطايا بسبب تلك الزلة، بل بادر مسرعاً لمحو هذه السيئة بحسنة؛ لأن النبي **ﷺ** قال: «أتبع» وهذا يدل على المبادرة؛ حتى لا تأتي زلة أخرى؛ فتقوي الزلة الزلة، فعن أبي هريرة، **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** عن رسول الله **ﷺ** قال: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها، حتى تعلق قلبه، وهو الران الذي ذكر الله، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»، [المطففين: ١٤]. رواه الترمذي، وقال: (حسن صحيح)، والنسائي، وحسنه الألباني^(١).

قال شيخ الاسلام **رَحِمَهُ اللهُ**: (فإن الطبيب متى تناول المريض شيئاً مضرًا، أمره بما يصلحه).

أي: أن فعل الحسنة بعد السيئة إنما هو من جنس تناول المريض الدواء إذا تناول

(١) «جامع الترمذي»، أبواب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ﴾، رقم: (٣٣٣٤)، و«السنن الكبرى» للنسائي، كتاب: عمل اليوم والليلة، باب: ما يفعل من بلي بذنوب وما يقول، رقم: (١٠١٧٩)، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي».



شَرْحُ الوَصِيَّةِ الصُّغْرَى

ما يضره، ولا شك أن المريض يبادر بتناول المصلح المذهب للضرر، ولا يتوانى، فكَذلك العبد إذا أدخل على نفسه ما يضرها في أعظم ما تملك وهو الدين، ينبغي أن يبادر إلى ما يزيل ذلك الضرر، بفعل حسنة ماحية لتلك الزلة.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (والذنب للعبد كأنه أمر حتم).

في هذه الجملة علاج عظيم للنفس، فلا يتساهل العبد في فعل الذنوب بحجة أنها لا بد منها؛ بل هو مأمور باجتنابها، لكن إذا زلت القدم بادر بفعل ما يُمَحِّى به الذنب، ولا يغفل عن نفسه ويقول: أنا من الصالحين، ولا أخاف على نفسي الذنب، بل يعلم موقناً أن الذنب كأنه أمر حتم له؛ فيظل مُراقِباً لنفسه دائماً، يمنعها من الحرام قبل وقوعه، ويزيل أثر الحرام عن نفسه عند وقوعه، ويدل لهذا قول النبي ﷺ: «كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون» رواه ابن ماجه، والدارمي، والبخاري، وأبو يعلى، وحسنه الألباني والأرنؤوط^(١).

وقال النبي ﷺ: «إن الله كتب على ابن آدم حفظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه»، متفق عليه^(٢).

وترجم عليه النووي باب: (قدر على ابن آدم حفظه من الزنا وغيره)، وعن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «ما من عبد مؤمن إلا وله ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة،

(١) «سنن ابن ماجه»، أبواب: الزهد، باب: ذكر التوبة، رقم: (٤٢٥١)، و«السنن» للدارمي، كتاب: الرقاق، باب: في التوبة، رقم: (٢٧٦٩)، و«البحر الزخار» للبخاري (٤٥٩/١٣) رقم: (٧٢٣٦)، و«المسند» لأبي يعلى (٣٠١/٥) رقم: (٢٩٢٢)، وحسنه الألباني وشعيب الأرنؤوط في «سنن ابن ماجه».

(٢) «صحيح البخاري» كتاب: الاستئذان، باب: زنا الجوارح دون الفرج، رقم: (٦٢٤٣)، و«صحيح مسلم» كتاب: القدر، رقم: (٢٦٥٧).

أو ذنب هو مقيم عليه لا يفارقه حتى يفارق، إن المؤمن خلق مفتناً، تواباً، نسياً، إذا ذُكِرَ ذَكَرَ» رواه الطبراني، وصححه الألباني^(١).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (فالكَيْس هو الذي لا يزال يأتي من الحسنات بما يمحو السيئات).

(الكَيْس) هو: العاقل الحازم، والأكياس يزيدهم الذنب قُرْباً من الله؛ لأن الكيس الفطن إذا أذنب قابل ذلك بالإكثار من الحسنات؛ فيزداد قرباً من الله، فمن أتبع السيئة الحسنة اكتسب فائدتين؛ الأولى: محو السيئة بالحسنة، وإذهاب أثرها، والثانية: ثواب الحسنة التي قد فعلها.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (وإنما قدم في لفظ الحديث «السيئة» وإن كانت مفعولة؛ لأن المقصود هنا محوها لا فعل الحسنة، فصار كقوله في بول الأعرابي: «صبوا عليه ذنوباً من ماء»).

المقصود بكون «السيئة» مفعولة: أن الفعل قد وقع عليها من جهة الفاعل، فالسيئة سابقة، والحسنة لاحقة؛ فهي كصب الماء على النجاسة، فالنجاسة تقع أولاً، ثم يُصَبُّ الماء عليها، فكان النسق أن يقال: أتبع الحسنة السيئة؛ لأن الإتيان للحسنة، لكن الذي ورد في الحديث «وأتبع السيئة الحسنة» فقدم السيئة وخالف النسق لفائدة؛ وهي بيان أن المقصود أصالة بفعل الحسنة هنا إذهاب السيئة، والمقصود التابع فعل الحسنة وحصول ثوابها، ففاعل الحسنة بعد السيئة له مقصدان؛ أصلي، وتابع، أما الأصلي: فهو إزالة أثر السيئة، وأما التابع: فهو حصول ثواب الحسنة.

(١) «المعجم الكبير» للطبراني (١١ / ٣٠٤) رقم: (١١٨١٠)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم: (٢٢٧٦).

وكان قول النبي ﷺ: «وأتبع السيئة الحسنة» كقوله ﷺ في بول الأعرابي لما بال في ناحية المسجد: «صبوا عليه ذنوباً من ماء»، هذا لفظ أبي داود ^(١)، وفي لفظ البخاري: «وأهريقوا على بوله ذنوباً من ماء» ^(٢)، ولم يقل: صبوا ذنوباً من ماء عليه؛ لأن المقصود ليس صب الماء بذاته؛ وإنما المقصود إذهاب النجاسة بصب الماء عليها.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (وينبغي أن تكون الحسنات من جنس السيئات؛ فإنه أبلغ في المحو).

لما ذكر الشيخ رحمه الله أن الله جعل إتيان السيئة الحسنة ماحياً لها، ذكر رحمه الله أنه ينبغي أن تكون الحسنة المفعولة من جنس السيئة التي فعلها العبد، فإن كانت السيئة قولية، ينبغي أن تكون الحسنة قولية، وإذا كانت السيئة المفعولة فعلية، ينبغي أن تكون الحسنة فعلية، وهكذا فإنه أبلغ في المحو، وهذا ليس شرطاً لكنه كمال، بل إن الحسنة إذا كانت عظيمة كانت أبلغ في المحو، سواء كانت من جنسها أو لم تكن من جنسها، لكن إن وجد من جنس السيئة حسنة عظيمة كان ذلك أبلغ في المحو، فعن ابن مسعود: أن رجلاً أصاب من امرأة قبله، فأتى النبي ﷺ، فأخبره؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، فقال الرجل: يا رسول الله ألي هذا؟ قال: «لجميع أمتي كلهم» متفق عليه ^(٣).

(١) «السنن» لأبي داود، كتاب: الطهارة، باب: الأرض يصيبها البول، رقم: (٣٨٠)

(٢) «صحيح البخاري» كتاب: الوضوء، باب: صب الماء على البول في المسجد، رقم: (٢٢٠).

(٣) «صحيح البخاري» كتاب: مواقيت الصلاة، باب: الصلاة كفارة، رقم: (٥٢٦)، و«صحيح مسلم» كتاب: التوبة، رقم: (٢٧٦٣).

و عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كنت عند النبي ﷺ فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، إني أصبت حداً فأقمه علي، قال: ولم يسأله عنه قال: وحضرت الصلاة، فصلّى مع النبي ﷺ، فلما قضى النبي ﷺ الصلاة، قام إليه الرجل فقال: يا رسول الله، إني أصبت حداً، فأقم فيّ كتاب الله، قال: «أليس قد صليت معنا» قال: نعم، قال: «فإن الله قد غفر لك ذنبك» أو قال: «حدك» متفق عليه ^(١).

وفي رواية لمسلم عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ في المسجد، ونحن قعود معه، إذ جاء رجل فقال: يا رسول الله إني أصبت حداً، فأقمه علي، فسكت عنه رسول ﷺ، ثم أعاد فقال: يا رسول الله إني أصبت حداً، فأقمه علي، فسكت عنه، وأقيمت الصلاة، فلما انصرف نبي الله ﷺ قال: أبو أمامة: فاتّبع الرجل رسول الله ﷺ حين انصرف، واتبعت رسول الله ﷺ أنظر ما يرُدُّ على الرجل، فلحق الرجل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني أصبت حداً، فأقمه علي، قال أبو أمامة: فقال له رسول الله ﷺ: «أرأيت حين خرجت من بيتك، أليس قد توضأت فأحسنست الوضوء؟» قال: بلى يا رسول الله، قال: «ثم شهدت الصلاة معنا» فقال: نعم يا رسول الله، قال: فقال له رسول الله ﷺ: «فإن الله قد غفر لك حدك» أو قال: «ذنبك» ^(٢).

وعليه فالقاعدة الشرعية الشريفة أن السيئة، إذا أتبت بحسنة، رجي أن تزيل أثرها، وكلما كانت الحسنة أعظم، كانت أبلغ في المحو، فإن تيسر أن تكون الحسنة العظيمة من جنس السيئة كان ذلك أكمل.

(١) «صحيح البخاري» كتاب: الحدود، باب: إذا أقر بالحد ولم يبين، هل للإمام أن يستر؟ رقم: (٦٨٢٣)، و«صحيح مسلم»، كتاب: التوبة، رقم: (٢٧٦٤).

(٢) «صحيح مسلم» كتاب: التوبة، رقم: (٢٧٦٥).

قال شيخ الإسلام **رَحِمَهُ اللهُ** : (والذنوب يزول موجبها بأشياء).

من عظيم لطف الله بهذه الأمة، أنه جعل لها الحسنه بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وجعل السيئة بمثلها، ومع ذلك جعل لها كفارات ما حيات.

والذنوب إذا وقعت من العبد لها موجب - بكسر الجيم - وهو السبب، أي: فعلها، وموجب - بفتح الجيم - أي: الأثر، والمقصود هنا الثاني؛ أي الموجب، وهو الأثر؛ لأنه هو الذي يزول، أما السبب إذا وقع، فإنه لا يزول؛ وعليه نقول: إن آثار الذنوب في الدنيا والآخرة تزول بأسباب، ذكر العلماء أنها عشرة، وذكر شيخ الإسلام منها هنا أربعة، وهي التي تقع في الدنيا، وذكر منها ثلاثة معاً: لأنها من فعل العبد، وهي: التوبة، والاستغفار، والأعمال الصالحة، وأخرَ الرابع عنها؛ لأنه ليس من فعل العبد، وهو البلاء الذي يصيب المؤمن .

ولم يذكر **رَحِمَهُ اللهُ** هنا الممحصات المكفرات، التي تكون في القبر، والتي تكون يوم القيامة، والتي تكون بعد دخول النار لمن استحق دخولها من الموحدين .

وهذه المكفرات كلها خاصة بالموحدين، ولا يدخل فيها المشركون، إلا التوبة فإنها تمحو كل ذنب حتى الشرك .

قال شيخ الإسلام **رَحِمَهُ اللهُ** : (أحدها التوبة).

بدأ شيخ الإسلام **رَحِمَهُ اللهُ** بالتوبة؛ لأنها أعم المكفرات؛ إذ تكفر كل ذنب، والتوبة معناها: الرجوع إلى الله تعالى عن الذنب بالإقلاع عنه، والندم عليه، والعزم على عدم العود إليه .

والتوبة سبب من أسباب تكفير الذنوب، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأَنْفَال: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ٦٨﴾ ٦٨ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ٦٩ إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٧٠ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧١].

وعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي صلی الله علیه وسلم، قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَسِطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ؛ لِيَتُوبَ مَسِيءُ النَّهَارِ، وَيَسِطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ؛ لِيَتُوبَ مَسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»، رواه مسلم ^(١).

قال رسول الله صلی الله علیه وسلم: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ، كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»، رواه ابن ماجه، والطبراني، والبيهقي، وصححه ابن باز، وحسنه الألباني ^(٢).

والتوبة لا تنفع صاحبها إلا إذا استجمعت شروطها، وشروط التوبة إذا كان الذنب في حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خمسة:

الشرط الأول: الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بأن يكون الدافع للعبد لكي يقلع عن الذنب هو خوف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(١) «صحيح مسلم» كتاب: التوبة، رقم: (٢٧٥٩).

(٢) «السنن» لابن ماجه، أبواب: الزهد، باب: ذكر التوبة، رقم: (٤٢٥٠)، و«المعجم الكبير» للطبراني (١٠/ ١٥٠) رقم: (١٠٢٨١)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (١٠/ ١٥٤) رقم: (٢١٠٧١)، وانظر: «السلسلة الضعيفة» للألباني رقم: (٦١٥، ٦١٦)، و«مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن باز» (٨/ ٢٩٢).

فالعبد إذا تاب، إما أن يتوب خوفاً من الله، وإما أن يتوب خوفاً من عباد الله، فإن تاب خوفاً من الله، فهذه التوبة النافعة التي تزيل أثر الذنب.

وإن تاب خوفاً من عباد الله، فإنّ هذا يزيل عنه الذنب في الحاضر ولكنه لا يزيل أثر الذنب الماضي.

مثال ذلك : إنسان - والعياذ بالله - يزني، زنى مرة، مرتين، ثلاثاً، ثم عَظُم خوف الله في قلبه فتاب، فهذا يُحَيِّ عنه الماضي، كأنه لَمْ يُذنب، وَيَسْلَم من الحاضر.

آخر - والعياذ بالله - كان يزني، زنى مرة، مرتين، ثلاثاً، ثم خاف من الفضيحة، خاف على مقامه ومكانه بين الناس؛ فترك الذنب، هذا يَسْلَم الآن من الذنب لأنه لَمْ يَزِنْ، ولكنّ الذنب الماضي يبقى عليه أثره، فانتبه يا رعاك الله لمسألة الإخلاص.

والشرط الثاني: أن يقلع عن الذنب، وليس صادقاً في توبته من يبقى على الذنب، ويقول إنه تائبٌ منه، والبقاء على الذنب يَمْنَع التوبة؛ من حيث أثرها.

والشرط الثالث: أن يندم على ما مضى، فيندم على الذنب الذي وقع منه، ومن علامة الندم : أن يكره أن يعود إلى الذنب بعد أن نجاه الله منه كما يكره أن يُقَذَف في النار، فليس تائباً مَنْ إذا تذكَّر الذنب قال: تلك أيامٌ جميلة! فإنّ هذا ليس نادماً على الذي وقع منه.

والشرط الرابع: أن يعزم على عدم العود إليه، وانتبهوا؛ لَمْ يقل العلماء: ألا يعود إليه، وإنما: (أن يعزم على عدم العود إليه)، فإذا عزم صادقاً فإنه تائب، فإن عاد بعدُ، فذاك ذنب جديد، لا يَنْقُضُ التوبة السابقة.

والشرط الخامس: أن تقع التوبة في وقتها، ووقت التوبة عامٌّ وخاصٌّ.

أمَّا العامُّ: فهو أن تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت الشمس من مغربها فإنَّ باب التوبة يُغلق.

وأمَّا الخاصُّ: فهو ما لم يغرغر الإنسان، يعني: ما لم تبلغ الروح الحلقوم؛ فإنَّ الله يقبل التوبة.

وهنا مسألة دقيقة اختلف فيها أهل العلم: هل المقصود بالغرغرة الثابتة في الحديث: ذات الغرغرة، أو المقصود اليأس من الحياة؟

ويترتب على هذا مسألة مهمة: وهي توبة من أُصيب بمرضٍ قاتلٍ يَعْلَمُ الناس أنَّ صاحبه يموت في غالب الحال؛ كمن أُصيب - والعياذ بالله - بالسرطان لا سيما في بعض أنواعه، أو أُصيب بما يسمَّى بالإيدز، أو غير ذلك، وعَلِمَ به، هل تُقبل توبته؟

إنسان ظلم إخوانه، ثم عَلِمَ أنه مصاب بالسرطان القاتل؛ وتاب، هل تقبل توبته؟ المسألة مبنية على ما قدّمناه؛ وهي: هل المقصود بالغرغرة: ذات الغرغرة؟ أو المقصود اليأس من الحياة؟

فمن قال: إنَّ المقصود هو ذات الغرغرة، قال: نعم، تُقبل توبته؛ لأنه لم يغرغر. ومن قال: المقصود هو اليأس من الحياة، قال: لا تُقبل توبته.

والذي يظهر - والله أعلم -: أنَّ المقصود الغرغرة بذاتها، يعني ما لم يغرغر فيَعْلَمُ أنه ميت الآن؛ لأنَّ الغرغرة دليلٌ على الموت الحاضر، وهذا المقصود، فما دام أنَّ الإنسان لم يقطع بموته فإنَّ توبته مقبولة، فإذا غرغر بحيث يعلم الناس أنَّ الروح لا تعود بعد هذا، فإنه لا تقبل توبته إذا غرغر.

هذا إذا كان الذنب لله، وإذا كان الذنب لعباد الله فإنه تُشترط للتوبة ستة شروط:
هذه الشروط الخمسة السابقة، ويزاد عليها سادس، وهو: أن يُعيد الحق إلى
أهله إن كان عيناً، أو يتحلَّل منه إن كان عيناً أو معنى.

أن يعيد الحق إلى أهله إن كان عيناً؛ مثال ذلك: إنسان غصب أرضاً فالتوبة أن
يعيد الأرض، أو سرق مالاً؛ التوبة أن يعيد المال.

أو يتحلَّل منه إن كان عيناً؛ مثال ذلك إنسان سرق عيناً وتلفَّت، أو لم تزل، فقال
لأصحابها: سامحوني، فقالوا: سامحك، فهذا يكفي.

أو كان معنوياً كمن سبَّ مسلماً، أو اغتاب مسلماً، أو كذب على مسلم، فلا بد
أن يتحلَّله.

لكن هنا مسألة دقيقة في المعنويات، قال العلماء: الذنوب المعنوية المتعلقة
بحقوق العباد لا تخلو من حالين:

الحال الأولى: أن يعلم صاحب الحق بالذنب الذي وقع عليه، أي: يعلم صاحب
الحق أن فلاناً سبه، أو أن فلاناً اغتابه، أو أن فلاناً كذب عليه، وهنا لا بد أن يستحلَّه
ويبذل ما يستطيع لعله أن يُحلَّه.

والحال الثانية: ألا يكون صاحب الحق قد علِمَ بذلك الذنب، لم يعلم أن فلاناً
كذب عليه أو اغتابه، أو سبه، هنا قال العلماء: إن كان فاعلُ الذنب يأمن صاحب
الحق، ويعلم أنه لا يترتب على ذلك فتنة؛ فإنه يستحلُّه.

أما إذا كان لا يأمنه، ويخشى لو استحلَّه أن تترتب على ذلك فتنة، أو مقاطعة،
أو مهاجرة، أو نحو ذلك؛ فإنه هنا لا يُخبره ولا يستحلُّه؛ ولكن يجتهد في الدعاء
له، ويجتهد في أن يذكره بخير كما ذكره بسوء، وهذا يكفي إن شاء الله **عجل**.

ثم ذكر شيخ الإسلام الأمر الثاني، فقال **رَحِمَهُ اللهُ**: (والثاني: الاستغفار من غير توبة، فإن الله تعالى قد يغفر له؛ إجابة لدعائه وإن لم يتب، فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال).

قوله **رَحِمَهُ اللهُ**: (والثاني الاستغفار من غير توبة)؛ الاستغفار: هو طلب المغفرة؛ لأنّ الألف والسين والتاء تدلّ على الطلب، فمعنى الاستغفار: طلب مغفرة الله، ومغفرة الله تعني: أن يستر الله ذنب العبد، وأن يزيل عنه أثره، فعندما تقول: (أستغفر الله) معنى هذا: أسألك يا ربي أن تستر عليّ ذنبي، وأن تزيل عني أثره.

وقد ورد الاستغفار في النصوص، فقد جاء أنّ النبي **ﷺ** يقول: «إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة» رواه مسلم في «الصحيح».

وفي الحديث الذي يرويه النبي **ﷺ** عن ربه - تبارك وتعالى - أنه قال: «يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وإني أغفر الذنوب جميعاً؛ فاستغفروني أغفر لكم»، رواه مسلم في الصحيح^(١).

الشاهد هنا أنّ الاستغفار ورد مفرداً من غير توبة؛ فعندنا هنا مسألتان:

المسألة الأولى: هل بين الاستغفار والتوبة فرق؟ أو هما بمعنى واحد؟

الجواب: أنّ بينهما فرقاً، ويظهر ذلك بوجوه:

الوجه الأول: أنّ التوبة لها وقت تنتهي به، أمّا الاستغفار فلا وقت له؛ ولذلك يُستغفَرُ حتى عن الميت، بعد أن غرغر ومات ودُفِنَ وقبر، ولا يُتاب عنه، فالتوبة لا تكون بعد الغرغرة.

(١) «صحيح مسلم» كتاب: البر والصلة والآداب، رقم: (٢٥٧٧).



الوجه الثاني : أنَّ التوبة إنما تكون من صاحب الذنب، أمَّا الاستغفار يكون من صاحب الذنب، ومن غيره له، فيصح أن يستغفر أحد عن أحد، ولا يصح أن يتوب أحد عن أحد، فلا يتوب الولد عن أبيه، ولكن يستغفر له، وتستغفر الملائكة للبشر، فهذا يبيِّن لك أنَّ بين التوبة والاستغفار فرقاً.

المسألة الثانية: هل ينفع الاستغفار بلا توبة؟

يرى بعض العلماء أنَّ الاستغفار طريق التوبة؛ وأنه لا ينفع مع الإصرار على الذنب؛ فلا ينفع إلا بتوبة، لأنَّ الطريق إذا لم يوصل إلى المقصود فإنه غير نافع. ويرى بعض أهل العلم أنَّ الاستغفار ينفع بلا توبة؛ بدليل وروده مفرداً في النصوص، وإفراده يدلُّ على نفعه بذاته.

أين تظهر فائدة المسألة؟

تظهر فائدة المسألة فيمن فعل ذنباً وأصرَّ عليه واستغفر، مثلاً إنسان يشرب الدخان - وشرب الدخان ذنب، يكاد يكون عليه اليوم اتفاق أهل العلم الذين يؤخذ برأيهم في الفتوى أنه حرام - وبعد ما ينتهي من السجارة يقول: استغفر الله، لكن هو عازم على أنه سيشرب بعد ساعة أو ساعتين، فهو مُصرٌّ؛ فهنا وُجد الاستغفار ولم توجد التوبة.

فإن قلنا: إنَّ الاستغفار لا ينفع إلا مع توبة؛ فهذا الاستغفار ضائع لا ينفعه.

وإن قلنا إنَّ الاستغفار ينفع من غير توبة؛ فهذا الاستغفار ينفعه.

والتحقيق من أقوال أهل العلم في المسألة: أنَّ الاستغفار لا يخلو من حالين:

الحال الأولى: أن يكون من باب استغفار الغير للمذنب، مثل استغفار الملائكة لمن قعد في المصلى ما لم يُحْدِث: «اللهم اغفر له، اللهم ارحمه»^(١)، ومثل استغفار الولد لأبيه، وهذا ينفع بلا توبة والدليل على ذلك أنه مطلوب للميت، والمعلوم أن الميت لا يتوب.

النبي ﷺ، لما مات النجاشي نعاه لأصحابه في اليوم الذي مات فيه، وقال: «استغفروا لأخيك»^(٢)، وقد مات.

وكان يقف على القبر ويقول: «استغفروا لأخيك»، واسألوا له التثبيت؛ فإنه الآن يُسأل»^(٣)، وقد مات، فلا يتصور منه أن يتوب.

ومن وجه آخر: أنه طُلب شرعاً، وما دام أنه طُلب شرعاً، فلا بد أن يكون نافعاً. وهذه قاعدة: ما طلب الله منّا شيئاً إلا وهو نافع؛ فإن الله لم يأمرنا تشديداً علينا، وإنما أمرنا بما فيه المصلحة العاجلة والآجلة.

والحال الثانية: استغفار المذنب بنفسه، والصحيح أنه ينفع صاحبه، بشرط أن يكون نابغاً من خوف الله، فيكون صادراً من خشية الله ﷻ، حقاً وصدقاً، فيكون حال العبد بين حالين: حال الخوف من الله، وحال الضعف مع الشهوة، فإذا تذكّر الخوف من الله استغفر، وإذا غلبته الشهوة فعَلَّ، فهذا ينفعه.

(١) «صحيح البخاري» كتاب: الصلاة، باب: الصلاة في مسجد السوق، رقم: (٤٧٧)، و«صحيح مسلم» كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، رقم: (٦٤٩).

(٢) «صحيح البخاري» كتاب الجنائز، باب: الصلاة على الجنائز بالمصلى والمسجد، رقم: (١٣٢٧)، و«صحيح مسلم» كتاب الجنائز، رقم: (٩٥١).

(٣) «السنن» لأبي داود، كتاب: الجنائز، باب: الاستغفار عند القبر للميت في وقت الانصراف، رقم: (٣٢٢١)، وصححه الألباني في «أحكام الجنائز»: (ص ١٥٦).



شَرْحُ الْوَصِيَّةِ الصَّغِيرِ

أما الاستغفار باللسان من غير أن يكون نابغاً من خشية الله، فهذا استغفار الكذاب، الذي يقول بلسانه: (أستغفر الله)، وليس في قلبه استشعار للذنوب الذي يفعل وخوف المعاقبة؛ فهذا يكذب في استغفاره، ولا ينفعه.

إذن نقول: إنَّ القول الوسط من أقوال أهل العلم في استغفار المذنب من غير توبة: أن ذلك ينفعه إذا كان ذلك نابغاً من خشية الله سُبْحَانَهُ، أما إذا كان باللسان فقط دون استشعار القلب فإنه لا ينفع صاحبه، ولذلك قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (فإنَّ الله تعالى قد يغفر له؛ إجابة لدعائه، وإن لم يتب).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال) فجمع الإنسان بين التوبة والاستغفار كمالاً، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. فجمع هنا بين الاستغفار والتوبة، فالاستغفار: أنهم ذكروا الله فاستغفروا، والتوبة: أنهم لم يصروا، فجمعوا بين التوبة والاستغفار.

وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة». رواه البخاري في «الصحيح»^(١).

فدلَّ ذلك على أن الجمع بين التوبة والاستغفار كمالٌ للعبد إذا وقع في الذنب.

(١) «صحيح البخاري» كتاب: الدعوات، باب: استغفار النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اليوم واليلة، رقم: (٦٣٠٧).

قال شيخ الإسلام **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (الثالث: الأعمال الصالحة المكفرة).

وذلك أن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، قال: «وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا» فالأعمال الصالحة ماحية، يسميها بعض العلماء بالممحصات؛ يعني التي تُمَحَّصُ بها الذنوب.

قال شيخ الإسلام **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (إما الكفارات المقدرة؛ كما يكفر المجامع في رمضان، والمُظَاهِر، والمرتكب لبعض محظورات الحج، أو تارك بعض واجباته، أو قاتل الصيد بالكفارات المقدرة).

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (الكفارات المقدرة): أي: الكفارات المعيّنة التي رُتِّبَتْ على السبب، فمتى ما وُجِدَ السبب وجبت، وهي سبب لتكفير الذنب أو التقصير، وإزالة ما يترتب عليه فإن الكفارات يُرجى أن تزيل موجب الذنب الذي وجبت بسببه.

ويرى بعض أهل العلم أن هذا الكفارات لا تزيل موجب الذنب بالكلية، إلا إذا اجتمعت معها التوبة.

والصحيح من أقوال أهل العلم: أن الكفارات زواجر قبل الوقوع، جوابر بعد الوقوع، الكفارات والفدى: زواجر قبل الوقوع؛ تزجر المكلف عن أن يقع في الفعل، وجوابر بعد الوقوع؛ فتجبر الخلل الذي وقع، هذا الصحيح من أقوال أهل العلم.

وقوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (كما يكفر المجامع في رمضان): الجمار في رمضان سيئة وكبيرة عظيمة، فإذا جامع الإنسان في نهار رمضان ترتب على ذلك أنه يجب عليه أن يكفر بعقوبة، فإن لم يجد يصوم شهرين متتابعين، فإن لم يجد يطعم ستين مسكيناً، فإذا فعل هذا فإنه يزيل موجب الذنب، ويبقى حق اليوم معلقاً بالقضاء، فالصحيح من أقوال أهل العلم أنه يجب عليه أن يقضي ذلك اليوم مع الكفارة.



شرح الوصية الصغرى

ما أثر الكفارة؟ أثر الكفارة في الزجر قبل الوقوع، فإن العبد إذا عَلِمَ أنه إذا جامع في رمضان، سُرَّتَب عليه هذه الكفارة العظيمة؛ فإنه ينزجر عن الجماع.

وقد قال العلماء قاعدة شريفة نافعة: أنه كلما ضعف الوازع الطَّبْعِيّ، عَظُمَ الوازع الشرعيّ، وكلما قَوِيَ سبب الفعل كلما قَوِيَت الكفارة الزاجرة عنه.

فالمعلوم أن الإنسان إذا صام، ومُنِعَ من الجماع، تقوى عليه الدواعي حتى مع ضعف نفسه؛ ولذلك إذا أردتَ مصداق هذا: فإنك تجد أن الرجل في رمضان تكون عنده امرأته طوال الليل لا يقربها؛ فإذا صام جاءه الشيطان وجاءته الدواعي فيقع، ومن غرائب الأسئلة التي سُئِلَتْها: أن رجلاً في السبعين من عمره سألتني فقال: يا شيخ، والله لي عشرة سنين لا أقرب امرأتي، وفي هذا العام في رمضان وأنا صائم وقعتُ عليها! وذلك أن إبليس حريص على إيقاع الإنسان في هذا الأمر؛ فجاءت هذا الكفارة المغلظة لتزجر الإنسان عن الوقوع في هذا الضعف.

ثم أثرها بعد الوقوع: أنها تزيل أثر الذنب، وأما حقُّ اليوم فلا يزيله إلا قضاء ذلك اليوم.

قوله **رَحِمَهُ اللهُ**: (والمُظَاهِر): فالمُظَاهِر كذلك؛ يعتق رقبة، فإن لم يجد يصوم شهرين متتابعين، فإن لم يجد يطعم ستين مسكيناً.

قوله **رَحِمَهُ اللهُ**: (والمرتكب لبعض محظورات الحج): لماذا قال: (لبعض)؟ ولم يقل: والمرتكب لمحظورات الحج؟ لأن من محظورات الحج ما لا فدية فيه؛ مثل النكاح، النكاح ليس فيه فدية؛ ولذلك قال: (لبعض محظورات الحج)، كفدية الأذى، من حلق رأسه، أو أخذ شعره، فإنه يكون مخيراً بين ذبح شاة، أو إطعام ستة مساكين، أو صيام ثلاثة أيام.

وقوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (أو تارك بعض واجباته): أي: كما يكفّر تارك بعض واجبات الحج؛ لأنّ من ترك الواجب فإنه يجب عليه دم؛ يزيل أثر هذا الترك، ويَتَمُّ به الحج.

وهنا لطيفة فقهية؛ وهي: هل الدم الواجب في ترك بعض واجبات الحج بدل عن الواجب؟ أو أثر لترك الواجب؟ هل هذه المسألة من باب الرفاهية العلمية؟ لا، بل لها أثر عظيم في أحكام الحج.

إذا قلنا: إنّ الدم بدل عن الواجب؛ فإنّا نقول: من عجز عن الواجب يلزمه دم، يعني: مثلاً إنسان دخل المستشفى، ورُبَطَ في السرير ما يستطيع يخرج، عاجز، ذهبوا به إلى عَرَفَةَ بالسيارة، لكن لم يبت في مزدلفة، ولم يبت في منى، الرمي يستطيع أن يوكل فيه لكن المبيت ليس فيه توكيل، فهل يجب عليه دم؟ إذا قلنا: إنّ الدم بدل؛ نقول: نعم، يجب عليه؛ لأنّ من عجز عن الواجب وله بدل انتقل إلى بدله، كالذي يعجز عن الوضوء هل تسقط عنه الطهارة؟ لا؛ بل ينتقل إلى التيمم.

وإذا قلنا إنه أثر؛ فإنه لا يجب عليه دم، العاجز لا يجب عليه دم؛ لأنّ أثر الترك لا يلحقه؛ لأنه يسقط عنه الواجب، فلا واجب مع العجز، فلا يلحقه الأثر.

والذي يظهر لي - والله أعلم - أنه أثر ماح، يحو ما وقع من التقصير وليس بدلاً، وعليه فإنه لا يجب على العاجز، لكن لو أنّ العاجز ذبح احتياطاً؛ خروجاً من الخلاف؛ فهذا شيء طيب.

وقوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (أو قاتل الصيد) قاتل الصيد عليه الكفارة إن كان متعمداً، عليه مثله من النعم.

إذن لو سألنا سائل: ما هي الكفارات المقدّرة؟ نقول: هي الكفارات المعيّنة التي رُبِّت على سبب، فمن وجه: هي محدّدة ليست مطلقة، ومن وجه: هي مرتبة على سبب.



قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (وهي أربعة أجناس: هدي، وعتق، وصدقة، وصيام).
المقصود بالهدي هنا: الذبح، وليس المقصود الهدى إلى الكعبة، بمعنى أن التكفير المقدر قد يكون بالذبح، وقد يكون بالعتق، وقد يكون بالصدقة، وقد يكون بالصيام.
الصدقة من حيث هي تدخل فيها الزكاة؛ لكن هل تدخل الزكاة في الصدقة هنا؟ لا تدخل، لماذا؟ لأننا نتكلم عن الكفارات، والكفارات فيها صدقة غير الزكاة.
وهنا أخطأ بعض شُرَّاح الوصية؛ فذكر أن الصدقة هنا يدخل فيها الزكاة، ويدخل فيها الصدقة النافلة، ونحن نقول: ليس المراد بها هنا الزكاة ولا الصدقة النافلة، وإنما المراد: الصدقة التي أوجبت على من فعل فعلاً معيناً؛ كإطعام ستة مساكين على من حلق شعره.

كذلك الصيام هنا، ليس المقصود به الصيام الواجب الذي هو صيام رمضان، وليس المقصود به التنقل؛ كصيام الاثنين والخميس، وإنما المقصود ما أوجبه الله من صيام على من فعل سبباً معيناً؛ كصيام شهرين متتابعين على من جامع في نهار رمضان.
قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (وإما الكفارات المطلقة، كما قال حذيفة لعمر: «فتنة الرجل في أهله وماله وولده تكفرها الصلاة، والصيام، والصدقة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وإما الكفارات المطلقة) المراد بها هنا: جنس الأعمال الصالحة، فإن الأعمال الصالحة مكفرة للسيئات، وتسمى - كما قلنا - الممحصات.

وقد جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنه في حديث اختصاص الملاء الأعلى، وهو حديث عظيم: «فيم يختصم الملاء الأعلى؟ قال: في الكفارات، والكفارات: المكث في المساجد بعد الصلوات، والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء

في المكاره، ومن فعل ذلك عاش بخير، ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه». رواه الترمذي، وحسنه ابن عبد البر وابن تيمية، وصححه الألباني^(١).

وانظر هنا؛ «فيم يختصم الملاء الأعلى؟ قال: في الكفارات»، والكفارات فُسِّرت في الحديث بأنها: «المكث في المساجد بعد الصلوات» هذا كفارة، «والمشي على الأقدام إلى الجماعات» هذا كفارة، «وإسباغ الوضوء على المكاره» هذا كفارة، «ومن فعل ذلك عاش بخير»، يعني من كان من أهل هذا الخير، وكم فرطنا في الخير؟ مَنْ مَنَّا يحرص على المكث في المساجد؟ سبحانه الله! إذا سلم الإمام كأننا على جمر، الجِدُّ من يبقى حتى يذكر الله، حتى إنه يذكر بعجلة، ويمشي! نعم، قد يعن للإنسان حاجة فيخرج، لكن كثير مَنَّا اليوم أصبحوا لا يجلسون في المساجد إلا قليلاً والمكث في المساجد من علامات الخير، وَمَنْ فعل المكث في المساجد موعود أن يعيش على خير، وهو أيضاً من أسباب حسن الخاتمة؛ لأنَّ النبي ﷺ، قال: «ومات بخير».

وكذلك «المشي على الأقدام إلى الجماعات، وإسباغ الوضوء على المكاره». فدلَّ ذلك على أنَّ الأعمال الصالحة مكفِّرات، سُمِّيت مكفِّرات بنص الحديث.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (كما قال حذيفة لعمر رضي الله عنه: «فتنة الرجل في أهله وماله وولده»)
وفي رواية: «في نفسه وولده وجاره» (تكفرها: الصلاة، والصيام، والصدقة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر)، متفق عليه^(٢).

(١) «الجامع» للترمذي، أبواب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة ﴿ص﴾، رقم: (٣٢٣٤)، وانظر «التمهيد» لابن عبد البر (٤/٣٢٢)، و«بيان تلبيس الجهمية» لابن تيمية (٧/٢٠٥) وصححه الألباني «صحيح الترمذي».

(٢) «صحيح البخاري» كتاب: مواقيت الصلاة، باب: الصلاة كفارة، رقم: (٥٢٥)، و«صحيح مسلم» كتاب: الفتن وأشرط الساعة، بعد حديث رقم: (٢٨٩٢).



قوله: «فتنة الرجل في أهله وماله وولده»: ماهي فتنة الرجل في أهله وماله وولده؟ قال العلماء: ما يعرض للإنسان من الالتواء بهم، أو أن يفعل من أجلهم شيئاً من الحرام دون الكبائر.

يقول العلماء: (الرجل قد يُفتن في ولده، وقد يُفتن بولده، وقد يُفتن من ولده).

قد يفتن بولده فيلهو به؛ فقد يترك شيئاً مما وجب عليه من أجل ولده، أو يفعل شيئاً من الحرام من أجل ولده، كم من شخص لم يصور قط، ولم يتصور هو قط، حتى رُزق بالمولود فأصبح يحمل صورة ولده في جواله! هناك من أهل الخير من عاش منذ أن عرف الحق يأبى أن يُصور هو بنفسه، وليست له صورة إلا الصور التي لا بد منها، لكن لما رُزق بولد صور هو ولده! ففتن بولده.

وقد يُفتن في ولده؛ بأن يكون الولد مثلاً - والعياذ بالله - على سلوك غير طيب أو خلق غير طيب.

وقد يُفتن من ولده؛ بأن يدعو الولد والده إلى سوء، كم من رجل كان على الهدى والسنة والسلفية الطيبة المباركة، التي تحلو بها الحياة، وتتحقق بها الاستقامة، فرُزق بولد لا زال به حتى حَرَفَهُ عنها! .

وأما فتنة الرجل بجاره - كما جاء في الرواية الأخرى - فقالوا: بما يحصل من حسد ومزاحمة على الحقوق، كموقف السيارة مثلاً، أو الظل، هذه فتنة الرجل في جاره، تكفرها الأعمال الصالحة: من صلاة، وصيام، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر.

وقد أجمع العلماء على أن الصغائر تكفر بالأعمال الصالحة، لكن هل الأعمال الصالحة تكفر الكبائر؟

نذكر الصورة حتى تعرف أثر المسألة، الآن المسلم يصلي أو لا يصلي؟ يصلي، وأعظم الأعمال الصالحة بعد التوحيد: الصلاة، فإذا قلنا: إن الأعمال الصالحة تكفر الكبائر هكذا بإطلاق، هل يبقى مسلم عليه ذنب؟ ما يبقى، لأن أقل ما يعمل أن يصلي، ليس معنى أقل بمعنى أدون؛ ولكن هذا الذي لا يتركه المسلم أبداً، فلو قلنا إن الأعمال الصالحة تكفر الكبائر على الإطلاق - لكان كلما صلى كفر ما مضى، وعليه فإنه يوم القيامة لا يدخل مسلم النار؛ لأن ذنوبه قد كُفِّرَتْ، وهذا لا يكون. اختلف العلماء في هذه المسألة؛ هل الكبائر تُكفر بالصالحات أو لا بد فيها من توبة؟

الصحيح الذي تدل عليه الأدلة: أن الكبائر لا بد فيها من توبة، كما جاء في قول النبي ﷺ: «ما اجْتَنِبْتُ الْكَبَائِرَ»^(١)، ولما قدّمناه من الصورة.

لكن الأعمال الصالحة إذا لم تصادف صغائر فإنها تخفف من الكبائر، مثلاً إنسان عليه صغائر فتوضأ فمُحِيتْ، ثم صلى وهو ليس عنده صغيرة، فإنه يرجى له أن يُخَفَّفَ بها من الكبيرة، لا تُزِيل الكبيرة بالكلية، ولكن يرجى أن تُخَفَّفَ الكبيرة بها.

فإن لم تصادف كبيرة؟ فإن التكفير فيها ينقلب إلى ثواب زائد؛ لأن الله حَكَمَ عدل، مثلاً: مسلمان توضأ؛ الأول عليه صغيرة مُحِيتْ بالوضوء، والثاني لم يكن عليه إذ ذاك صغيرة؛ فالله عَجَلٌ، يعامل هذا بأن يُخَفَّفَ عنه من الكبيرة التي عليه، فإن لم يكن عليه كبيرة فإن التكفير ينقلب إلى ثواب زائد على ثواب الوضوء في حق هذا.

ثم إن الأعمال الصالحة قد تقوى فيعظم أثرها، فتزيل الكبيرة، ليس لجنسها ولكن لقوتها، إما لعظم يقين القلب، أو للنفع المتعدي، فتقوى إلى أن تمحى بها الكبيرة، سواء كان ذلك بالموازنة - كما سيأتي - بحيث ترجح الحسنات بالسيئات، أو بالمغفرة.

(١) «صحيح مسلم» كتاب: الطهارة، رقم: (٢٣٣).



شرح الوصية الصغرى

صورة ذلك: صاحب السجلات الذي يأتي يوم القيامة بسجلات قد ملئت ذنوبًا، ويؤتى ببطاقة فيها لا إله إلا الله فتوضع السجلات في كفة، وتوضع البطاقة في كفة؛ فتطيش بهن البطاقة، ترجح البطاقة على السجلات^(١).

هل هذا في حق كل مسلم يقول: (لا إله إلا الله)، هل كل مسلم ترجح كفة حسناته بسيئاته؟ لو كان ذلك كذلك؛ لَمَا دخل مسلم النار، إذن هذا لخصوصية في (لا إله إلا الله) عنده؛ لقوة يقينه مثلاً، وعظيم عمله بحقيقة (لا إله إلا الله)، ولكن هذا قد لا يوجد في مسلم آخر؛ فلا يحصل له الرجحان.

كذلك المرأة البغي من بني إسرائيل التي كانت تمتهن الزنى، لَمَا شربت رأت كلبًا يأكل الثرى من شدة العطش، فرحمته فنزلت فاستقت له فأسقته؛ فغفر الله لها^(٢). هل كل زان إذا سقى كلبًا يغفر له؟ الجواب: لا، وإنما هذه المرأة لَمَا لحقها من رحمة ورقة قلب صالحة؛ غفر لها بهذا العمل.

بعض الناس قد يحج، وتُغفر له جميع ذنوبه، إمَّا بكونه قرن التوبة مع حجه، وإمَّا بكونه حرص على إتمام حجه بإخلاص قلب وصدق نيّة، وبعض الناس قد يعود من الحج وقد خُففت عنه الذنوب، إذا كان دون ما ذكرنا، وكانت عليه كبائر من الذنوب.

إذن نقول: إن الأصل أن الأعمال الصالحة من حيث جنسها، لا تُكفر بها الكبائر، بل لابد من أن تكون معها توبة، لكن الأعمال الصالحة قد تُخفف بها

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» أبواب: الإيمان، باب: ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، رقم: (٢٦٣٩)، وابن ماجه في «السنن» أبواب: الزهد، باب: ما يُرجى من رحمة الله يوم القيامة، رقم: (٤٣٠٠) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (١٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: حديث الأنبياء، باب: حديث الغار، رقم: (٣٤٦٧)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: السلام، رقم: (٢٢٤٥).

الكبائر من وجهه، وقد تقوى لقوة يقين القلب أو عظيم النفع المتعدي، فُتَرَفَع وتُحَى بها الكبيرة.

ومعنى هذا الكلام الذي ذكرته، موجود في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ، وإن لَمْ يَكُن بهذا النص الذي ذكرته.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (وقد دلَّ على ذلك القرآن والأحاديث الصحاح في التكفير بالصلوات الخمس، والجمعة، والصيام، والحج، وسائر الأعمال التي يقال فيها: من قال كذا وعمل كذا غُفِرَ له، أو غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه، وهي كثيرة لمن تلقاها من السنن؛ خصوصاً ما صُنِّفَ في فضائل الأعمال).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وقد دلَّ على ذلك القرآن والأحاديث الصحاح في التكفير بالصلوات الخمس، والجمعة، والصيام، والحج): كقول النبي ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان؛ مكفرات ما بينهما، ما اجْتُنِبَتْ الكبائر»، رواه مسلم^(١).

فهذه الأعمال: منها مُكَفِّرَات يومية؛ الصلوات الخمس، ومُكَفِّرَات، أسبوعية الجمعة إلى الجمعة، ومكفرات سنوية؛ رمضان إلى رمضان، فاستشعر - يا مسلم - عظيم فضل الله عليك؛ فإنَّ الله جعل لك من جنس الأعمال الصالحة مكفراتٍ يومية ومكفرات، أسبوعية، ومكفرات سنوية.

وهناك مكفراتٌ لكل ما مضى؛ كقول النبي ﷺ: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه»^(٢).

(١) «صحيح مسلم» كتاب: الطهارة، رقم: (٢٣٣).

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الإيمان، باب: صوم رمضان احتساباً من الإيمان، رقم: (٣٨)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، رقم: (٧٦٠).



وقول النبي ﷺ: «مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرِثْ وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمٍ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^(١).

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: (وسائر الأعمال التي يقال فيها: مَنْ قَالَ كَذَا): كقول النبي ﷺ: «إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ: آمِينَ، وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: آمِينَ؛ فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الْآخَرَى؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» والحديث في «الصحيحين»^(٢) يعني في الصلاة، إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ: آمِينَ، وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: آمِينَ؛ فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الْآخَرَى؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ.

وكقول النبي ﷺ: «إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: سَمِعَ اللَّهُ لَنْ حَمْدِهِ، فَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ الْمَلَائِكَةِ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». وهذا الحديث في «الصحيحين»^(٣).

فاتنبه يا عبد الله! استشعر هذا وأنت تعمل هذه الأعمال، بعض الناس لا يعطي هذه الأعمال الشريفة حقَّها، عندما يقول الإمام: (ولا الضالِّين) قل: (آمِينَ) وأنت مُسْتَشْعِر هذه الكلمة العظيمة، راجياً فضل الله وأن يجعل قولك موافقاً لقول الملائكة، وإذا قال الإمام: (سمع الله لمن حمده)، فقل: (اللهم ربنا لك الحمد)، وأنت مستشعر ما تقول، راجياً أن يجعل الله قولك موافقاً لقول الملائكة؛ فإنَّ مَنْ وَقَعَ لَهُ ذَلِكَ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ.

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الحج، باب: فضل الحج المبرور، رقم: (١٥٢١)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: الحج، رقم: (١٣٥٠).

(٢) «صحيح البخاري» كتاب: الأذان، باب فضل التأمين رقم: (٧٨١) و«صحيح مسلم»، كتاب: الصلاة، رقم: (٤١٠).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الأذان، باب: فضل اللهم ربنا لك الحمد، رقم (٧٩٦) ومسلم في «الصحيح»، كتاب: الصلاة، رقم: (٤٠٩).

وقوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (وعمل كذا؛ غُفر له ما تقدّم من ذنبه): كقول النبي ﷺ: «من صام رمضان، إيماناً واحتساباً، غُفر له ما تقدّم من ذنبه» متفق عليه^(١).
وكقوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: «من قام ليلة القدر؛ إيماناً واحتساباً، غُفر له ما تقدم من ذنبه». والحديث في «الصحيحين»^(٢).

وكقول النبي ﷺ: «من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، غُفر له ما تقدّم من ذنبه». الحديث في البخاري ومسلم^(٣).
من حاول هذا؟ من حاول ممّا أن يُسبغ الوضوء، ويقوم يصلي ركعتين لا يحدث فيهما نفسه؟ والتحقيق أنّ المقصود: ألا يحدث نفسه بأمور الدنيا، بل يُقبل على صلاته من أولها إلى آخرها، هذه العبادة الشريفة، من حاول ممّا أن يفعلها؟ قلّ من يفعل.

نحن - والله المستعان - حتى في الفريضة اليوم، أصبح الواحد ممّا لا يحاول أن يستحضر نفسه في الصلاة، لا تحلو له الدنيا إلا في الصلاة، ربما لا يفكر في شيء حتى يقول الإمام: (الله أكبر)، فإذا قال الإمام: (الله أكبر)، انفتحت عليه الدنيا! وهذا تقصير وتفريط، ينبغي أن نحصر على الإقبال على الصلاة بروحها.

فحريٌّ بك يا من أثقلت الذنوب - وكلّنا كذلك - أن تجتهد في أن تتوضأ وضوءاً مسبغاً، ثم تقوم تصلي ركعتين، تُقبل على الله، لا تحدث فيهما نفسك؛ لتنال هذا الموعود الذي أخبر به الصادق المصدوق **رَحِمَهُ اللَّهُ** «غُفر له ما تقدّم من ذنبه».

(١) تقدم في الصفحة السابقة.

(٢) «صحيح البخاري» كتاب: الصوم، باب: من صام رمضان إيماناً واحتساباً، رقم: (١٩٠١)، و«صحيح مسلم»، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، رقم: (٧٦٠).

(٣) «صحيح البخاري» كتاب: الوضوء، باب: الوضوء ثلاثاً ثلاثاً، رقم: (١٥٩)، و«صحيح مسلم» كتاب: الطهارة، رقم: (٢٢٦).



قال **رَحِمَهُ اللهُ**: (وهي كثيرة لمن تلقاها من السنن؛ خصوصاً ما صُنِّفَ في فضائل الأعمال): أهل الحديث صَنَّفُوا كُتُبًا في فضائل الأعمال، بعضها مفردة، وبعضها في ضمن كتبهم في السنن، وهناك أحاديث كثيرة جداً في هذا الباب، وهذا الباب بابٌ عظيم نافع للمؤمن، فإنَّ الأعمال الصالحة تزيد الحسنات، وتُحَيِّ بها الذنوب، وتقدِّم معنا أنَّ كل بني آدم خطاء، فما أحوَجنا إلى هذا الباب العظيم، فينبغي على المؤمن أن يحرص على معرفة الأعمال، التي نُصِّ فيها على تكفير الذنوب.

وهناك أعمال يسيرة كثيرة، رُتِّبَتْ فيها المغفرة على قول أو فعل، منها قول النبي **ﷺ**: «من أكل طعاماً ثم قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام ورزقنيه من غير حولٍ مني ولا قوة، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه، ومن لبس ثوباً - أي جديداً - فقال: الحمد لله الذي كساني هذا، ورزقنيه بغير حولٍ مني ولا قوة، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه»^(١).

ومنها: إحسان الاستغفار في آخر الصلاة، فقد ورد أنَّ النبي **ﷺ** دخل المسجد، فإذا هو برجل قد قضى صلاته - أي: أنه في آخر صلاته - وهو يتشهد وهو يقول؛ أي: بعد أن فرغ من تشهده شرع في الدعاء - اللهم إني أسألك يا الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد أن تغفر لي ذنبي؛ إنك أنت الغفور الرحيم، فقال النبي **ﷺ**: «قد غُفِرَ له، قد غُفِرَ له، قد غُفِرَ له»^(٢)، قالها **ﷺ** ثلاثاً.

(١) أخرجه أبو داود في «السنن» كتاب: اللباس، رقم: (٤٠٢٣)، والترمذي في «الجامع» أبواب: الدعوات، باب: ما يقول إذا فرغ من الطعام، رقم: (٣٤٥٨)، وابن ماجه في «السنن» كتاب: الأطعمة، باب: ما يقال إذا فرغ من الطعام، رقم: (٣٢٨٥)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» رقم: (١٩٨٩).

(٢) أخرجه أبو داود في «السنن» كتاب: الصلاة، باب: ما يقول بعد التشهد، رقم: (٩٨٥)، والنسائي في «السنن»، كتاب: السهو، باب: الدعاء بعد الذكر، رقم: (١٣٠١)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود الأم».

ومنها: قول النبي ﷺ: «من قال حين يسمع المؤذن: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، رضيتم بالله رباً، وبمحمدٍ رسولاً، وبالإسلام ديناً غفر له»^(١).

ومنها: قول النبي ﷺ: «من غَسَلَ مسلماً فكتم عليه، غفر الله له أربعين مرة»، «فكتم عليه»: يعني: لم ينشر عيبه إن اطلع على عيب فيه، «غفر الله له أربعين مرة»^(٢).

ومنها: قول النبي ﷺ: «ما من عبد يُذنب ذنباً فيتوضأ، فيُحسِن الطهور، ثم يقوم فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله بذلك الذنب إلا غفر الله له»^(٣).

ومنها: قول النبي ﷺ: «من توضأ هكذا»، أي: توضأ وضوءاً مُسْبِغاً، «ثم خرج إلى المسجد، لا يُنْهَزه إلا الصلاة - أي: لا يخرجُه إلا الصلاة - ؛ غُفِرَ له ما خلا من ذنبه»^(٤).

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» كتاب: الصلاة، رقم: (٣٨٦).

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» كتاب: الجنائز، باب: من رأى شيئاً من الميت، (٣/٣٩٦)، والحاكم في «المستدرک» كتاب: الجنائز (١/٣٥٤)، وصححه الألباني في «أحكام الجنائز» رقم: (ص: ٥١).

(٣) أخرجه أبو داود في «السنن» كتاب: الصلاة، باب: في الاستغفار، رقم: (١٥٢١)، والترمذي في «الجامع» أبواب: الصلاة، باب: ما جاء في الصلاة عند التوبة، رقم: (٤٠٦)، والنسائي في «السنن الكبرى» كتاب: الصلاة، باب: ما يفعل من بُلي بذنوب وما يقول، رقم: (١٠١٧٥)، وابن ماجه في «السنن» أبواب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في أن الصلاة كفارة، رقم: (١٣٩٥)، وصححه الألباني فيها.

(٤) أخرجه مسلم في «الصحيح» كتاب: الصلاة، رقم: (٢٣٢).



شَرْحُ الْوَصِيَّةِ الصُّغْرَى

وانظر كيف أنّ بعض الناس اليوم يهوّون من صلاة الجماعة، إما بذكر أنها مسألة خلافية، وإمّا بأنه لا حاجة إليها، ويغفلون عن الفضائل العظيمة المرتبة على صلاة الجماعة.

ومنها: قول النبي ﷺ: «من تعارّ من الليل، فقال حين يستيقظ: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، ثم دعا ربه: ربّ اغفر لي غُفر له»^(١).

والشاهد من إيراد هذا أن نعلم أنّ الأعمال الصالحة إذا أداها الإنسان، فإنها تكون سبباً في مغفرة الذنوب، وهذا النوع الأول منها؛ وهو ما نصّ عليه.

ثم يأتي النوع الثاني: وهو كل الأعمال الصالحة، ولو لم يُعلّق عليها مغفرة الذنب بخصوصها، فإنّ محو السيئات بالصالحات ليس خاصّاً بما ورد أنّ من فعله و قاله يُغفر له؛ بل هذا عام؛ لقول النبي ﷺ: «وأَتبع السيئة الحسنة تمحها»، فإذا أتبع الإنسان السيئة الحسنة فإنها تمحو الذنب.

فإن قال قائل: إن كان الأمر كما تقولون؛ فما فائدة التنصيص في هذه الأعمال على أنه يُغفر له، ما دام أنها تشترك مع غيرها في المغفرة؟

قلنا: للتنويه بشرفها، وبيان أنّ المغفرة بها أعظم من المغفرة ببقية الصالحات.

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: التهجد، باب: فضل من تعار من الليل فصل، رقم: (١١٥٤).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ : (واعلم أنّ العناية بهذا من أشد ما بالإنسان الحاجة إليه؛ فإنّ الإنسان من حين يبلغ خصوصاً في هذه الأزمنة ونحوها من أزمنة الفترات، التي تُشبه الجاهلية من بعض الوجوه، فإنّ الإنسان الذي ينشأ بين أهل علم ودين، قد يتلَطَّخ من أمور الجاهلية بعدّة أشياء، فكيف بغير هذا؟!).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (واعلم): عادة العلماء أنهم إذا قدّموا جملة (واعلم)؛ فإنّ هذا يدلّ على عظيم ما سيذكرونه بعدها، فهذا تنبيه على علوّ شأن ما سيذكر بعد.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (واعلم أنّ العناية بهذا): (بهذا): يعود إلى الأمور الثلاثة التي تقدّمت: التوبة، والاستغفار من غير توبة، والأعمال الصالحة، فعناية المؤمن بالاجتهاد في الحسنات الماحيات، والتوبة والاستغفار من أشدّ ما يحتاجه العبد، فإنّ الإنسان من حين يبلغ، لماذا قال: (من حين يبلغ)؟ لأنه قبل البلوغ لا يُكْتَب عليه شيء، «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ»، ومنهم: «الصبي حتى يبلغ»^(١)، ولكنه من البلوغ يُكْتَب عليه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فإنّ الإنسان من حين يبلغ؛ خصوصاً في هذه الأزمنة): يعني الإنسان عموماً؛ وخصوصاً في هذه الأزمنة، يعني في زمانه.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ونحوها من أزمنة الفترات) والمقصود بالفترة هنا: الفتور، أي: من أزمنة الفتور التي تصيب الناس؛ لأنّ الناس قد تمرّ بهم فترات فتور؛ يضعف الدين فيها، وهذا تجده في بعض البلدان، فتجد أنه في زمن من الأزمنة يفتّر أهل البلد ويضعف الدين عندهم ضعفاً شديداً، ثم في فترة ينشط، وسبب هذا هو العلم والجهل، فإذا نشط أهل العلم ونشروا العلم بالكتاب والسنة؛ نشط الناس

(١) أخرجه أبو داود في «السنن» كتاب: الحدود، باب: في المجنون يسرق أو يصيب حداً، رقم: (٤٣٩٨)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» رقم: (٢٩٧).

في الخير، وإذا فتر أهل العلم في نشر العلم بالكتاب والسنة، وتركوا الأمر لغيرهم لنشر ما هو في حقيقته جهل وإن ظنَّ علماً - كما سيأتينا إن شاء الله في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية - مثلاً نشر الصوفية والدروشة والأذكار التي لم يرد بها نص من الكتاب والسنة على وجه الإلتزام؛ فإنه يضعف الدين في نفوس الناس.

لأن القاعدة: أن البدعة تطفئ السنة في قلوب الناس، وما تعلق أحدٌ ببدعة إلا مات في قلبه مقدارها من حب السنة، فيفتر الناس في دينهم لأنهم يفعلون ما يظنونونه ديناً وليس بدين، ويتركون ما هو دين صحيح، بل يُنكرونها! فإذا جاءهم إنسان بـ(قال الله ﷻ)، قال رسوله ﷺ على خلاف ما يفعلونه من البدع، أنكروا هذا، ولربما قالوا له: أنت وهابي، بل ربما جرؤ بعض الناس فقال: هذه آيات الوهابية! حتى القرآن لمّا دلّ على خلاف ما اعتادوه، وصفوه بأنه قرآن الوهابية، مع أنه القرآن الذي يتلونه والآيات التي يتلونها.

وهذا ينبغي أن يُنبهنا على شيء: وهو أنه ينبغي علينا أن نعتني بنشر العلم، بكتاب الله وسنة النبي ﷺ في بلداننا، أما طلاب العلم فيجتهدون في هذا، وأما عامة الناس فيجتهدون في اقتناء أشرطة العلم للمشايخ الربانيين، الذين عُرفوا بالتوحيد والسنة، وتُسمع هذه الأشرطة في البيوت، فيُصبح في البيوت طنين بذكر الله ﷻ بدلاً من رنين الموسيقى وما يجلب الشياطين إلى البيوت، إن أردنا لمجتمعنا عزّة ورفعة وكرامة في الدنيا، وسعادة واطمئناً للقلوب ورفعة في الآخرة علينا بهذا.

تأسف - أيها المؤمن المبارك - عندما تجد بعض المسلمين يتباكى على حال المسلمين من الضعف والمهانة ويذهب إلى السياسة، ويدع ما ينبغي أن يكون وهو الاهتمام بالسبب الحقيقي لهذا الضعف؛ وهو البعد عن نشر العلم الحقيقي المبني

على كتاب الله، وعلى سنة النبي ﷺ، فهذا الأمر ينبغي التنبُّه إليه، ولذلك قال **رَحْمَةُ اللَّهِ**: (من أزمانه الفترات) يعني الفُتُور والضعف في الديانة.

قوله **رَحْمَةُ اللَّهِ**: (التي تشبه الجاهلية من بعض الوجوه) لاحظ لم يقل **رَحْمَةُ اللَّهِ**: المجتمعات الجاهلية أو مجتمعنا جاهلي ولكن قال: (التي تشبه الجاهلية من بعض الوجوه): والمقصود: من كثرة الانفتاح على الدنيا، وكثرة الفتن؛ فإنها تشبه الجاهلية في هذا الباب، وكذلك من جهة كثرة المعاصي، والوقوع في السيئات، فإن هذا قد كثر في الجاهلية، وكثر في اليهود والنصارى.

قوله **رَحْمَةُ اللَّهِ**: (فإنَّ الإنسان الذي ينشأ بين أهل علم ودين): في هذه البيئة التي تضعف فيها الديانة (قد يتلَطَّخ من أمور الجاهلية بعدة أشياء)، فكيف بِمَن ينشأ بعيداً عن العلم! فإنه أحرى أن يتلَطَّخ بشيء من أمور الجاهلية، وهذا يأتي بيانه في كلام شيخ الإسلام **رَحْمَةُ اللَّهِ**.

قال شيخ الإسلام **رَحْمَةُ اللَّهِ**: (وفي «الصحيحين» عن النبي ﷺ من حديث أبي سعيد **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «لَتَتَّبَعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذُو الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جَحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ» قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فَمَنْ»؟^(١)).

قوله **رَحْمَةُ اللَّهِ**: «لَتَتَّبَعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»: أي: طُرُق مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ «حَذُو الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ» كالرمح يتلو الرمح، «حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جَحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»، وجحر الضب يكون ضيقاً صعب المسالك، ومع ذلك لو دخلوا هذا الجحر الضيق صعب المسالك لدخلتم وراءهم! قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ أي: مَنْ كَانَ قَبْلَنَا؟ قال: «فَمَنْ»؟ أي: أنهم اليهود والنصارى.

(١) «صحيح البخاري» كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم: (٣٤٥٦)، و«صحيح مسلم» كتاب: العلم، رقم: (٢٦٦٩).



شَرْحُ الْوَصِيَّةِ الصُّغْرَى

وليس المقصود بهذا الحديث أنَّ الأُمَّة كلها تشبّه باليهود والنصارى في أمورهم كلّها، وإنما المقصود: أنَّ التشبّه يقع من أفراد الأُمَّة، فهذا يشبّه بكذا، وهذا يشبّه بكذا، وهذا يشبّه بكذا.

أمّا أن تشبّه كل الأُمَّة بكل حال اليهود والنصارى فهذا متنفٍّ؛ لقول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم، حتى يأتي أمر الله»^(١).

والتشبّه باليهود والنصارى له وجوه سننّه عليها.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (هذا خبر تصديقه في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩]، ولهذا شواهد في الصّحاح والحسان).

هذه الآية وردت في المنافقين، الذين سَخِرُوا بالنبي ﷺ وأصحابه، وقالوا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، وذمّوهم، فجاءت هذه الآية فيهم، ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ﴾، والخلاق: هو النصيب من الدّين والدنيا، فرضيتم بالدنيا من نصيبكم في دنياكم ودينكم، ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ﴾ أي بنصيبهم، ﴿وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ في الباطل وسبّ الأنبياء والصالحين.

وهذه الآية وإن كانت في المنافقين، إلا أنَّ العبرة بعمومها؛ وهو أنَّ من هذه الأُمَّة من يشبّه بالأُمم السابقة.

فإمّا أن يُشبّه بهم في ترك العلم، وهذا تشبّه بالنصارى الذين تركوا العلم؛ فكانوا ضالين.

وإمّا تشبّه بهم في ترك العبادة مع العلم، وهذا تشبّه باليهود؛ فكانوا مغضوباً عليهم.

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: قول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق»، رقم: (٧٣١١)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: الإيمان رقم: (١٥٦).

وقد ذكر بعض أهل العلم أنّ قول الله **وَعَجَلٌ**: ﴿فَأَسْتَمْتَعُمْ بِخُلُقِكُمْ﴾ هذا باب الشهوات، أي تشبّهتهم بهم في باب الشهوات؛ باب المعاصي، هذا فعل العصاة، ﴿وَحُضَّتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ هذا في باب الديانة؛ وهذا فعل المبتدعة.

فالعصاة من أمة محمد **ﷺ** يتشبهون بأهل الجاهلية في فعل المعصية في باب الشهوة، والمبتدعة من أمة محمد **ﷺ** يتشبهون بالأمم السابقة في التعبد بلا علم. والتشبه بالكفار في دينهم حرام، والتشبه بالكفار في دنياهم فيما هو من خصائصهم حرام.

أمّا فعل ما يفعله الكفار لحاجة الناس، فهذا ليس من باب التشبه في شيء، كوننا مثلاً نقود السيارة، والسيارة قد اخترعها الكفار؛ فهذا ليس من باب التشبه، لأنّ ركوب السيارة إنما هو حاجة إنسانية لا يختصّ بها الكفار، فليس مطلوباً منّا - كما فهم بعض متنطّعة هذا العصر - أن نركب الجمال، وأن نترك ركوب السيارات، لأنّ هذا من باب التشبه؛ زعموا.

أو كذلك مثلاً الآلات الميسّرة مثل النظارات على الهيئة الموجودة الآن، كآلة الحاسب الآلي وغير ذلك؛ هذا يُفعل للحاجة الإنسانية، وما يُفعل للحاجة الإنسانية لا تشبّه فيه.

رأيتُ بعض الشباب يتعمّدون قطع إشارة المرور الحمراء يتعمّدون قطعها ويتعبّدون بقطعها، لماذا؟ قالوا: مخالفة لليهود والنصارى؛ لأنّ هذا الإشارات مأخوذة من اليهود والنصارى! وهذا جهل فاضح، فإنّ هذا قد اتفق أهل العلم فيه على أنه لا يدخل باب في التشبه؛ لأنه مما يُفعل للحاجة الإنسانية، لا يختصّ به كافر ولا مسلم.



شَرْحُ الْوَصِيَّةِ الصُّغْرَى

وكذلك اللباس الذي يشترك فيه العموم، فإنه لا يكون من باب التشبّه، أمّا إذا كان اللباس خاصّاً بالكفار، بحيث من رأى لابسَه يقول: إنه يلبس لبسة الكفار؛ كطاقية اليهود المعروفة وزُنَّار النصارى، ونحو ذلك فهذا يحرم التشبّه بهم فيه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (وهذا أمرٌ قد يسري في المنتسبين إلى الدين من الخاصة، كما قال غير واحد من السلف؛ منهم ابن عيينة).

يعني هذا يقع حتى لمن ينتسبون إلى العلم، فإنّ بعض من ينتسبون إلى العلم يتشبهون باليهود أو النصارى، فإن قصّروا في العلم تشبّهوا بالنصارى، وإن لم يعملوا بعلمهم تشبّهوا باليهود، كما قال سفيان بن عيينة: (من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبّادنا ففيه شبه من النصارى)، لأنّ فساد النصارى في باب العبادة، وفساد اليهود في باب العلم؛ علموا فلم يعملوا، والنصارى عبدوا بدون علم، وقد يقع في العلماء الشبّه بهذا وهذا، ويقع في العبّاد الشبّه بهذا وهذا، وهذا واقع معاين.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (فإن كثيراً من أحوال اليهود قد ابتلي بها بعض المنتسبين إلى العلم، وكثيراً من أحوال النصارى قد ابتلي بها بعض المنتسبين إلى الدين كما يُبصر ذلك من فهم دين الإسلام، الذي بعث الله به محمداً ﷺ، ثم نزلّه على أحوال الناس).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (كما يُبصر ذلك من فهم دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ ثم نزلّه على أحوال الناس)، الله أكبر! هذه القضية قضية مهمة جداً، وهي أنّ الحكم على الناس وتنزيل الأحكام عليهم تعييناً ليس لكل أحد، ولا يُطلق فيه الأمر لكل واحدٍ من الناس، ولا يكون على عواهنه، بل لا بد أن يكون على بصيرة، وعلى الأصول الشرعية التي جاءت في كتاب الله، وفي سُنَّة النبي ﷺ، وأن يكون من أهل البصيرة.

وهذا باب تساهل فيه الناس كثيرًا اليوم، فتجد أنّ الواحد من أسهل ما يكون على لسانه أن يقول: فلان كافر! أو هذا كافر! ويُنزّل الحكم المطلق على المعين.

والناس في هذا الباب طرفان ووسط:

طرفٌ يُسارع إلى تنزيل الأحكام المطلقة على المعينين، ولو لم يكن على بصيرة من الدين، ولو لم يكن من أهل الشأن.

وطرفٌ يغلو في الفصل بين الأحكام المطلقة وأحكام المعينين، حتى يكاد لا يُنزّل حكم على معين، وهذا خطأ، وذاك خطأ.

والصواب ما عليه أهل السنة من التفريق بين الحكم المطلق والحكم على المعينين، فإنّ الشيء قد يُحكم عليه بإطلاق؛ لأنّ الدليل دلّ عليه، مثلاً: نجد أنّ أكثر السلف صحّ عنهم أنهم يقولون: (من قال بخلق القرآن فهو كافر)، وهنا ليس المقصود وصف المعين بأنه كافر، وإنما هذا وصف مطلق.

لكن إذا جاؤوا إلى معينٍ يقول بخلق القرآن فإنهم لا يسارعون إلى تكفيره؛ بل يُنظر ببصيرة، فإذا اجتمعت الشروط وانتفت الموانع؛ حكم أهل البصيرة بهذا الحكم، ولا يحكم به كل أحد.

ولمّا أغفل أقوامٌ هذا؛ انتشرت فتنة التكفير بين الشباب، وأصبح الشباب يسارعون إلى تكفير المسلمين؛ بل إلى تكفير العلماء الربانيين الذين قضوا أعمارهم في العلم والتوحيد والسنة!

رأينا شباباً في السادسة عشر من أعمارهم، والثامنة عشر من أعمارهم، والعشرين من أعمارهم يكفّرون عموم الأمة، حتى أنّ أحدهم قال لي: رأيت هؤلاء الحجاج بالملايين؟ قلتُ: نعم، قال: ما عرف واحد منهم الإسلام، كلهم كفار!



ولمَّا أُورِدَ على أحد هؤلاء الشباب أنَّ الشيخ ابن باز رحمته الله يقول كذا، وأنَّ الشيخ ابن العثيمين رحمته الله يقول كذا؛ قال: ما أكفر من هذا إلا هذا! وهم صغار السن لا يحمل أحدهم شهادة الثانوية، لكن ربَّاهم أقوام على إطلاق الأحكام، وعلى الجرأة في هذا الباب، فلمَّا كسروا الحاجز بينهم وبينه؛ لم يقفوا عند حدٍّ، وهكذا من يدخل في باب التكفير، وهو من غير أهله، وبغير ضوابطه، لا ينتهي عند حدٍّ، لا يزال يُضَيِّق الدين حتى يبدأ يُشكِّك في نفسه.

أحدهم قال لي: أنا أغتسل الفجر وأُسلم، وأغتسل المغرب وأُسلم!! وكما هي القصة المشهورة أنَّ رجلاً يقول: أنا لا أعرف مسلماً اليوم على وجه الأرض إلا أنا وزوجتي ورجلٌ في الهند!

هذا التهور في هذا الباب أنشأ هذه القضية الخطيرة، ولذا ينبغي على المعلمين وعلى طلاب العلم أن يربّوا الطلاب على الطريقة الشرعية في هذا الباب، وألا يُطلق الكلام على عواهنه، وأن يُعلِّم أنَّ الحكم على المعيّنين إنما يكون بفهم الدين، ثم بفهم توفر الشروط وانتفاء الموانع، ثم بكون الإنسان من أهل هذا الشأن؛ حتى لا يكون الأمر فوضى في هذا الباب.

ولذلك قال شيخ الإسلام هذه الجملة العظيمة النافعة؛ قال: (كما يُبصر ذلك) لم يقل كل أحد وإنما قال: (كما يُبصر ذلك من فهم دين الإسلام الذي بعث الله به محمداً صلوات الله عليه)، ففهمه على الحقيقة وليس دعوى، (ثم نزل على أحوال الناس)، وهذا أمر ينبغي أن يُتنبَّه له.

وإنه مما ينبغي أن نربي عليه أنفسنا وإخواننا ومن حولنا من الناس أربعة أمور
 فيها خير عظيم:

١. العاطفة

٢. والعقل

٣. والعلم

٤. والعدل

فالعاطفة الرشيدة مطلوبة، واليوس في العاطفة لا يأتي بخير، ولا ينبغي على
 المربي سواء كان أباً أو معلماً أن يجفّف العاطفة في قلب من يريه؛ بل ينبغي أن
 يُنمّيها مرشّدة.

والعقل كرم به الإنسان، فتنمية العقل والحرص على المحافظة عليه أمر
 مطلوب.

والعاطفة - كما يقول العلماء - فيها إدراك الحال الموجود؛ استجابة للحال الآن،
 والعقل فيه إدراك المآل، فمن جمع بين العاطفة والعقل يحصل له رُشدٌ في أمره.

مثلاً لو أنّ رجلاً دخل فإذا بامرأته تسبّ أمّه! يا له من أمر عظيم؛ زوجته تسب
 أمّه عاطفته لأمّه تدعوه لأن يطلقها؛ انتصاراً لأمّه، لكن إذا فكّر بعقله مع عاطفته،
 قال: أدّبها ولا تكسرّها؛ لأنك لو طلقته يترتب على هذا كذا وكذا.

ولذلك لمّا تعطلّ هذا الأمر، كثر الطلاق بين الناس؛ لأن أكثر الأزواج اليوم
 يتصرّفون بالعاطفة فيستجيون للحال، ويُعطّلون العقل، الآن أصبح الرجل يطلق
 على ثوبه إذا لم يُغسل! وعلى الشاي إذا لم يُعدّ! لأنّ الناس عطّلت العقل مع
 العاطفة في أكثر الأحوال.



شرح الوصية الصغرى

والأمر الثالث: العلم، فإنَّ العلمَ سراجٌ يضيء للعقل وللعاطفة الظلمات. فإذا جمع العبد بين عاطفة رشيدة وعقل وعلم؛ فإنه يعيش في نور الحق والخير. ثم لا بد مع هذا من العدل، فيأخذ نفسه بالعدل؛ مع القريب والبعيد، والمحِبِّ والمبغِض، فيعيش بخير، ويعلم الناس الخير، ملتزمًا السنة، من غير إفراط ولا تفريط، وهذا أمرٌ حريٌّ بنا أن نفهمه وأن نحرص عليه.

قال شيخ الإسلام **رحمته الله**: (وإذا كان الأمر كذلك، فمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، وكان ميتًا فأحياه الله، وجعل له نورًا يمشي به في الناس، لا بد أن يلاحظ أحوال الجاهلية، وطريق الأمتين المغضوب عليهم والضالين من اليهود والنصارى، فيرى أن قد ابتلي ببعض ذلك).

وليس المقصود بهذه الصفات العظيمة أن يرى أنه قد ابتلي ببعض ذلك فقط، وإنما المقصود: أن الإنسان في حال الفتن يتفقّد نفسه؛ حتى يُخلّصها من أثر الفتن، فإذا انتشر أمرٌ بين الناس يتعلّق بالتشبه باليهود أو النصارى، أو بأهل الجاهلية، فإنَّ الإنسان يتفقّد نفسه ببصيرة، فإذا وجد أنه قد أُصيب بغبار هذا الأمر فإنه يُنظّف نفسه منه، ويدع هذا الأمر، ويتخلّص منه، فقول شيخ الإسلام: (فيرى أن قد ابتلي ببعض ذلك) أي: أنه ينبغي عليه مع هذا أن يسعى في الخلاص من هذا الأمر.

قال شيخ الإسلام **رحمته الله**: (فأنفع ما للخاصة والعامة: العلم بما يُخلص النفوس من هذا الورطات؛ وهو إتباع السيئات الحسنات).

إذا ثبتَ لديك - يا عبد الله - أنه لا بد لك من الخطأ، وأنّ الذنب كالحتم اللازم لك، وأنّ طرق الوقوع في السيئات كثيرة؛ كالتشبه باليهود والنصارى ونحو ذلك؛ فينبغي أن تعلم أنّ أنفع ما يكون لك أن تعرف ما يُخلص نفسك من أثر السيئة،

وأن تتعلّم ما يُخلص مجتمَعك من أثر السيئة، وهذا يحتاجه الخاصة؛ أي: العلماء وطلاب العلم، والعامة - أي عموم الناس -، فإنّ الإنسان لا بد أن يقع في شيء من هذه الورطات، فإذا تعلّم ما يزيل أثرها، فإنه يُتبعها بما يزيل أثرها؛ فتزول بإذن الله **وَعَجَّلْ**.

قال شيخ الإسلام **رَحِمَهُ اللهُ**: (والحسنات: ما ندب الله إليه على لسان خاتم النبيين من الأعمال والأخلاق والصفات).

لَمَّا ذكر شيخ الإسلام أنّ الحسنات ممحصات؛ تزيل أثر السيئات أخذًا من الأدلة، عاد فينّ ما هي الحسنات، فقال **رَحِمَهُ اللهُ**: (الحسنات: ما ندب الله إليه على لسان خاتم النبيين) - عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم -؛ (من الأعمال والأخلاق والصفات)، والمقصود بالندب هنا: الحث، وليس المقصود أنّ الحسنات هي المندوبات فقط المستحبات، بل المقصود: ما حثّ الله على فعله إلزامًا أو استحبابًا.

فالحسنات لا تُعرّف بالهوى والابتداع، وإنما تُعرّف بالتّباع؛ بمعرفة ما في الكتاب والسنة، فالحسنة: كل أمرٍ طُلِبَ فعله في كتاب الله أو في سنة رسول الله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

أمّا ما يُفَعَّل من التّعبدات مما ليس في الكتاب والسنة فليس بحسنة، بل بدعة، ولا يزيل أثر السيئة، بل هو سيئة عظيمة.

لأنّ المعلوم أنّ أعظم السيئات: الشرك الأكبر، ثم الشرك الأصغر، ثم البدع، ثم ما دون ذلك من الذنوب، وهذا ترتيب الذنوب، فإذا كان الإنسان يفعل عبادة لم ترد في الكتاب ولا في السنة، فإنه لم يفعل حسنة، وإنما يكون قد فعل سيئة تحتاج إلى ما يمحو أثرها.



شَرْحُ الْوَصِيَّةِ الصُّغْرَى

والبدعة أحبّ إلى إبليس من المعصية؛ لأنّ المعصية يفعلها الإنسان على غير سبيل التقرب، يفعلها الإنسان وهو يرى أنها خطأ لكن تغلبه الشهوة، فيكون قريباً من التوبة، أما البدعة فيفعلها الإنسان ديناً؛ فيكون بعيداً عن التوبة، كيف يتوب من الدين؟! ولذلك النبي ﷺ يقول: «إنّ الله قد حجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدعها»^(١).

إذن الحسنة التي تزيل السيئة: هي ما طلبه الله في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، سواء كان ذلك متعلّقاً بالأقوال كالأذكار، أو الأعمال كالصلاة، أو الأخلاق - كما سيأتي إن شاء الله في بيان حسن الخلق - أو الصفات؛ والمقصود بالصفات: ما يتحلّى به، وهو نوعٌ من الأخلاق؛ مثل: الأناة، والحلم، ونحو ذلك؛ فهي من الحسنات.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (وما يزيل موجب الذنوب: المصائب المكفرة؛ وهي كل ما يؤلم من همٍّ، أو حزنٍ، أو أذى في مالٍ أو عرض أو جسد، أو غير ذلك، لكن ليس هذا من فعل العبد).

هذا الأمر الرابع مما يزيل آثار الذنوب، وشيخ الإسلام ذكر أربعة: التوبة، والاستغفار من غير توبة، والأعمال الصالحة، وهذا الرابع: ما يصيب العبد المؤمن من البلاء.

فإن قال قائل: لماذا فصله شيخ الإسلام عن الثلاثة المتقدّمة؟

قلنا: لأنّ الثلاثة المتقدّمة من عمل الإنسان، ويُطلب منه أن يفعلها، فيُطلب منه أن يتوب، ويُطلب منه أن يستغفر، ويُطلب منه أن يُكثر من الأعمال الصالحة، أمّا

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٨١/٤) رقم: (٤٢٠٢)، والضياء في «المختارة» (٧٢/٦) رقم: (٢٠٥٤-٢٠٥٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (١٦٢٠).

هذا السبب الرابع فليس من فعل الإنسان؛ أن تصاب بالحمى ليس من فعلك، ولا يُشَرع للإنسان أن يطلبه، لا يُشَرع للإنسان أن يطلب البلاء؛ ولو برجاء تكفير الذنوب، لا يُشَرع للمؤمن مثلاً أن يقول: (اللهم أسألك البلاء بالحمى)؛ لأنه عِلْمُ أَنَّ الحمى تُحْتُ الذنوب^(١)، ولا يُشَرع للمسلم أن يقول مثلاً: (اللهم إني أسألك البلاء بالعمى)؛ لأنه عِلْمُ أَنَّ الله إذا ابتلى المؤمن بفقد إحدى حبيبتيه -أي: عينيه- فَصَبَرَ فإنه يكون له الجنة^(٢)، ولا يُشَرع للمؤمن مثلاً أن يقول: (اللهم إني أسألك أن تُمَيِّتَ أولادي)؛ لأنه عِلْمُ أَنَّ الولد إذا مات قبل البلوغ يَشْفَعُ لوالديه، وأنه إذا مات الولد فحمد العبد واسترجع يُبْنَى لأبيه بيتٌ في الجنة^(٣) - وإن كان الحديث فيه ضعف -، هذا لا يجوز ولا يُشَرع؛ لكن إذا وقع فإنَّ المسلم يصبر على البلاء.

والعلماء يقولون: إنَّ العبد إذا نزل به البلاء ينبغي عليه أن يصبر، كما قال النبي ﷺ: «عَجَبًا لأمر المؤمن! إنَّ أمره كله له خير، إن أصابته سَرَاءُ شكر؛ فكان ذلك خيرًا له، وإن أصابته ضَرَاءُ صبر؛ فكان ذلك خيرًا له»^(٤).

ومما يُعين العبد على الصبر أن يَسْتَحْضِرَ أمورًا:

الأمر الأول: أن يستحضر أنَّ الذي ابتلاه هو ربُّه، وأنه عبدٌ، فالمبتلى هو الله، والمبتلى هو عبد الله، والعبد تحت أمر مولاه ﷻ.

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» كتاب: البر والصلة والآداب، رقم (٢٥٧٥)، ولفظه: «لا تسي الحمى فإنها تُذهب خطايا بني آدم، كما يذهب الكير خبث الحديد».

(٢) أخرجه الترمذي في «الجامع» أبواب: الزهد، باب: ما جاء في ذهاب البصر، رقم: (٢٤٠١)، وصححه الألباني فيه.

(٣) أخرجه الترمذي في «الجامع»، أبواب: الجنائز، باب فضل المصيبة إذا احتسب، رقم: (١٠٢١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»، رقم: (١٤٠٨).

(٤) أخرجه مسلم في «الصحيح» كتاب: الزهد والرقائق، رقم: (٢٩٩٩).



الأمر الثاني: أن يستحضر أن الذي ابتلاه هو الله الذي لا يُسأل عما يفعل، وهم يُسألون.

الأمر الثالث: أن يستحضر أن الذي ابتلاه هو الله الذي لا يُسأل عما يفعل؛ لتتمام فعله؛ فإنه لا يفعل إلا لحكمة، فيستحضر أن هذا البلاء الذي نزل به إنما نزل به لحكمة، وليس عبثاً، فإن الله لم يفعل شيئاً؛ ولا يفعل شيئاً إلا لحكمة.

الأمر الرابع: أن يستحضر أن البلاء إذا نزل بالعبد المؤمن؛ إما أن ينبّهه من غفلة، أو تُكفّر عنه به سيئة، أو تُرفع له به منزلة، هذه الحُكَمُ الثلاث في نزول البلاء؛ إما تنبيه من غفلة، فإن المؤمن قد يعيش في غفلة، فقد تلهيه الدنيا ويضعف في دينه؛ فينزل به بلاء يُذكره، فيتذكر ما هو عليه، فيعود إلى الله، كم من شخص كان بعيداً عن الأعمال الصالحة فمات ابنه فتنبه وعاد إلى الديانة والتقرب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كم من شخص كان غافلاً لاهياً مُغرِقاً في المعاصي فابتلي بمرض فتنبه فعاد إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

أو تُكفّر بهذا البلاء سيئات، أو تُرفع له بها منزلة؛ فإنه ورد في الحديث: «إن الله إذا أراد بعبدٍ منزلة في الجنة، ثم لم يبلغها بعمله، قال لملائكته: صبُّوا عليه البلاء صبّاً، ثم صبره عليه»^(١)، فيرتفع بالبلاء إلى منزلته في الجنة التي لم يبلغها بعمله.

الأمر الخامس: أن يستحضر أمراً عظيماً؛ وهو أن الذي ابتلى هو الذي أنعم، فإذا نزل بك البلاء فانظر إلى نعم الله عليك، إن كان الله ابتلاك بمرض في جسدك فقد أنعم عليك في جسدك - مع المرض - بنعم كثيرة، فالذي ابتلى بهذا البلاء هو

(١) أخرجه أبو داود في «السنن»، كتاب الجنائز، باب الأمراض المكفرة للذنوب، رقم (٣٠٩٠)، وصححه الألباني لغيره في «السلسلة الصحيحة»، رقم: (٢٥٩٩).

الذي أنعم بلا انتهاء، وهذا يعين المسلم على أن يصبر على البلاء الذي ينزل به، فإذا نزل البلاء بالعبد وصبر على ذلك؛ فإنه يبلغ بذلك منزلة عظيمة.

وعرّف شيخ الإسلام رحمته الله المصيبة فقال: (هي كلُّ ما يؤلم؛ من همٍّ أو حزنٍ أو أذىٍ في مالٍ أو عرضٍ أو جسدٍ أو غير ذلك)، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما يصيب المسلم من نصبٍ ولا وصبٍ ولا همٍّ ولا حزنٍ ولا أذىٍ ولا غمٍّ حتى الشوكة يُشاكها؛ إلا كفر الله بها من خطاياها» متفق عليه^(١).

هذا الحديث فيه بيان أنّ البلاء يكفر الذنوب، وفيه بيان البلاء بالمثال .

فالمصيبة: هي ما ينزل بالإنسان مما يكرهه، هذا ضابطها العام؛ ما ينزل بالإنسان مما يكرهه، حتى لو جاءك رجل كثير الأذى فنزل بك وأنت تكره هذا؛ فهذه مصيبة، وإن صبرت على هذا وعملتَ بالمشروع في هذا فإنك تنال منزلة عالية.

والهمّ: نوعٌ من الحزن، يقع في الغالب بسبب التفكير فيما يُتوقّع، يتوقّع الإنسان أن يصيبه كذا فيصيبه الهمّ.

والحُزن: معروف، يصيب القلب بسبب وقوع المكروه، فإذا وقع مكروه فإنّ القلب يصيبه حُزن.

والنَّصب: هو التعب.

والوَصَب: هو الألم، والسُّقْمُ الدائم، بعض الناس يصاب بمرض يصيبه بألمٍ مستمر، لا يُعجزه لكنه يؤلمه، يعني: بعض الناس يقول: أنا عندي صداع دائم؛ هذا وَصَب؛ ألمٌ مستمرٌّ دائم، فهذه كلها من المصائب، وهي مكفّرات للذنوب.

(١) «صحيح البخاري» كتاب: المرضى، باب: ما جاء في كفارة المرض، رقم: (٥٦٤١)، و«صحيح مسلم» كتاب: البر والصلة والآداب، رقم: (٢٥٧٢).



شرح الوصية الصغرى

فإذا أصاب الإنسان همٌّ فإنه يكفر به من سيئاته، وإذا أصاب الإنسان حُزن فإنه يكفر به من سيئاته، وإذا أصاب الإنسان أذى في ماله فذهب بعض ماله فإنه يكفر به من سيئاته، وإذا أصاب الإنسان أذى في عرضه - يعني من جهة أنه نيل من عرضه بكلام أو نحو ذلك - فإنه يكفر به من سيئاته، أو أذى في جسده، أو غير ذلك مما ينزل بالإنسان مما يكرهه فإن هذا تكفر به السيئات.

ثم قال شيخ الإسلام **رحمته الله** معقبًا: (لكن ليس هذا من فعل العبد)، والمقصود: ليس هذا مطلوبًا من العبد، فما دام أنه ليس من فعلك، فإنه ليس مطلوبًا منك.

ولذلك يقول بعض أهل العلم: من الأجور ما لا يُشرع طلبه ويذكر هذا في الأغاز الفقهية ويقال: ما الأجر الذي لا يُشرع للإنسان أن يطلبه؟ والجواب: الأجر المرتب على نزول المصيبة؛ فإنه لا يُشرع للإنسان أن يطلبه، لكن إذا نزلت به المصيبة صبر وعلم أن في هذا أجرًا، وأن في هذا إذهابًا للوزر.

وبهذا يكون شيخ الإسلام ابن تيمية **رحمته الله** فرغ من الكلام عن الجملتين الأوليين في هذا الوصية العظيمة: «اتق الله حيثما كنت»، وخلاصة ما فيها: افعل يا عبد الله ما أمرك الله به، واجتنب ما نهاك الله عنه، واحرص على ذلك.

«وأتبع السيئة الحسنة تمحها» فيا عبد الله اعلم أنك مع حرصك على فعل الأوامر واجتناب النواهي سيقع منك الخطأ، فإذا وقع الخطأ فبادر، وأتبع الخطأ بحسنة، أو بمكفر يكفرها، وهذا يزيل عنك أثر الذنب.

ثم سيشرح شيخ الإسلام **رحمته الله** في بيان الجملة الأخيرة من هذه الوصية «وخالق الناس بخلق حسن».

قال شيخ الإسلام **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (فلَمَّا قَضَى بهاتين الكلمتين حق الله؛ من عمل الصالح، وإصلاح الفاسد؛ قال: «وخالق الناس بخلق حسن»، وهو حق الناس).

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (فلَمَّا قَضَى بهاتين الكلمتين حق الله؛ من عمل الصالح) هذا في قوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «اتق الله حيثما كنت»، (وإصلاح الفاسد) هذا في قوله **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «وأَتبع السيئة الحسنة تمحها»؛ قال: («وخالق الناس بخلق حسن»، وهو حق الناس).

وقد تقدّم معنا أَنَّ الإنسان في الدنيا عليه حقّان: حق الله، وحق الخلق.

وقد قال بعض العلماء كلمة عظيمة نافعة: (جماع الدين: الصدق مع الحق **وَعَجَلٌ**، وحسن الخلق مع الخلق)، الأمر الذي يجمع الدين كلّهُ: أن تكون صادق القلب مع الله، موحّداً، عابداً، مخبّئاً لربك **سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ**، حَسَنَ الخلق مع خَلْق الله، فإذا جمعتَ بين هذين الأمرين، فقد جمعتَ الدِّينَ، وهذا معنى قول العلماء: (جماع الدين: الصدق مع الحق **وَعَجَلٌ**، وحسن الخلق مع الخلق).

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (وهو حق الناس) أي: أَنَّ حسن الخلق حق الناس، والعلماء يقولون: إِنَّ حسن الخلق يُخْتَبَر به الناس، وتبيّن به معادتهم، فكم من شخص يجتهد في العبادة لكنه يعجز عن حسن الخلق! وهذا معنى قول أهل العلم: (إِنَّ حسن الخلق يُخْتَبَر به الناس، وتنكشف به حقائقهم وتبيّن معادتهم).

وحسن الخلق يجمع فعل الفضائل وإجتنب الرذائل، وهو صفة الأخيار الأبرار، فَإِنَّ نَبِيَنَا **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** لَمْ يكن فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «إِنَّ خياركم أحاسنكم أخلاقاً» متفق عليه^(١).

(١) «صحيح البخاري» كتاب: المناقب، باب: صفة النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، رقم: (٣٥٥٩)، و«صحيح مسلم» كتاب: الفضائل، رقم: (٢٣٢١).

النبى ﷺ يشهد هذه الشهادة بالخيرية للمسلم «إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً»، فمن أراد أن يكون له نصيب من شهادة رسول الله ﷺ بالخيرية، فليجتهد في تحسين أخلاقه.

وقال جملة عجيبة مشوقة لمن أحب النبى ﷺ صادقاً، ومما من مؤمن إلا وهو يحب النبى ﷺ، قال ﷺ: «إن من أحبكم إليّ أحسنكم أخلاقاً» رواه البخاري في الصحيح^(١)؛ فالنبى ﷺ يحب المؤمنين، ومن حسن خلقه كان أحب إلى النبى ﷺ.

ولذلك قال بعض أهل العلم: (من زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين)، يعني من زاد عليك في الخلق وهو على دين؛ زاد عليك في الدين؛ لأن الخلق من البر الذي يحبه النبى ﷺ، ولذلك كلما حسنت خلقك كلما كنت أحب إلى النبى ﷺ. وقال النبى ﷺ: «البر حُسن الخلق»^(٢)، والمعلوم أن هذه الصيغة تقتضي الحصر: «البر حُسن الخلق» فكأن النبى ﷺ حصر البر في حُسن الخلق، قال العلماء: لأن البر يكون بمعنى الصلة، ويكون بمعنى اللطف، ويكون بمعنى حُسن الصفة، ويكون بمعنى الطاعة، وهذه مجامع حُسن الخلق.

وسأتي - إن شاء الله - الكلام لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في هذا.

وقال النبى ﷺ: «إن المؤمن ليدرك بحُسن الخلق درجة الصائم القائم» رواه الإمام أحمد، والترمذي بمعناه، وصححه الألباني^(٣).

(١) «صحيح البخاري» كتاب: أصحاب النبى ﷺ، باب: مناقب عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رقم: (٣٧٥٩).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح» كتاب: البر والصلة والآداب، رقم: (٢٥٥٣).

(٣) «مسند الإمام أحمد» (٤١/٤٧٠) رقم: (٢٥٠١٣)، و«جامع الترمذي» أبواب: البر والصلة، باب: ما جاء في حسن الخلق، رقم: (٢٠٠٣)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم: (٧٩٤-٧٩٥).

«إِنَّ الْمُؤْمِنَ» وهذا يدلّ على أَنَّ حُسْنَ الخُلُقِ إنما ينفع المؤمن، فلا بد أن يكون مع إيمان، «ليدرِك بحُسْن الخُلُقِ درجة الصّائم القائم» والمقصود بالصّائم: مُدِيم الصّيام. والمقصود بالقائم: مُدِيم القيام. وهذا يدل على فضيلة حُسْن الخُلُقِ. وقال النبي ﷺ: «ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق» رواه أبو داود، والترمذي، وصححه الألباني^(١).

هنا أَلِفْتُ لَفْتَةً عِلْمِيَّةً، نجد كثيراً في الحديث مثل هذا، فقد يقول قائل: أليست الصلاة المفروضة ثقيلة في الميزان؟ أليست أركان الإسلام ثقيلة في الميزان؟ أليس التوحيد ثقيلًا في الميزان؟ والنبي ﷺ يقول: «ما من شيء أثقل في الميزان من حُسْن الخُلُقِ». نقول: بلى؛ إِنَّ الصلاة ثقيلة، وَإِنَّ التوحيد ثقيل، وهذه النصوص إذا وردت لا تمنع المشاركة، فهذا ثناء على المذكور لا يَمْنَع مشاركة غير المذكور، وهو مثل التفضيل بين الأنبياء؛ لا يقتضي نقصًا، ولهذا نصّ أهل العلم على أن التفضيل بين الأنبياء على وجه التنقّص لا يجوز.

فعندما يقول النبي ﷺ: «ما من شيء أثقل في الميزان من حُسْن الخُلُقِ» لا يعني أَنَّ غيره لا يكون ثقيلًا مثله؛ بل يشاركه، لكن ذَكَرَ هذا في باب الحثّ على حُسْن الخُلُقِ، ولا يَمْنَع شِرْكُهُ غيره فيه.

وقال ﷺ: «أنا زعيم بيت في رَبَضِ الجنة لمن ترك المراء وإن كان محققًا، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وبيت في أعلى الجنة لمن حَسَنَ خُلُقَهُ» رواه أبو داود، وصححه النووي، وحسنه الألباني^(٢).

(١) «سنن أبي داود» كتاب: الأدب، باب: في تفسير الخلق، رقم: (٤٧٩٩)، و«جامع الترمذي»، أبواب: البر والصلة، باب: ما جاء في حسن الخلق، رقم: (٢٠٠٣)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم: (٨٧٦).

(٢) «سنن أبي داود» كتاب: الأدب، باب: في حسن الخلق، رقم: (٤٨٠٠)، وانظر «رياض الصالحين» باب: حسن الخلق، رقم: (٦٣٠)، و«السلسلة الصحيحة» رقم: (٢٧٣).



«أنا زعيم»؛ أي: ضامن، «بيت في ربض الجنة» أي في طرف الجنة، «لمن ترك المرء وإن كان محققاً»، والمرء: أن يصلَ الحوار بين الطرفين إلى حب كل واحد نصرته رأيه، لا لإظهار الحق، فإذا وصل الأمر إلى أن المتحاورين كل واحد منهما أصبح يريد أن ينصر رأيه لا أن يُظهر الحق؛ فهذا المرء، والنبي ﷺ ضمنَ لمن تركه بيتاً في طرف الجنة؛ لأنه إذا اشتد النقاش وظهرت رغبة النفس في النصرته، يصعب أن تَفْطَمَ نفسك إذ ذاك؛ ولذلك جاء هذا الفضل؛ حتى إذا تذكرته توقفت.

«وببيت في وسط الجنة» في وسط درجاتها «لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً»، كثير من الناس اليوم قد يمتنع من الكذب، لكنه يتساهل في الكذب من أجل المزاح؛ من أجل أن يُضحك الناس، فيكذب ليُضحك الناس، والنبي ﷺ يقول: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك الكذب ولو كان مازحاً».

«وزعيم بيت في أعلى الجنة لمن حُسن خلقه» فحُسن الخلق مع الإيمان يقربك - يا عبد الله - من درجة الأنبياء والأولياء التي هي أعلى الجنة، وهذا دليل على شرف حُسن الخلق.

وقال النبي ﷺ حديثاً عجيباً، فيه حثٌّ على الخير، وتسليّةٌ للنفوس؛ قال ﷺ: «أربعٌ إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: صدق الحديث، وحفظ الأمانة، وحُسن الخلق، وعِفَّةُ مَطْعَمٍ» رواه الحاكم، والطبراني، وصححه الألباني^(١).

«أربعٌ إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا»: أنت فقير؟ فاتتك الدنيا؟ ليس عندك ما عند الناس من رفاهية؟ إذا كان عندك هذه الأربع فلا يضرُّك ما فاتك من الدنيا، فأنت الغني حقاً.

(١) «المستدرک» للحاکم (٣١٤/٤)، و«المعجم الكبير» للطبراني، (٣٢٢/١٣)، رقم: (١٤١٢٠)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم: (٧٣٣).

ما هذه الأربع العظيمة التي تساوي الدنيا؟

«صدق الحديث»: أن يحرص الإنسان على أن يكون صادقاً دائماً.

«حفظ الأمانة»: بأنواعها: أمانة الدين التي هي أمانة عند الإنسان، وأمانة ودائع الناس، وغير ذلك.

«وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَعِفَّةُ الْمَطْعَمِ»: أن تحرص أن يكون مَطْعَمُكَ حلالاً.

إذا تحققت فيك هذه الأربع فوالله أنت الغني، فإن هذه الأربع تساوي الدنيا بشهادة رسول الله ﷺ، أربع إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا، ومَا أعظم هذا الحديث!

أيضاً يقول النبي ﷺ لَمَّا سُئِلَ عن خير ما أُعْطِيَ الرجل، قال: «خُلُقٌ حَسَنٌ». رواه الحاكم، وابن حبان، وابن ماجه، وصححه ابن عبد البر، وابن مفلح، والألباني^(١).

وقال النبي ﷺ ناصحاً بأمرين يقلّ الالتزام بهما في كثير من الناس؛ قال ﷺ: «عليك بِحُسْنِ الْخُلُقِ وَطُولِ الصَّمْتِ» يعني الزم حُسْنَ الْخُلُقِ وَطُولَ الصَّمْتِ.

قال بعض أهل العلم: (من أحسن أخلاق الرجال أن يكون الرجل صموتاً حتى يشتاق صاحبه إلى كلامه)، بعض الناس إذا جلس معك تتمنى متى يسكت،

(١) «السنن» لابن ماجه، أبواب: الطب، باب: ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، رقم: (٣٤٣٦)، و«صحيح ابن حبان» بترتيب ابن بلبان، باب: ذكر البيان بأن حسن الخلق من أفضل ما أعطي المرء في الدنيا: (٢/٢٦٦) رقم: (٤٧٨)، و«المستدرک» للحاكم، (١/٢٠٩)، وانظر: «التمهيد» لابن عبد البر (٥/٢٨١) و«الأدب الشرعية» لابن مفلح (٣/١٩٧)، و«السلسلة الصحيحة» للألباني، رقم: (٤٣٢).

وبعض الرجال إذا جلس معك تتمنى متى يتكلم، فالنبي ﷺ يقول: «عليك بحسن الخلق، وطول الصمت، فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلهما» رواه أبو يعلى، والطبراني، والبزار، وحسنه الألباني^(١).

والمقصود بقول النبي ﷺ: «فوالذي نفسي بيده ما عمل الخلائق بمثلهما»: أن العمل بهما صعب؛ لأن الإنسان يحب الكلام؛ فيصعب عليه أن يطيل الصمت، ولأن حسن الخلق يحتاج إلى مصابرة ومجاهدة، وقل من يصبر عليه.

والخلق المحمود هو ما يحرص فيه الإنسان أن يكون عليه في مختلف أحواله، وأكثر ما يتبين حسن الخلق إذا ذهبت المصانعة، الإنسان قد يُصانع الغرباء فيُحسن خلقه، لكن إذا ذهبت المصانعة، ينكشف الأمر، يظهر ذلك في السفر؛ فإن السفر تقل فيه المصانعة وتغلب فيه المشقة؛ فينكشف من بكى ممن تباكى، يظهر ذلك مع الأهل في البيت فينكشف من ظهر حسن خلقه حقيقة ممن لم يكن ذلك له بصفة.

وكما قلت ذلك سابقاً ومراراً؛ إن بعضنا قد يُحسن خلقه إذا كان في خارج البيت؛ بل حتى لو أخطأ عليه أحد تجده يتسم ويقول: (جزاك الله خيراً، عفا الله عني وعنك)، فإذا دخل البيت غير هذا تماماً، وأصبح سبباً، لعاناً، شتاً، ضرراً، يغضب لأدنى سبب، ويضرب عند أدنى سبب، لا يقف عند حد، وهذا في الحقيقة ينبغي أن يراجع نفسه، فإن حسن الخلق هو الذي يتصف به الإنسان على كل أحواله.

(١) «المسند» لأبي يعلى (٢/٨٣٤)، و«المعجم الأوسط» للطبراني (٧/١٤٠) رقم: (٧١٠٣)، و«البحر الزخار» للبزار، (١٣/٣٥٩)، رقم: (٧٠٠١)، وانظر «السلسلة الصحيحة» رقم: (١٩٣٨).

قال شيخ الإسلام **رحمته الله**: (وجماع الخلق الحسن مع الناس: أن تصل من قطعك بالسلام والإكرام، والدعاء له، والاستغفار، والثناء عليه، والزيارة له، وتعطي من حرمك من التعليم والمنفعة والمال، وتعفو عمن ظلمك في دم أو مال أو عرض، وبعض هذا واجب، وبعضه مستحب).

جاء في حديث مروي عن النبي **صلوات الله وسلامه عليه** قال: «ألا أدلكم على خير أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ أن تصل من قطعك، وتُعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك» رواه الإمام أحمد، والحاكم، وعبد الرزاق، لكن في إسناده ضعف^(١).

وذكرت هذا الحديث؛ لأنه يظهر لي - والله أعلم - أنه مستند قول شيخ الإسلام ابن تيمية **رحمته الله**؛ لأنه ذكر ما فيه.

وقول الشيخ **رحمته الله**: (وجماع الخلق الحسن أن تصل من قطعك): صلة الناس من أعظم الأخلاق وأحسنها، ورأسها وأكرمها: صلة الوالدين، أن يصل الإنسان والديه بما يستطيع من أنواع الصلة، ثم صلة الرحم الأقرب فالأقرب، ثم صلة أهل العلم، وصلة الجيران، وأعظم الصلة أن يصل العبد من قطعه، قال النبي **صلوات الله وسلامه عليه**: «ليس الواصل بالمكافئ؛ ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها» رواه البخاري^(٢).

ليس الواصل بالمكافئ الذي إن وصله الناس وصلهم؛ إن وصله عمه وصله، وإن قطعه قطعه؛ هذا ليس الواصل على وجه الحقيقة، وإنما الواصل على وجه الحقيقة الذي إذا قطعت رحمه وصل، وإذا أدبر الناس عنه أقبل، ويكون بادئاً حريصاً على الصلة، فهذا هو صاحب الخلق.

(١) «المسند» للإمام أحمد (٦٥٤/٢٨) رقم: (١٧٤٥٢) و«المستدرک» للحاكم (١٧٨/٤)، و«المصنف» لعبد الرزاق (١٧٢/١١) رقم: (٢٠٢٣٧)، وانظر: «السلسلة الضعيفة» رقم: (٦٦٦٠).

(٢) «صحيح البخاري» كتاب: الأدب، باب: ليس الواصل بالمكافئ، رقم: (٥٩٩١).



قال بعض العلماء: (الناس في الصلة ثلاثة: واصلٌ، ومكافئٌ، وقاطعٌ)؛ فالواصل: من يُتَفَضَّلَ ولا يُتَفَضَّلَ عليه؛ أي: هو السَّبَّاق، سواء مع الواصلين من رَحِمِهِ أو القاطعين؛ يسبق إليهم وَيَصِلُهُمْ، وهذا معنى قولهم: (من يُتَفَضَّلُ) أي: بالصلة، (ولا يُتَفَضَّلُ عليه) أي: لا يُسَبِّقُ بها.

والمكافئ: الذي لا يزيد على الإعطاء على ما أَخَذَ؛ فعلى سبيل المثال: لو زارني ابن عمي مرة في الشهر، أزوره مرة في الشهر، لَمْ يَزِرْنِي لا أزوره، هذا مكافئ؛ هذه بتلك.

والقاطع: الذي يُتَفَضَّلُ عليه ولا يُتَفَضَّلُ، قد يصله أقاربه، لكنه لِكِبَرٍ أو غير ذلك يَهْجُرُهُمْ، ولا يصل رَحِمَهُ، قد يكون له مقام علميٍّ أو دنيويٍّ، فيتكَبَّرُ على أقاربه، ويرى أنهم ليسوا أهلاً أن يزورهم ويزورونه، فيقطع أقاربه! وهذه - كما يقولون - آفة العصر.

اليوم قد يَجْتَمِع طلاب علم في عمارة واحدة، لا يزور الواحد منهم الآخر، طلاب علم لا أقول العامّة، طلاب علم يَجْتَمِعُونَ في عمارة واحدة، وقد يكونون في غربة، كل واحد يحتاج الآخر، وقد يكون هذا جاء بأهله وليس لهم أقارب في المدينة، وهذا جاء بأهله ليس لهم أقارب في المدينة، لا يزور الواحد منهم الآخر! الآن يسكن الناس في عمارة واحدة، يسكنون سنة وستين وثلاثاً وأربعاً، لا يَعْرِف الواحد منهم اسم جاره، لا أقول لا يزوره، بل لا يَعْرِف اسمه! تأتي إلى عمارة تقول: فلان هنا؟ يقول: ما أدري والله، وهو في نفس العمارة! أين الأخلاق؟ أين حُسْنُ الخلق؟ أين الصلة التي هي من أعظم أنواع حُسْنِ الخلق؟

والأصل في الإنسان الوصل؛ إلا أنه قد تتقدّم أسباب للقطع، فهذه الأسباب يجب أن ننظر فيها؛ لأنّ بعض الناس يَتَحَجَّج يقول: أنا ما قطعْتُ من تلقاء نفسي؛ بل هناك أسباب، ولكن ما هي هذه الأسباب؟

إما أن تكون : دينية، أو دنيوية:

إن كانت الأسباب دنيوية فلا تخلو من حالين:

الحال الأولي: أن تكون صادرة ممن تقطع، مثلاً سبَّك، أو آذاك، في هذه الحال جعل الله لك فرصة ثلاثة أيام، والمحسن من تركها، «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»^(١)، جعل الله لك ثلاثة أيام من أجل أن يندفع ما في نفسك، ولا خير فيمن لم يندفع ما في نفسه بعد ثلاثة أيام، لأن النبي ﷺ جعل الخيرية فيمن يبدأ بالسلام.

والحال الثانية: إن كان السبب صادرًا من غير من تقطع؛ كأن تكون أنت على منصب أو غير ذلك؛ فليس لك الحق في أن تقطع من يوصل قطعًا مقصودًا.

وإن كانت الأسباب دينية؛ يعني: يقوم في الإنسان سبب ديني شرعي يقتضي منك أن تقطعه.

تأتي هنا مسألة الهجر، ومسألة الهجر مسألة شرعية شريفة؛ ينبغي أن توضع في موطنها، والأصل في المسلم أن يُبادرَ إلى الإصلاح والنصح قبل أن يهجر.

فإننا نجد اليوم بعض طلاب العلم، يهجر أخًا له، وهذا الأخ لا يدري لمَ هجره! ربما لو عرف وتبين له الحق لترك، وهذا من حيث الأصل غلط، المسلم يبدأ بالبيان، والنصح والإصلاح، فإن لم ينفع هذا فإنه تأتي مشروعية الهجر.

ولا حدّ للهجر بسبب الأمر الديني، لا ثلاثة أيام ولا غيرها، بل يهجر مادام السبب الشرعي قائمًا، ولهذا أصول عند أهل العلم لا أحب أن نطيل فيها.

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الأدب، باب الهجرة، رقم: (٦٠٧٧)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: البر والصلة، رقم: (٢٥٦٠).



شرح الوصية الصغرى

وكلامنا عن ذم القطع إنما هو في ذم القطع المقصود، يعني: أن تقطع قاصداً القطع، أما إن لم تقصد هذا، لكنك لم تلتق بالمسلم شهراً، هذا ليس بمذموم، وإنما المذموم هو القطع المقصود على ما فصلناه.

ومن حسن الخلق: بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى.

فتبسط وجهك للمؤمنين، وتتصدق بالبسمة؛ «فتبسّمك في وجه أخيك صدقة»^(١)، وأن تكف الأذى عن المؤمنين، وأن تبذل لهم الخير.

ولما سئل الإمام أحمد عن حسن الخلق؟ قال: (لا تغضب ولا تحقد)، جمرتان في القلب تحرقان الخير الذي في الإنسان، وتعميانه: الحقد، والغضب؛ من غضب أعماه الغضب عن الخير، ومن حقد على مسلم فإن هذا يقوده إلى التسبب له في الشر، ولذلك لما سئل الإمام أحمد رحمته الله عن حسن الخلق قال هاتين الجملتين: (لا تغضب ولا تحقد).

وهذا مع سهولة نطقه يصعب فعله، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس الشديد بالصُّرعة؛ وإنما الشديد الذي يُمسِك نفسه عند الغضب»^(٢).

هذا الذي يظهر فيه أنه شديد قوي لأنه يُمسِك نفسه عند الغضب، والإنسان إذا غضب أول ما يسيء ل نفسه؛ فإنه قد يقول ما يستحي منه غداً، وقد يبدر منه أقوال وأفعال لو عُرِضَتْ عليه بعد ساعة لذاب خجلاً، ثم يسيء إلى غيره.

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» أبواب: البر والصلة، باب: ما جاء في صنائع المعروف، رقم: (١٩٥٦)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٥٧٢).

(٢) «صحيح البخاري» كتاب: الأدب، باب: الجذر من الغضب، رقم: (٦١١٤)، و«صحيح مسلم» كتاب: البر والصلة والآداب، رقم: (٢٦٠٩).

وقد قال بعض العلماء: (جَماعُ حُسن الخُلُق: أن يكون الإنسان كثير الحياء، قليل الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل، قليل الفضول، بَرًّا وَصَولًا، وَقُورًا صَبُورًا، راضيًا شَكُورًا، حليمًا رَفِيقًا، عَفِيفًا شَفِيقًا، لَا لَعَنًا وَلَا سَبَابًا، وَلَا نَمَامًا وَلَا مَغْتَابًا، وَلَا عَجُولًا وَلَا حَقُودًا، وَلَا بَخِيلًا وَلَا حَسُودًا، بَاشًّا هَاشًّا، يَحِبُّ فِي اللَّهِ، وَيَرْضَى فِي اللَّهِ، وَيُبْغِضُ فِي اللَّهِ). وهذا الكلام مأخوذ من صفات الرسول ﷺ، فلو تأملته لوجدته خلاصة ما نُقل من صفات النبي ﷺ الخُلُقِيَّة.

وقال بعض السلف: (حُسن الخُلُق في ثلاث خصال: اجتناب المحارم، وطلب الحلال، والتوسعة على العيال)، وَيُنسَبُ هذا إلى الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقال بعض السلف: (البشاشة لأهلها مَصِيدَةُ المودَّة)، فالإنسان إذا كان بشوشًا، ينجذب إليه الناس ويحبه الناس.

وقال بعض السلف: (البرُّ شيءٌ هَيِّنٌ؛ وجه طليقٌ، وكلامٌ لَيِّنٌ)، وهذا من جوامع حُسن الخُلُق.

ومن مجامع حُسن الخُلُق، ومن الصفات الزكية العلية في المؤمن: الحرص على نفع المسلمين؛ فَإِنَّ هذا من رؤوس حسن الخلق.

ورأس النفع: الحرص على نفع المؤمنين بالعلم بالسنة، ونشر التوحيد، فَإِنَّ هذا من أعظم النفع.

وكذلك الحرص على نفع الناس في دنياهم، وقد قال النبي ﷺ: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ رِعَالٌ»: سرور تُدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمشي مع



أخ في حاجة أحب إليّ من أن أعتكف في هذا المسجد - يعني: مسجد المدينة - شهراً، ومن كفّ غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه؛ ملأ الله قلبه رجاءً يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى تهيأ له؛ أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام، وإنّ سوء الخلق يُفسد العمل كما يفسد الخل العسل» رواه الطبراني، وحسنه الألباني^(١).

انظر إلى هذه المجامع، يقول النبي ﷺ: «أحبّ الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس وأحبّ الأعمال إلى الله تعالى: سرور تُدخله على مسلم» وهذا من حسن الخلق، لا سيما إذا وُجدت الحاجة، إذا رأيته مهموماً، أو علمت أن شيئاً نزل به؛ فذهبت زائراً له قاصداً أن تُحدثه حتى تدخل السرور إلى قلبه؛ فأنت في عبادة عظيمة، من أحبّ الأعمال إلى الله ولو كان حديثك في الدنيا، لو ذهبت إليه تحدثه لتدخل السرور على قلبه وحدثه في أمور الدنيا في بلاد رأيته، في أمور وعجائب رأيته، وأمور تدخل السلوة والسرور على قلبه؛ فأنت في عمل من أحبّ الأعمال إلى الله ﷻ.

ويقول ﷺ: «أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً» إذا رأيت مسلماً جائعاً، فتقرّبت إلى الله بأن تُشبعه، فقد عملت عملاً من أحبّ الأعمال إلى الله، فما بالك إذا كان هذا الرجل جاراً لك عنده صبيّة جاعاً؟

فتفقد الإخوة والجيران من غير كسر لقلوبهم أمر طيب، والله فوجئت أن أحد طلابنا، ومعه أسرته عنده ثلاثة في بيته ليس لها باب، لا يستطيع أن يشتري ثلاثة من قلة ذات اليد.

(١) «المعجم الكبير» للطبراني، (٣٤٦/١٢)، رقم: (١٣٦٤٦)، وانظر «السلسلة الصحيحة» رقم: (٩٠٦).

الواحد منا قد يعرف أنّ جاره - مثلاً - يستلم مكافأة من الجامعة ووقع له حادث سيارة، فأصلح سيارته، يغلب على ظنه أنه وضع أكثر ماله في هذا الإصلاح، وأنه يبقى فترة ربما على القليل من المال، وربما يأكل وجبة في اليوم، فإذا علمَ هذا وقام وأعدّ طعاماً في بيته وأدخله على أخيه، انظروا أولاً إلى عِظَم أثر هذا في قلب الأخ، ثم هو من أحبّ الأعمال إلى الله ﷻ.

لو أنّ كل واحد منا تفقّد إخوانه وجيرانه ومن حوله، وحاول أن يطرد عنهم الجوع وأن يشاركهم في بعض ماله ولو القليل منه؛ والله إنها من أحبّ الأعمال إلى الله، ومن أعظم القربات عند الله ﷻ.

قال ﷺ: «ولأنّ أمشي مع أخٍ في حاجة، أحبّ إليّ من أن أعتكف في هذا المسجد يعني: - مسجد المدينة - شهراً» لاحظوا إذا اعتكف في المسجد النبوي شهراً ماذا سيفعل؟ سيصلي الصلوات الخمس لمدة شهر في المسجد النبوي؛ وهي خير من ألف صلاة، ويتقرّب إلى الله بسائر العبادات بالإضافة إلى عبادة الاعتكاف! والنبي ﷺ يقول: «ولأنّ أمشي مع أخٍ في حاجة أحبّ إليّ من أن أعتكف في هذا المسجد - يعني: مسجد المدينة - شهراً».

«ومن كفّ غضبه» يعني لم يجعل غضبه متعلّياً للناس، بل كتمه: «ستر الله عورته».

«ومن كظم غيظه، لو شاء أن يُمضيَه لأَمْضاه؛ ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة» فيكون مؤمناً راضياً عند لقاء الله ﷻ.

«ومن مشى مع أخيه في حاجته حتى تنهيا له؛ أثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام» على الصراط؛ يثبت الله قدمه على الصراط.

«وإنَّ سوء الخلق يُفسد العمل» سوء الخلق يُفسد على الإنسان كل شيء؛ يُفسد عليه من حوله، ويُفسد عليه عمله، النبي ﷺ يقول: «وإنَّ سوء الخلق يُفسد العمل كما يُفسد الخلّ العسل»: فهذا أمر عظيم، ينبغي علينا جميعاً أن نحرص عليه.

وقوله **رَحِمَهُ اللهُ**: (أن تَصِلَ من قطعك؛ بأنواع الصّلات؛ بالسلام، والإكرام، والدعاء له): سبحان الله! يقطعني وأدعو له؟ نعم هذا حُسن الخلق، (والاستغفار والثناء عليه) ما أصعبها! إنسان يقطعك، ويظهر قطيعتك، ومع ذلك إذا جلستَ في مجلس وإن أراد أحدٌ أن يتكلم فيه قلتَ: اتقِ الله هذا ليس فيه، فليس الخلق أنه إذا بدأ إنسان يتكلم فيه، قلتَ: نعم، يظهر هذا، كأنك تقول: زد، بل يزيد صاحبُ الخلق أن يُثني عليه.

رأيتُ من أحد مشايخنا موقفاً عجيباً؛ جاءه رجل فقال: إن فلاناً يقول: إنك لستَ بقويٍّ في علم الحديث، شخص من طلاب العلم من أهل العلم يُنقل عنه هذا الكلام، فقال: غفر الله له إنه أقوى مني في هذا الباب، وأنا لستُ ضعيفاً في علم الحديث فقط بل في بقية العلوم، فما أحوجني إلى أن أزيد! فدهش الرجل، ما استطاع أن يقول شيئاً، كان يظن أنه سيفتح سيرة - كما يقولون -، فذكر ذاك بما فيه - وهو قوي في علم الحديث - قال: إنه أقوى مني في علم الحديث، وأنا -زاد- لستُ ضعيفاً في علم الحديث فقط بل في بقية العلوم وما أحوجني إلى الزيادة.

والعالم هو الذي يرى أنه بحاجة إلى زيادة علم، يقول العلماء: (العالم حقّاً: كلّما زاد علماً كلّما أدرك جهله، والمسكين كلّما علم شيئاً انتفخ كأنه شيخ الإسلام) إن تعلّم حرفاً أو كلمتين أو نحو ذلك رأى نفسه لا يدانيه أحد، هذا لا يكون عالماً أبداً؛ وإنما يكون مغروراً، ويقع في سوء الكثير.

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (وتعطي من حرمك من التعليم والمنفعة والمال وغير ذلك، وتعفو عمن ظلمك في دم أو مال أو عرض) وأعظم من العفو: أن تؤمّنه؛ مع عفوك عنه تُشعره بالأمان؛ وهذا كظم الغيظ، وأعظم من هذا: أن تحسّن له، تعفو عنه وتؤمّنه وتحسن إليه.

ذَكَرَ أَنَّ بعض السلف اغتابه رجل فبلغه ذلك، فأرسل إليه غلامه بطبق فاكهة نادر في ذلك الوقت، وكتب له رسالة: (يا أُخَيَّ، قد بلغني أنك قلت في كذا وكذا، ويعلم الله أنه ليس في عفا الله عنك، وغفر لك زلتك، واعلم أن مكانك في قلبي اليوم أعظم من مكانك بالأمس)! من يستطيعها؟ سلفنا الصالح ضربوا أروع الأمثلة في حُسن الخلق.

الإمام أحمد في فتنه القول بخلق القرآن لَمَّا ثَبَتَ وكاد أن يكون وحيداً على القول بأن القرآن كلام الله **ﷻ** ليس بمخلوق، آذاه الخلفاء، وضربوه، وجلدوه، فكان يُجلّد حتى يتقرّح جلده، ثم يُحشى جلده بالملح، ويُسحب سحباً من أجل أن تنفك مفاصله، ويأتيه الخليفة في الليل ويضع الكرسي ويجلس، والإمام أحمد يئن من ألمه، يقول: (يا أحمد قل لي كلمة واحدة أفك قيدك بنفسي)، فيقول: (لا؛ حتى تأتيني بآية من كتاب الله)، فإذا أصبح جاؤوا بالجلادين، وقال: (شُدّ عليه، قطع الله يدك)، حتى فرّج الله عن الإمام أحمد، فلمّا مات الخليفة أحلّه الإمام أحمد، فقالوا له في ذلك؛ يعني هذا ابتلاك في الدين وأنت على الحق وضربك وفعل بك ما فعل، الإمام أحمد بقي يتألم من مفاصل يديه إلى أن مات بسبب ما فعل به، ولمّا مات الخليفة أحلّه، فقليل له في ذلك، فقال كلمة عجيبة؛ قال: (وما ينفعك أن يعذب الله أخاك المسلم بسببك؟)، انظروا القلوب، هؤلاء قوم زكت قلوبهم، يقول في هذا الذي عذبه وضربه وفعل به؛ يقول: (وما ينفعك أن يعذب الله أخاك المسلم بسببك)؟!!

شيخ الإسلام ابن تيمية الذي نقرأ الآن في كتابه ابتلي في دين الله، لأنه كان يُظهر السنة، ويقول بما دلّ عليه الدليل، اجتمع عليه بعض العلماء، وقضى عليه أحد القضاة المالكية بالسّجن في القلعة، فسُجن في القلعة، فشاء الله أن يتغيّر أمرُ الحاكم؛ فأخرج شيخ الإسلام ابن تيمية، واستشاره في القاضي الذي حَكَمَ عليه أن يحبسَه؟ قال: (فأشرتُ بعدم حبسه، ونصحتُ بتثييته في مقامه)، لأنه هو من حيث العلم بالقضاء والمذهب الذي يحكم به هو عالم، فشيخ الإسلام يُخرج من سجنه ويُستشار في القاضي، الذي قضى عليه بالسجن، وهو يعلم أنه حكم عليه ظلمًا، فيستشيره في أن يُسجن؟ فيُشير بعدم سجنه، بل ويقول: (وشفعتُ في أن يُثبَّت في مقامه)، وهذه أخلاق سلفنا التي ينبغي أن نتعلّم منها.

اليوم الواحد من طلاب العلم يخطئ عليه أخوه خطأ فيقيم عليه الدنيا! فينبغي علينا أن ننظر في منزلتنا من حُسن الخلق، أين نحن من حُسن الخلق؟ ليس حُسن الخلق كلمة تقال، وإنما حُسن الخلق أفعال يتبيّن بها الفضلاء، سواء من الرجال أو النساء، وكما قدّمتُ في أوّل كلامي، أن حُسن الخلق يُختبر به الناس، فاخبر نفسك بحُسن الخلق، ما هي مواقفك في حُسن الخلق؟ وعالج نفسك.

يقول بعض الناس: إنه لا يستطيع أن يكون حَسَنَ الأخلاق لأنّ طبيعته كذا! وهذا خطأ، فإنّ حُسن الخلق قد يكون جبلةً، كما في أشجّ عبد القيس^(١)؛ فإنّ الحِلْم والأناة جبلةٌ جبلة الله عليها ومُدَح عليها.

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» كتاب: الإيمان، رقم: (١٧).

وقد يُكْتَسَب؛ «إنما الحلم بالتحلم»^(١)، فالإنسان يستطيع اكتساب هذا. ولو لم يكن حُسن الخلق يُكْتَسَب لما رُتِّبَ عليه هذا الأجر العظيم، فهذا دليلٌ على أنه يُكْتَسَب، ولكن الإنسان بحاجة إلى أن يُجاهد نفسه في هذا الباب.

من الأشياء التي مرّت بي في سيرة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله؛ أنه كان له عدوّ من أهل العلم - ينتسب إلى أهل العلم - يعاديه ويؤذيه ويتكلّم فيه، ففي يوم كان جالساً مع أصحابه، فجاءه أحد طلابه فقال: مات فلان! يظن أنه يُبشّر، وأنه يفرح بهذا، فقال: (لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم اغفر له)، ثم قام من فوره وذهب إلى أهله وعزّاهم فيه، وقال لهم: (أنا لكم مكانه)؛ يعني: أقوم بحاجتكم وأعينكم، وهذه أخلاق العلماء، وأخلاق الفضلاء، فما أجمل أن يكون الإنسان حَسَنَ الخلق مع الناس.

قال شيخ الإسلام رحمته الله: (وأما الخلق العظيم الذي وصف الله به محمداً صلّى الله عليه وآله، فهو الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقاً، هكذا قال مجاهد وغيره، وهو تأويل القرآن؛ كما قالت عائشة رضي الله عنها: (كان خُلُقُه القرآن)^(٢)، وحقيقته: المبادرة إلى امتثال ما يحبه الله تعالى بطيب نفسٍ وانسراح صدر).

قوله رحمته الله: (وأما الخلق العظيم الذي وصف الله به محمداً صلّى الله عليه وآله) في قوله وعجل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. قال الخلق العظيم: (الدين الجامع لجميع ما أمر الله به مطلقاً).

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخه» (٤٤٢/٦) ترجمة: (٢٩٤٤)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٣٤٢).

(٢) سيأتي تخريجه في الصفحة التالية.



شرح الوصية الصغرى

الخلق العظيم: أن توحد الله ﷻ وتقوم بحقه؛ بأن تعبدَه - سبحانه - بفعل الأوامر واجتناب النواهي.

قال الطبري: (معنى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾: أي: على أدب عظيم؛ وذلك أدب القرآن الذي أدبه الله به؛ وهو الإسلام وشرائعه)، ونقل عن ابن عباس ومجاهد وقتادة: أن الخلق العظيم: (الدين العظيم)، ولذلك قال ابن القيم رحمته الله: (الدين كله خُلُقٌ)، وهذا معنى الخلق بالمعنى العام، الخلق بالمعنى العام: هو كل ما جاء في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

قوله رحمته الله: (وهو تأويل القرآن كما قالت عائشة رضي عنها): يعني هو العمل بالقرآن؛ لأن تأويل القرآن يُطلق ويراد به العمل بالقرآن، كما قالت عائشة رضي عنها في النبي صلوات الله وسلاماته عليه: (كان يتأول القرآن)^(١)؛ أي يعمل بما أمر به من تسبيح ربه سبحانه وتعالى.

وقد سأل سعد بن هشام أمنا عائشة رضي عنها قال: (يا أم المؤمنين، أنبئني عن خلق رسول الله ﷺ)، قالت: أَلَسْتَ تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: فإن خلق نبي الله صلوات الله وسلاماته عليه كان القرآن)، رواه مسلم في «الصحيح»^(٢).

فخلق النبي صلوات الله وسلاماته عليه هو القرآن، وهذا معنى الخلق بمعناه العام، الذي يشمل كل ما جاء في الكتاب والسنة.

وبهذا نكون قد انتهينا من شرح كون حديث معاذ رضي عنه وصية جامعة .

ثم سيبدأ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله في بيان كون حديث معاذ تفسيرًا لوصية الله سبحانه وتعالى.

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الآذان، باب: التسبيح والدعاء في السجود، رقم: (٨١٧)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: الصلاة، رقم: (٤٨٤).

(٢) «صحيح مسلم» كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، رقم: (٧٤٦).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ : (وَأَمَّا بَيَانُ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ فِي وَصِيَّةِ اللهِ؛ فَهُوَ أَنَّ اسْمَ تَقْوَى اللهِ يَجْمَعُ فِعْلَ كُلِّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ إِجْبَابًا وَاسْتِحْبَابًا، وَمَا نَهَى عَنْهُ تَحْرِيمًا وَتَنْزِيهًا، وَهَذَا يَجْمَعُ حَقُوقَ اللهِ وَحَقُوقَ الْعِبَادِ).

تَقَدَّمَ مَعْنَى أَنَّ وَصِيَّةَ اللهِ لِلأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ - لِكُلِّ مَنْ أُوتِيَ كِتَابًا - هِيَ وَصِيَّتُهُ ﷺ بِتَقْوَاهُ ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، وَلِذَلِكَ ذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّ الْوَصِيَّةَ بِتَقْوَى اللهِ، مِمَّا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ الرُّسُلُ.

فَهَذَا يَرِيدُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ وَصِيَّةَ الرَّسُولِ ﷺ لِمَعَازِ فَسَّرَتْ وَصِيَّةَ رَبِّنَا ﷻ لَنَا بِتَقْوَاهُ؛ فَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ : (أَمَّا بَيَانُ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ فِي وَصِيَّةِ اللهِ)؛ أَيُّ: أَنَّهُ تَفْسِيرُ لَوْصِيَّةِ اللهِ.

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللهُ : (فَهُوَ أَنَّ اسْمَ تَقْوَى اللهِ يَجْمَعُ فِعْلَ كُلِّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ إِجْبَابًا وَاسْتِحْبَابًا، وَمَا نَهَى عَنْهُ تَحْرِيمًا وَتَنْزِيهًا)، هَذَا حَقِيقَةُ التَّقْوَى، الْمُؤْمِنُ إِذَا سَمِعَ شَأْنَ الْوَصِيَّةِ بِالتَّقْوَى، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ وَصَّى بِهَا الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَأَنَّهَا وَصِيَّةُ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَأَنَّهَا وَصِيَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَمَّا قَالَ لَهُ الصَّحَابَةُ: كَأَنَّهُا مَوْعِظَةٌ مُودَّعٌ فَأَوْصِنَا، قَالَ: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ»^(١)، وَعَلِمَ أَنَّ هَذِهِ التَّقْوَى الَّتِي هِيَ قَلِيلَةُ الْمَبْنَى، عَظِيمَةُ الْمَعْنَى حَوَّتْ تَحْتَ رَايَتِهَا كُلَّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَمَا مِنْ خَيْرٍ لِلْإِنْسَانِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا وَسَبَبُهُ تَقْوَى اللَّهِ ﷻ، فَإِذَا عَلِمَ الْمُؤْمِنُ هَذَا وَتَفَكَّرَ وَتَدَبَّرَ فِي ثَمَارِ التَّقْوَى، وَاشْتَقَّ قَلْبُهُ إِلَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ؛ فَإِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ حَقِيقَةَ التَّقْوَى.

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «السُّنَنِ» كِتَابُ: السُّنَّةِ، بَابُ: فِي لُزُومِ السُّنَّةِ، رَقْمُ: (٤٦٠٧)، وَالتِّرْمِذِيُّ فِي «الْجَامِعِ» أَبْوَابُ: الْعِلْمِ، بَابُ: مَا جَاءَ فِي الْأَخْذِ بِالسُّنَّةِ وَاجْتِنَابِ الْبِدْعِ، رَقْمُ: (٢٦٧٦)، وَابْنُ مَاجَةَ فِي «السُّنَنِ» كِتَابُ: الْإِيمَانِ وَفُضَائِلِ الصَّحَابَةِ ﷺ، وَالْعِلْمِ، بَابُ: اتِّبَاعِ سُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، رَقْمُ: (٤٢)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «السَّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ» رَقْمُ: (٢٧٣٦).



شرح الوصية الصغرى

وحقيقة التقوى - كما قال العلماء - : (هي أن تعمل بطاعة الله على نور من الله؛ ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله).

قولهم: (أن تعمل بطاعة الله): بالأوامر، (على نور من الله): بالدليل، ليس بالبدع المحدثات؛ وإنما بما دلّ عليه الدليل، فأنت وقَّافٌ عند (قال الله، قال رسوله ﷺ)، مُسَلِّمٌ نفسك لما ورد في الكتاب والسنة، (ترجو ثواب الله) هذا الإخلاص؛ أن يكون قصدك من فعل الأوامر أن تُرضي الله ﷻ فتحصل على ثوابه.

(وأن تترك معصية الله): فتجتنب ما نهى الله عنه، أيضاً (على نور من الله)؛ على وفق الدليل، ليس من باب التنطع، ولا من باب التشدد، ولا من باب تحريم ما أحلَّ الله؛ وإنما على وفق الدليل؛ (تخاف عقاب الله): وهذا الإخلاص؛ فأنت عندما تترك ما نهى الله عنه فإنما تتركه لأنك تريد أن يرضى الله عنك بترك المنهيات، فأنت تخاف عقاب الله إن فعلت ما نهى الله عنه، ونعني بما نهى الله عنه هنا: المحرمات، وأما المكروهات، فقد تقدّم معنا أنّ من تركها يفوته الثواب، أمّا من فعلها فإنه لا يستحق بذلك العقاب، هذه حقيقة التقوى.

وقد قال بعض أهل العلم: (إن حقيقة التقوى: أن تعيش في الدنيا كأعمى يحتاج إلى قائد، وسائر في أرض شوكة): فلا تتحرك إلا بأمر الله، تفعل إذا أمرت بالفعل، وتترك إذا أمرت بالترك، وإذا أيسح لك الأمر فعلت أحد الأمرين بالفعل أو الترك، فتكون كالأعمى يُقاد به (قال الله، قال رسوله ﷺ)، ويكون بصرك ما ورد في كتاب الله وفي سنة النبي ﷺ.

وأن تعيش في الدنيا كالذي يمشي في أرض ذات شوكة؛ لا يغفل أبداً، نظره دائماً في موطئ قدمه، يخاف أن يؤذيه الشوك، وكذلك أنت في الدنيا: في زمن فتنة في زمن الابتلاء؛ فينبغي أن تسير كمن يسير في أرض الشوك.

كما قال القائل: خلّ الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقى
واصنع كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

إياك - يا عبد الله - أن تقول: هذا ذنب صغير «إياكم ومحقرات الذنوب»^(١)،
لماذا؟ لأن محقرات الذنوب الصغيرة، التي يراها الإنسان صغيرة ويحتقرها؛
يتساهل فيجمع الذنب على الذنب، حتى يرين على قلبه.

إذا كنت تريد أن تكون متقيًا حق التقوى، فاترك الذنوب صغيرها وكبيرها،
لماذا؟ لأنك لا تنظر إلى الذنب، ولكنك تنظر إلى من تعصي، وتعلم أنه يراك
ويسمعك وهذه حقيقة التقوى .

وإذا نظرنا وجدنا أنها مفسرة في حديث معاذ؛ «اتق الله حيثما كنت»؛ يعني:
افعل الأوامر، واجتنب النواهي، «وأتبع السيئة الحسنة تمحها» إذا حصل منك زل
فأمحها بالحسنة، «وخالق الناس بخلق حسن» وهذا مما شرعه الله، فإن الله شرع لنا
أن نخالق الناس بالأخلاق الحسنة - كما تقدم معنا-، فهذه حقيقة التقوى.

ولذلك قال شيخ الإسلام: (وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد): هنا
كأن سائلاً سأل شيخ الإسلام وقال: ما دمت تقول: إن حقوق العباد وحقوق
الخلق موجودة في تقوى الله، فلماذا قال النبي ﷺ: «اتق الله حيثما كنت»،
وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن^(٢)؟ لِمَ لَمْ يقتصر
النبي ﷺ على قوله: «اتق الله حيثما كنت»؟ النبي ﷺ قد أوتي جوامع الكلم،
فلماذا لَمْ يقتصر النبي ﷺ على قوله: «اتق الله حيثما كنت»؟ فأجاب بما تقدم.

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٤٦٦/٣٧) رقم: (٢٢٨٠٨)، وصححه الألباني في
«السلسلة الصحيحة» رقم: (٣١٠٢).

(٢) تقدم تخريجه .



شَرْحُ الْوَصِيَّةِ الصُّغْرَى

قال شيخ الإسلام **رَحِمَهُ اللهُ**: (لكن لما كان تارة يعني بالتقوى: خشية العذاب المقتضية للانكفاف عن المحارم؛ جاء مفسراً في حديث معاذ وكذلك في حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا** الذي رواه الترمذي وصححه، قيل: يا رسول الله؛ ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: «تقوى الله، وحسن الخلق»، قيل: وما أكثر ما يدخل الناس النار؟ قال: «الأجوفان: الفم والفرج»^(١)).

التقوى إذا ذُكرت مفردة، فهي تعني الدين كله، إذا أُمِرنا بالتقوى بمفردها، فهي تعني: الدين كله، وإذا ذُكرت مع غيرها من الأوامر، فهي تدلّ على الدين، ويكون ذِكْرُ غيرها من باب بيان الشرف والأهمية، وإفراد الشيء عن نوعه دليل على شرفه، كما قال الله **وَعَجَلْ**: ﴿نَزَّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]، الروح جبريل **عليه السلام** من الملائكة، لكن أُفرد للتنويه بشرفه، وتارة تُذكر ويكون معها المنهيات، أو يكون معها الأوامر؛ فيكون المقصود بالتقوى: اتقاء عذاب الله؛ فكأنّ المعنى: اتقوا عذاب الله فافعلوا هذا المذكور.

فيقول هنا **رَحِمَهُ اللهُ**: (لكن لما كان تارة يعني): يعني ربنا (بالتقوى خشية العذاب المقتضية الانكفاف عن المحارم؛ جاء مفسراً في حديث معاذ)، فجاء الأمر بفعل الأوامر واجتناب النواهي، وإصلاح الفاسد، ومخالقة الناس بخلق حسن؛ لدفع التوهم.

قوله **رَحِمَهُ اللهُ**: (وكذلك في حديث أبي هريرة **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ** الذي رواه الترمذي وصححه، قيل: يا رسول الله، ما أكثر ما يدخل الناس الجنة؟) وما أعظمه من سؤال! كلُّ مؤمنٍ يريد أن يدخل الجنة؛ فينبغي أن يسلك مسالكها، قال: «تقوى الله وحُسن

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» أبواب: البر والصلة، باب: ما جاء في حسن الخلق، رقم: (٢٠٠٤)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٩٧٧).

«الخلق» فذكر تقوى الله وحُسن الخلق، فهذا إمَّا أن يكون ذُكر حُسن الخلق من باب ذكر بعض أفراد العام، فتقوى الله منها حُسن الخلق، فيكون هذا للتنبيه على عَظَم شأن حُسن الخلق، وإمَّا أن يكون معنى تقوى الله: أن يتقي العبد عذاب الله بفعل ما أُمِرَ به ومنه حُسن الخلق.

«قيل: وما أكثر ما يُدخل الناس النار؟ قال: «الأجوفان: الفم، والفرج» قال الترمذي: صحيح غريب، وقال المنذري: إسناده صحيح أو حسن، وحسنه إمام العصر في الحديث: الإمام الألباني، رحم الله الجميع.

ولخطورة الفم والفرج قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ؛ أَضْمَنَ لَهُ الْجَنَّةَ»^(١).

«من يضمن لي ما بين لحييه»: وهو اللسان، «وما بين رجليه؛ أضمن له الجنة».

الشهوات من أعظم أسباب فتنة الإنسان في الدنيا إن لم يُهذَّبها، الله خَلَقَ فينا الشهوة، فالشهوة مركَّبة فينا، ولم يُحرِّم علينا أن نصرف الشهوة؛ ولكن حرَّم علينا الاعتداء فيها، فهذَّب لنا شهواتنا، فجعل لنا طريقاً كريماً فيها؛ وهو النكاح أو مُلْك اليمين إن وُجِدَ على الوجه الشرعي، فالذي يُهذَّب شهوته يعيش مباركاً، والذي يعتدي في شهوته يعيش مفتوناً، وأعظم الشهوة خطراً على الرجل والمرأة معاً: شهوة اللسان، وشهوة الفرج.

أمَّا شهوة اللسان فهي أخطر فتنة على الرجل والمرأة لسهولةها؛ سهل أن الإنسان يُلغ بلسانه في المحرمات؛ يكذب، يغتاب، ينم، فهي سهلة خفيفة؛ ولذلك فهي خطيرة، لا تحتاج إلى مؤونة.

وأخطر ما يكون على الرجل والمرأة شهوة الفرج من جهة عظم أثرها.

(١) أخرج البخاري في «الصحيح» كتاب: الرقاق، باب: حفظ اللسان، رقم: (٦٤٧٤).



شَرْحُ الْوَصِيَّةِ الصُّغْرَى

وقد قال بعض العلماء حكمة: (لا يزال الإنسان يستحي من الله حتى يزني - والعياذ بالله -) يعني مهما وقع منه من المعاصي لا يزال فيه شيء من الحياء؛ يستحي من الله، حتى يزني، فإذا زنى انكسر الحياء في قلبه، فيتسارع إلى بقية الشهوات.

وهذا سرُّ جَمْعِ حَبِينَا ﷺ بين الأمرين: شهوة الفم وشهوة الفرج؛ لخطورتهما من هاتين الجهتين، فكلُّ واحدةٍ منهما أخطر من جهة، فالفم أخطر من جهة السهولة، والفرج أخطر من جهة الأثر وما يترتب على ذلك.

ولذلك قال النبي ﷺ: «وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ!» كما رواه الترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح^(١).

فاللسان لحفّته ولسهولة الوقوع في المعصية به؛ يكون سبباً في كبّ كثير من الناس في النار على وجوههم؛ لأنهم قد يتساهلون في هذا.

ولذلك يقول أهل العلم: (كلُّ معصية يتخبّأ بها الإنسان في الغالب، إلا معاصي اللسان فإنها تكون أمام الناس)، يعني المعاصي في الغالب الإنسان يختبئ بها إلا معاصي اللسان، فلا بد أن تكون مع أحد، يأتي يغتاب ويكذب ما يهمه، ربما يأتي مجلساً فيه فضلاء، ويكذب مئات الكذبات أمام الفضلاء! ولذلك هو خطير على الإنسان.

ومراد شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ أَنْ يَقُولَ: إِنَّمَا وَرَدَ فِي حَدِيثٍ مُعَاذٍ، إِنَّمَا هُوَ تَفْصِيلٌ لِلْفَائِدَةِ؛ كَمَا فَصَّلَ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ.

(١) «الجامع» للترمذي، أبواب: الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة، رقم: (٢٦٢٦)، و«السنن» لابن ماجه، أبواب: الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة، رقم: (٣٩٧٣)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٣٢٨٤).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (وفي الصحيح عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» فجعل كمال الإيمان في كمال حسن الخلق، ومعلوم أن الإيمان كله تقوى الله).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وفي الصحيح): هنا أنه على فائدة لطلاب العلم، الصحيح في لسان العلماء إما أن يراد به ما في الصحيحين؛ البخاري ومسلم، أو في أحدهما، أو يراد به الحديث الصحيح، وليس خاصاً بالكتابين، أنه على هذا لأن بعض طلاب العلم لا يتنبه لهذا فيحمل مصطلح المتقدمين على مصطلحنا اليوم، فبعض المحققين اليوم مثلاً يأتي يحقق كتاباً فيجد أن الشيخ قال: (وفي الصحيح) فيقول: لم أجده في الصحيح؛ يظن أن المقصود «صحيح البخاري» أو «صحيح مسلم»، أو يقول: وهم الشيخ هنا فالحديث ليس في الصحيح، أو يحاول أن يأتي بحديث آخر غير الذي ذكره الشيخ من الصحيح لعله قريب منه، وهذا خطأ في فهم مراد العلماء.

شيخ الإسلام هنا عندما يقول: (وفي الصحيح) يعني في الحديث الصحيح، ولا يعني البخاري ومسلماً.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وفي الصحيح عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»)، الحديث رواه الحاكم وصححه، وأبو داود وسكت عنه، والترمذي وقال: حسن صحيح، وصححه شيخ الإسلام ابن تيمية هنا، وصححه الألباني^(١)، فالحديث صحيح.

(١) «السنن» لأبي داود، كتاب: السنة، باب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم: (٤٦٨٢)، و«الجامع» للترمذي، أبواب: الرضاع، باب: ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم: (١١٦٢)، و«المستدرک» للحاكم (٣/١)، وانظر «السلسلة الصحيحة» رقم: (٢٨٤).



شَرْحُ الْوَصِيَّةِ الصَّغِيرَى

قال فيه النبي ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا»؛ وهذا يدل على أنَّ الأعمال من الإيمان، سواء كانت قولية أم فعلية، فإنَّ حُسن الخلق من الإيمان؛ وقد يكون قولًا وقد يكون فعلًا.

ويدل كذلك على أنَّ الإيمان يزيد وينقص؛ لأنَّ الذي يكمل ينقص، والنبي ﷺ قال «أكمل المؤمنين إيمانًا».

وهذا يردُّ على طائفتين؛ كلاهما تزعم أنَّ الإيمان واحدٌ لا يتجزأ:

طائفة تقول: الإيمان واحد، إن ذهب بعضه ذهب كله، فإذا كذب الإنسان أو زنى خرج من الإيمان عندهم.

وطائفة قابلتهم فقالت: الإيمان واحد إن ثبت بعضه ثبت كله؛ وهؤلاء المرجئة، الذين يرون أنَّ المؤمنين سواسية في الإيمان، ويؤخِّرون العمل عن الإيمان، ثم هم أصناف: صنف لا يرى ارتباط العمل بالإيمان؛ وهؤلاء غلاة المرجئة.

وصنف يرى أنَّ العمل مطلوب في الإيمان، وليس من الإيمان، (مطلوب في الإيمان) يعني بسبب الإيمان، وليس من الإيمان؛ وهذا صنيع مرجئة الفقهاء.

والذي عليه أهل السنة والجماعة ودلَّت عليه الأدلَّة، ومنه هذا الحديث: أنَّ العمل من الإيمان، وأنَّ الإيمان يزيد وينقص، وأنَّ من ادَّعى الإيمان، ولم يأتِ بعمل مع العلم والقدرة لا يكون مؤمنًا حقيقة في الشرع وعند أهل السنة والجماعة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (فجعل كمال الإيمان في كمال حسن الخلق) يريد أنَّ التقوى جامعة للدين؛ ويشمل ذلك حسن الخلق والتوبة، وهذا الذي ورد في حديث معاذ، وكله داخل في وصية ربنا لنا بتقواه ﷻ.

قال شيخ الإسلام رحمته الله : (وتفصيل أصول التقوى و فروعها لا يحتمله هذا الموضوع، فإنها الدين كله، لكن ينبوع الخير وأصله: إخلاص العبد لربه عبادة واستعانة؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، [الفاتحة: ٥] وفي قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، [هود: ١٢٣]، وفي قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، [هود: ٨٨]، وفي قوله: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ؛ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

لسخاء ابن تيمية رحمته الله في العلم زاد بياناً في هذا الكلام؛ قال رحمته الله : (وتفصيل أصول التقوى و فروعها لا يحتمله هذا الموضوع، فإنها الدين كله) ولا يمكن أن يُبين الدين كله في هذا الموضوع، (لكن ينبوع الخير وأصله: إخلاص العبد لربه) فرأس التقوى هو توحيد الله سبحانه وإخلاصه بالعبادة والاستعانة والتوكل.

والتوحيد هو أن تُخلص لله عجل أفعالك فتجعلها لله سبحانه، فأعلى وأحلى وأجلى ما عند المسلم توحيد رب العالمين، وأعلى ما افترضه الله على العبيد التوحيد، والتوحيد مفتاح الخير، ومن طلب الخير بغير مفتاح لم يُفتح له، لا يفتح إلا للموحد، مفتاح الخير هو توحيد رب العالمين، التوحيد سابق الأعمال، وشرط قبولها، وهو أهم المهمات، وأعلى الفرائض المتحتمات، ولا أمن حقيقي للإنسان إلا بالتوحيد ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أي لم يخلطوا إيمانهم بشرك، لأن الشرك ظلم عظيم، ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ حُصِرَ الأمن فيهم ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

التوحيد - يا عبد الله - هو الذي خلقت من أجله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، [الذاريات: ٥٦] التوحيد - يا عبد الله - هو الذي بُعثت من أجله الرسل ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ومن علق قلبه بالله اطمأن، وعاش سعيداً مباركاً.



شرح الوصية الصغرى

ومن علّق قلبه بغير الله فُتِنَ، وعاش في ذلّة، والله الذي لا إله إلا هو ما فرّط عبد في شيءٍ من التوحيد إلا فرّط في شيءٍ من عزّته، وكلما أوغل كلّما ذلّ أكثر.

وقد رأينا بعض من ينتسبون إلى الإسلام في بعض بلدان المسلمين يُدُلُّون أنفسهم لعبادهم دونهم حتى في الصلاح؛ يزعم أنهم أولياء الله، وولاية الله أصبحت وراثته؛ فتجدهم يقولون: هذا الشيخ ابن الشيخ ابن الشيخ، ولو لم يظهر عليه من الصلاح شيء.

والله رأينا بعض المسلمين يأتي لإنسان، - أقلّ ما يقال: إنه ينبغي أن يُنصَح ليتدبّن -، فإذا دخل الغرفة على من يزعم أنه الشيخ أخذ يحبو بيديه ورجليه حتى يصل إليه، ولا يُغطي رأسه أمامه أبداً، رأينا رجالاً ونساءً إذا مرّوا بشخص يقولون عنه: إنه شيخ؛ يتساقطون على الأرض.

أذكرُ عندما كنتُ في الثانوي وكان أبي **رحمّه الله** يبيع بجوار المسجد، في أيام الحج وأنا جالس، مرّت امرأة من دولة ما فمرّ الرجل، فبركتُ على رجليها، سقطتُ بقوة على الأرض، فتعجبتُ! قلت: سبحان الله! ما السبب؟! فلمّا زرنا البلدان عرفنا السبب؛ هذا شيخ مرّ تركع له، وتبرّك.

والله من أعجب ما رأيت - ولا زلت إلى اليوم أتعجب منه -، رأيتُ رجلاً في غرفة يقولون: إنه ولي، ورأيتُ الرجال قد أحضروا نساءهم متجمعات متعطرات، ويقفون بالطوابير، تدخل المرأة فقط عند الشيخ يُبرّكها، الله أعلم ما هذا التبريك!

الإنسان إذا فرّط في التوحيد يُفرّط في عزّته، ويُفرّط في كرامته، ويذلّ للناس.

ذَكَرَ لِي أَنَّ شَخْصًا فرنسيًّا كان من المشاهير، قرأ عن الإسلام وأسلم، وذهب إلى بعض دول أفريقيا، فوجد الناس هناك يعبدون المشايخ، ويتقربون لهم من دون الله، فقال: إِنَّ النصرانية أحسن من هذا؛ لأننا هناك على الأقل نعبد رسولاً، وهؤلاء يعبدون أناساً حتى أن بعضهم لا يستحقون الاحترام! فأراد أن يرتد عن الإسلام، فلقيه رجل ناصح، فقال له: تريد الإسلام؟ قال: نعم، قال: اذهب إلى الحج، وبعد الحج قرّر، فجاء إلى الحج، وسبحان الله! من الأشياء المملوطة أَنَّ الناس في الحج تلين قلوبهم ويظهر عليهم التوحيد، حتى من كان عندهم انحراف في كثير من الأحوال يظهر عليهم التوحيد، إلا من طمس على قلبه - والعياذ بالله -، فلمّا جاء ورأى الناس تلبي وتوحّد ورأى العبادة، ورأى العزّة، قال: هذا الإسلام الذي قرأت عنه، وثبّتهُ الله بنصيحة ذاك الناصح بفضل الله ﷻ.

ولذلك أغلى ما نتمسك به التوحيد، وأعلى ما ندعو إليه التوحيد، لا أجد في ديننا أوضح من التوحيد، لكنك تعجب أيّما عجب من بعض عباد الله الذين يحبّون الله، ويحبّون رسول الله ﷺ ويتّرون قول الله، وقول رسول الله ﷺ إلى قول المشايخ!

إذا جئت لأحدهم قلت: يا أخي، لِمَ تفعل كذا؟ وربنا يقول كذا، والرسول ﷺ يقول كذا! قال: الشيخ يقول، سبحان الله! نترك أوضح ما قاله الله، وأوضح ما قاله رسول الله ﷺ لقول أحدٍ من الناس؟!

الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ ورَضِيَ عنه ورَضِيَ عن أئمة الإسلام يقول: (أجمع الناس على أَنَّ من استبانَتْ له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحدٍ من الناس كائناً من كان)؛ فكيف والبيان في كتاب الله، وفي سنة رسول الله ﷺ من أوضح ما يكون؟!



شَرْحُ الْوَصِيَّةِ الصُّغْرَى

مرة؛ لَقِيتُ شَخْصًا فِي بَلَدٍ مِنْ بِلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ لِلْأَسَفِ يَخْطُبُ الْجُمُعَةَ، وَأَحَادِيثُهُ الَّتِي يَتَكَلَّمُ فِيهَا فِي الْجُمُعَةِ دَعْوَةً لِلشَّرْكِ، وَيَسْتَدِلُّ بِأَحَادِيثٍ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَخِي هَذَا الْكَلَامُ الَّذِي تَقُولُهُ يَنَاقِضُ قَوْلَ اللَّهِ كَذَا، وَيَنَاقِضُ قَوْلَ الرَّسُولِ ﷺ كَذَا، قَالَ: سَمِعْتُ الْحَدِيثَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ؟ قُلْتُ: هَذَا الْحَدِيثُ مُوَضَّوعٌ بِاتِّفَاقِ الْمُحَدِّثِينَ، قَالَ: وَلَوْ؛ يَصْلَحُ لَتَرْقِيقِ قُلُوبِ النَّاسِ، قُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ! تَصْرِفُ النَّاسَ عَنِ التَّوْحِيدِ إِلَى الشَّرْكِ بِحَدِيثٍ مُوَضَّوعٍ وَتَقُولُ: وَلَوْ؛ يَرْقِّقُ قُلُوبَ النَّاسِ؟!

لِذَلِكَ أَعْلَى مَا يَنْبَغِي أَنْ نَهْتَمَّ بِهِ إِصْلَاحُ التَّوْحِيدِ، وَاللَّهُ مَا عَاشَ شَخْصٌ مَرَّتَاحَ الْقَلْبِ مُطْمَئِنِّ الْقَلْبِ سَعِيدَ الْحَالِ مُرْضِيًّا لِلرَّبِّ ﷻ إِلَّا بِتَحْقِيقِ تَوْحِيدِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَلِذَلِكَ يَقُولُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (لَكِنْ يَنْبُوعُ الْخَيْرِ وَأَصْلُهُ: إِخْلَاصُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ؛ عِبَادَةٌ وَاسْتِعَانَةٌ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، [الفاتحة: ٥]) يَقُولُ الْعُلَمَاءُ: (هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ دَلَالَةً بَيِّنَةً عَلَى حَصْرِ الْعِبَادَةِ فِي اللَّهِ ﷻ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾).

وُثِّمَتْ سَوَالُ هُنَا، لَمَّا ذَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مَعَ أَنَّ الْإِسْتِعَانَةَ مِنَ الْعِبَادَةِ؟ قَالَ الْعُلَمَاءُ: لِأَنَّ أَكْثَرَ خَلَلِ النَّاسِ فِي التَّوْحِيدِ يَقَعُ فِي بَابِ الْإِسْتِعَانَةِ وَالْإِسْتِغَاثَةِ؛ فَذَكَرَ هَذَا مِنْ بَابِ التَّنْبِيهِ؛ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

يَقُولُ الْعُلَمَاءُ: إِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ حَرِيصًا عَلَى التَّوْحِيدِ فِي بَابِ الْإِسْتِعَانَةِ وَالِدَعَاءِ سَيَكُونُ حَرِيصًا عَلَى التَّوْحِيدِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ، لِأَنَّ أَعْظَمَ مَا يُفْتَنُ فِيهِ النَّاسُ فِي بَابِ التَّوْحِيدِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْإِسْتِعَانَةِ؛ وَالِدَعَاءِ، فَيَنْحَرِفُ بَعْضُ النَّاسِ فِي بَابِ الْإِسْتِعَانَةِ فَيَسْتَعِينُ بِمَنْ يَقَالُ إِنَّهُمْ أَوْلِيَاءُ، يَسْتَعِينُ بِالْجَنِّ، يَسْتَعِينُ بِالْكَهْنَةِ، يَسْتَعِينُ بِالْعَرَّافِينَ، وَكَذَا فِي بَابِ الدُّعَاءِ، وَلِذَا كَانَ هَذَا التَّنْبِيهِ.

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (وفي قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]) هنا ذكر أهل العلم مَلَمَحًا عظيمًا؛ قالوا: (إنَّ تحقيق التوحيد إنما يحصل بتعلُّق القلب بالله)، فإذا علّق الإنسان قلبه بالله يحقق التوحيد، والتوكل فيه تعلُّق القلب بالله، حتى إذا فعل العبد السبب فإنه يعلّق قلبه بالله ويتوكل على الله؛ ولذلك قال الله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾.

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (وفي قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨])، قال العلماء: (من علّق قلبه بالله رَجَعَ إلى الله)، فأساس الخير أن يُعلّق العبد قلبه بربه.

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (وفي قوله: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ [العنكبوت: ١٧])، كثير من الناس قد يطلب الرزق من غير الله، يسأل الصالحين الرزق، وبعض الناس يأتي عند قبر النبي ﷺ ويسأل النبي ﷺ الرزق ويشرك بالله، والعياذ بالله!

من أعجب ما رأيت في بلد من بلدان المسلمين، رأيت أناسًا يصلُّون ويحرصون على الصلاة، وقد امتلأ المسجد عندما صلينا، ولكن وجدنا في بيوت كثيرين منهم صنمًا من حجر يميل إلى الزرقة؛ بزعمهم أنه يسبب كثرة الرزق، ويتقرَّبون إليه مع أنهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله!

وقصدي من هذا أن أنبه إلى أن أفراد بعض الأشياء بالذكر إنما هو لبيان وجوب التوحيد فيها لأنها مَظَنَّة الخلل الكثير.

قال شيخ الإسلام **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (بحيث يقطع العبد تعلُّق قلبه من المخلوقين؛ انتفاعًا بهم أو عملًا لأجلهم، ويجعل همَّته ربه تعالى، وذلك بملازمة الدعاء له في كل مطلوب من فاقة وحاجة ومخافة وغير ذلك، والعمل له بكل محبوب)، وسيأتي - إن شاء الله - التعليق على موضوع الدعاء في مسألة أفضل الاعمال.



وهذا هو عين ما ورد في وصية النبي ﷺ لابن عباس رضى الله عنهما عندما قال: «يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وصحح جمع من أهل العلم إسناده^(١).

النبي ﷺ يقول: «يا غلام، إني أعلمك كلمات»؛ أي: نافعات «احفظ الله يحفظك»: قال العلماء: حفظ الله يكون بحفظ دينه، احفظ دين الله يحفظك الله ﷻ.

«احفظ الله تجده تجاهك»: احفظ الله في الرخاء والشدة تجده تجاهك، ولذلك ورد أن من يُرد أن يستجيب الله له في الشدائد، فليكثر الدعاء في الرخاء، وقد ذكر بعض السلف شيئاً عظيماً في هذا الباب، وسأذكره - إن شاء الله - عندما نأتي نتكلم عن الدعاء، ونذكر آداب الدعاء.

«إذا سألت فاسأل الله»: وهذا قصر «وإذا استعنت فاستعن بالله»؛ لماذا؟ «واعلم أن الأمة» كلها، ليس رجلاً واحداً ليس صالحاً واحداً بل الأمة بأكملها وصالحها وبكل أفرادها «لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء» - «بشيء» وهذا يقتضي التقليل - «لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك»، ولو اجتمعت الأمة على أن يضروك بشيء «لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»؛ إذا أيقنت بهذا كيف تعلق قلبك بغير الله؟! الله إن أراد أن يمسك بضر لن يكشفه أحد من دونه، وإن

(١) الجامع للترمذي، أبواب: صفة القيامة والرفائق والورع، رقم: (٢٥١٦)، وصححه الألباني في «ظلال الجنة في تخريج أحاديث السنة» رقم: (٣١٥).

غير الله سُبحَ اللّٰه وَتَعَالٰى!؟!

الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (وَمَنْ أَحْكَمَ هَذَا فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُوصَفَ مَا يَعْقِبُهُ ذَلِكَ).

وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً ﴿٩٧﴾ [النحل: ٩٧].

همّه، جمع الله عليه أمره ، وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة»^(١).

الدنيا؛ إذا لم يطمئن قلبه لن يكون في سعادة.

الصحيحة» رقم : (٩٤٩).



شَرْحُ الوَصِيَّةِ الصُّغْرَى

«وجعل فقره بين عينيه» قال العلماء: فيُعَذَّبُ بغناه؛ لأنَّ الفقير بين العينين - نعوذ بالله -، فإذا نظر ماذا يرى؟ لا يرى إلا الفقر، فيرى نفسه فقيرًا ولو امتلأت الخزائن، فيسعى لجمع المال ويُشقي نفسه بجمع المال، ولا ينتفع به؛ لأنه يخاف عليه، وهو يرى الفقر بين عينيه، ومع كل هذا لم يأت من الدنيا إلا ما كتب الله له، والله لا يزيد شيئًا ولا ينقص شيئًا، فإن الرزق مثل الأجل؛ مكتوب، ويُكْتَبُ للإنسان وهو في بطن أمه، يُكْتَبُ له رزقه لا يزيد ولا ينقص.

يذكر العلماء أنَّ رجلًا أراد أن يشرب من بئر فرلّت قدمه فوقه، فجاء أناس، فسمعوا أنينه فأخرجوه، وجأؤوه بشيء من لبن فشربه، فقال له أحد القوم: كيف وقعت؟ قال: وقفتُ هنا فوق الرجل في البئر فمات.

بقي عليه من رزقه هذا اللبن، خرج ليشربه، وبقي له من أجله هذا المقدار، فسقطت نفس السَّقطة ومات، الرزق لا يستطيع أحد أن يُنْقِصه، ولا يستطيع أحد أن يزيده، مهما كان ماهرًا، ولكن نفعل الأسباب الشرعية ولا نتعلّق بها.

«ومن كانت الآخرة همّه»؛ أي: من علّق قلبه بربه؛ جمع الله عليه أمره، فيكون قلبه مطمئنًا مجموعًا، لا يَضْرِبُ في شِعَاب الدنيا يمينًا ويسارًا، ولذلك يقول بعض الصالحين: (رُبَّ غَنِيٍّ لا يستطيع أن ينام، ورُبَّ فقيرٍ ينام قبل أن يصل إلى الفراش)، المسألة مسألة القلب.

«وجُعل غناه في قلبه»: فمهما رُزِق، قال: الحمد لله عندي خير، إن جاءه ما يكفيهِ، قال: الحمد لله ما احتجْتُ لأحد، إن جاءه زيادة قال: الحمد لله، ويحس أنه غني، ومع ذلك أتته الدنيا وهي راغمة، لا يُحرَم، الذي كتبه الله له سيأتيه.

والله الذي لا إله إلا هو لا يزيد الإنسان رزقه بمعصية، ولا يمنع رزقه بطاعة، الذي يؤذّن المؤذّن ويبقى في محله يبيع؛ والله لا يزداد رزقه، والذي إذا أذّن المؤذّن أغلق مكانه ومحله وذهب حيث ينادى بالصلاة والله لا ينقص رزقه؛ بل يُحصّل من البركة الشيء الكثير.

وهذا أمر ينبغي أن ندركه، وينبغي أن ننشره: الطاعة والعبادة على توحيد وإحسان، أساس كل خير، أساس السعادة، أساس الطمأنينة، أساس سعة الرزق، أساس البركة، وترك التوحيد أساس الشر، وينبوع الشر، وهذا أمر ينبغي أن نبينه للناس.

بهذا يكون شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله قد انتهى من الأمر الأول؛ وهو الوصية بما يُصلح الدين والدنيا.

فما أجمل أن نجعل ذلك أمرنا الذي ننظر فيه دائماً، ونزّن أحوالنا به: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»^(١)

ثم سيشرع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله في الأمر الثاني، وهو أمر عظيم: أفضل الأعمال بعد الفرائض، كيف أعرف أفضل الأعمال بعد الفرائض؟ وما هي القواعد التي أميّز بها الفاضل من المفضول؟ هذا ما سيشير إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله.

لكن قبل أن نتكلم عن هذا الأمر سأذكر عن بقية مكفرات الذنوب، لأنني ذكرت سابقاً أنّ مكفرات الذنوب عشرة، وأنّ شيخ الإسلام ذكر منها أربعة، ولم أذكر الباقي في ذاك الوطن؛ لأنني لم أحب أن أفصل كلام شيخ الإسلام في الأمر

(١) تقدم تخريجه.



الأول، فبعد أن فرغنا منه سأذكر بقية المكفرات الستة، وأنبّه على ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن حيالها، ثم نشرع في الأمر الثاني.

كما ذكرت سابقاً أنّ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ وغيره من العلماء قد ذكروا أنّ للذنوب مكفرات عشرة، فالعبد ما دام في الدنيا فهو خطّاء وعُرضة للوقوع في الذنوب.

ومن رحمة الله بهذه الأمة التي رحمها بمحمد بن عبد الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أنه لا يؤاخذها بما حدّثت به أنفسها مهما عظم؛ ما لم تتكلم أو تفعل، يقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسُهَا مَا لَمْ تَكَلِّمْ أَوْ تَعْمَلْ». والحديث في «الصحيح»^(١).

ومن رحمة الله وَعَلَيْهِ السَّلَامُ بهذا الأمة؛ أنّ من همّ بسيئة فمال إليها ولم يجزم جزءاً مؤكّداً، يتبعه عمل ثم لم يعملها؛ خوفاً من الله؛ تكتب له حسنة، فإن تركها لغير خوف الله، لا يُكْتَبَ له ولا عليه.

ومن رحمة الله بهذه الأمة؛ أنّ العبد إذا عمل الذنب إنما تكتب عليه سيئة واحدة لا يُزاد عليها.

ومع كل هذه الرحمة والفضل فإنّ الله وَعَلَيْهِ السَّلَامُ جعل لعباده أموراً تُحمي بها سيئاتهم، وتُكفّر عنهم ذنوبهم، ذكر شيخ الإسلام في الوصية أربعة منها، ونحن نعدُّ البقية ونعلّق عليها.

(١) «صحيح البخاري» كتاب: الطلاق، باب: الطلاق في الإغلاق والكره والسكران والمجنون، رقم: (٥٢٦٩)، و«صحيح مسلم» كتاب: الإيمان، رقم: (٢٠١).

فمكفرات الذنوب من حيث جنسها: عشرة:

أولها: التوبة.

وهذا متفقٌ عليه بين المسلمين، والتوبة تنفع حتى في غفران الشرك، فمن تاب من الشرك تاب الله عليه وهي من الأمور التي أُمِرَ بها جميع المؤمنين ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١].

والسبب الثاني من المكفرات: الاستغفار من غير توبة.

أي: أن يخاف العبد من الله، فيستغفر من ذنبه؛ وإن كان قائماً عليه وقد تقدّم الكلام على التحقيق في المسألة.

وقد قال النبي ﷺ: «إِنَّ رَجُلًا أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ، إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا أَوْ عَمَلْتُ ذَنْبًا، فَاغْفِرْهُ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: عَمَلُ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؛ قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ فَقَالَ: رَبِّ، إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا أَوْ عَمَلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَمِلَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؛ قَدْ غَفَرْتُ لَهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ، قَالَ: رَبِّ إِنِّي عَمَلْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ، قَالَ اللَّهُ: عَمِلَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؛ قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي فليُفْعَلْ مَا شَاءَ»، رواه أحمد بإسناد صحيح^(١).

ومعنى «فليُفْعَلْ مَا شَاءَ»: أي: ما دام أنه مقيم على الاستغفار الصادق؛ الذي يبعثه عليه خوفه من الله.

(١) «المسند» (١٣/٣٢٩) رقم: (٧٩٤٨)، وقد أخرجه البخاري في «صحيحه» كتاب: التوحيد، باب: قوله تعالى: (يريدون أن يبدلوا كلام الله)، ومسلم في «الصحيح» أيضاً، كتاب: التوبة، رقم: (٢٧٥٨).



شرح الوصية الصغرى

والسبب الثالث من المكفرات: الأعمال الصالحة المكفرة للذنوب.

وتسمى عند أهل العلم بالمُحَصَّات أو بالحسنات الماحيات ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]، يقول النبي ﷺ: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها».

والسبب الرابع من المكفرات: مصائب الدنيا والبلاء الذي ينزل بالمؤمن. يقول النبي ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة؛ في نفسه وولده وماله؛ حتى يلقي الله وما عليه خطيئة» رواه الترمذي بإسناد صحيح^(١).

وقد تقدّم الكلام على هذه المكفرات الأربعة، وقد بينّا أنّ التوبة تنفع في غسل الذنوب كلها، وأنّ الأسباب الثلاثة الأخر إنما تنفع الموحّدين؛ أمّا المشرك فإنه لا ينفعه ذلك؛ لأنه لا يُغفر مع الشرك ذنب.

السبب الخامس من المكفرات: شفاعة الشفعاء.

وهذه الشفاعة نعني بها: الشفاعة لأصحاب الذنوب بأن يعفو الله عنهم؛ لأنّ الشفاعة الثابتة أنواع، ونحن هنا إنما نتكلم عن الشفاعة لأصحاب الذنوب؛ لكي يعفو الله عنهم.

وهذه الشفاعة قد تكون للمذنبين قبل دخول النار، وقد تكون للمذنبين بعد دخولهم النار، فإنّ ربنا ﷻ من كرمه وفضله وبرّه ورحمته أنه يأذن لمن شاء من عباده أن يشفع لمن رضي عنه من عباده، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩].

فالشفاعة النافعة: هي الشفاعة بإذن الله ﷻ، مع رضاه عن الشافع والمشفوع له، والشفاعة المنفية: هي ما عدا هذا.

(١) «الجامع» للترمذي، أبواب: الزهد، باب: ما جاء في الصبر على البلاء، رقم: (٢٣٩٩)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٢٢٨٠).

وقد قال النبي ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» رواه أبو داود بإسناد صحيح^(١).
وقال النبي ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال: يُغْفَر له في أوّل دفعة من دمه،
ويُرى مقعده من الجنة، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويُوضَع على
رأسه تاج الوَقَار؛ الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويُزَوَّج اثنتين وسبعين زوجة
من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه» رواه الترمذي بإسناد صحيح^(٢).

الشهيد: شهيد المعركة، الذي يكون في جهاد مشروع؛ قد اجتمعت شروطه وانتفت
موانعه؛ لأنّ الشهادة أثر الجهاد، فلا يصح ما يقوله البعض من أنّ الإنسان يذهب يقاتل
الكفار ولو لم تجتمع الشروط أو تنتفي الموانع؛ لأنه إن قاتلهم فقتلوه يُغْفَر له ذلك!
فإنّ هذا الموعود على لسان خير مولود ﷺ إنما هو في الجهاد المشروع الذي اجتمعت
شروطه وانتفت موانعه. والشاهد هنا؛ أنّ الشهيد يشفع لسبعين من أقاربه.

وقال رسول الله ﷺ: «ليدخلنّ الجنة بشفاعاة رجل من أمتي أكثر من بني تميم»،
(بنو تميم) قبيلة عربية معروفة بكثرة العدد، يقول ﷺ: «ليدخلنّ الجنة بشفاعاة رجل
من أمتي أكثر من بني تميم» أي: أنهم لا يستحقون دخول الجنة بعملهم، لكن يشفع
لهم هذا الرجل؛ فيغفر الله لهم فيدخلهم الجنة، «قالوا: سواك يا رسول الله؟!»،
كأنهم يقولون بعبارة أخرى: هل هذا الرجل أنت يا رسول الله؟ أو رجل آخر؟
فقال ﷺ: «سواي» أي: أنه رجل من هذه الأمة.

رواه الإمام أحمد في «المسند» بإسناد صحيح^(٣).

(١) «السنن» لأبي داود، كتاب: السنة، باب: لشفاعة، رقم: (٤٧٣٩)، وصححه الألباني فيه.

(٢) «الجامع» للترمذي، أبواب: فضائل الجهاد، باب: في ثواب الشهيد، رقم: (١٦٦٣)،
وصححه الألباني في «أحكام الجنائز» (ص ٣٦).

(٣) «المسند» للإمام أحمد (١٨٩/٢٥) رقم: (١٥٨٥٨)، وصححه الألباني في «السلسلة
الصحيحة» رقم: (٢١٧٨).



شَرْحُ الْوَصِيَّةِ الصَّغِيرِ

قال النبي ﷺ: «يقال للرجل - أي: يوم القيامة - يا فلان، قم فاشفع، فيقوم الرجل فيشفع للقبيلة، ويقوم الرجل فيشفع لأهل البيت، ویشفع للرجل وللرجلين على قدر عمله» رواه ابن خزيمة في «التوحيد» بإسناد صحيح^(١).

وفي «الصحيحين»؛ أنّ النبي ﷺ قال في المؤمنين الذين يجتازون الصراط الذي يُنصب على متن جهنم قال ﷺ: «وإذا رأوا أنهم قد نجوا يقولون: ربنا إخواننا كانوا يُصلُّون معنا ويصومون معنا ويعملون معنا!» يعني إذا اجتازوا الصراط، ولم يسقطوا في جهنم تذكروا إخوانهم الذين تساقطوا في جهنم ولم يجتازوا الصراط؛ فيشفعون فيقولون: «ربنا إخواننا كانوا يُصلُّون معنا، ويصومون معنا، ويعملون معنا»، وهذا من بركة انتظام الإنسان مع الصالحين، من أهل السنة، المعروفين بالتوحيد؛ فإنه يُرجى منهم خيرٌ كثير في الدنيا والآخرة.

العبد وإن كان يقع في الذنوب، فإنه إن وُفق يحرص على أن يكون مع الصالحين، يحرص على أن يكون مع الموحدين، يحرص على أن يكون مع أهل السنة؛ لأنهم القوم لا يشقى بهم جليسهم، يُرجى إذا خالطهم أن يرق قلبه، وأن يترك ذنبه، وإن مات على الذنب فإنه تُرجى له شفاعتهم.

يقول النبي ﷺ: «فيقول الله تعالى: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه» يعني من النار، قال: «ويحرّم الله صورهم على النار» أي لا تؤذيهم «فيأتونهم وبعضهم قد غاب في النار إلى قدمه وإلى أنصاف ساقيه؛ فيُخرجون من عرفوا» ممن كانوا معهم «ثم يعودون، فيقول الله: اذهبوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من إيمان فأخرجوه، فيُخرجون من عرفوا، ثم يعودون فيقول

(١) «التوحيد» لابن خزيمة (٢/ ٧٤٤).

الله: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه؛ فيُخرجون من عرفوا، فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون»^(١).

وجاء عند النسائي وغيره بإسناد صحيح، أن الملائكة يوم القيامة تأتي تشفع، ويشفع الرُّسل^(٢).

وهذه شفاعات تقع من الملائكة، وتقع من الأنبياء، وتقع من الصالحين، وهذه الشفاعات لأهل الذنوب الذين يستحقون دخول النار بذنوبهم فيُشفع لهم فلا يدخلون النار، أو يدخلون النار بذنوبهم فيُشفع لهم فيُخرجون من النار.

السبب السادس من المكفرات: رحمة الله وعفوه.

ورحمة الله واسعة؛ وسعت كل شيء، والله يعفو عن السيئات، ما لم تكن شركاً ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقد دلت الأدلة على أن الله يعفو عن عباده المؤمنين، المذنبين، بغير سبب منهم في الدنيا ويوم القيامة، فقد يذنب الموحد ذنباً، ولا يفعل ما حياً، فيعفو الله عنه برحمته وفضله في الدنيا ويوم القيامة.

حتى إن الله ﷻ، يُدني المؤمن يوم القيامة، فيضع عليه كنفه ويستتره ويقول: أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي رب، حتى إذا قرَّره بذنوبه ورأى أنه هلك، قال سبحانه: «سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»، كما في «الصحيحين»^(٣).

(١) «صحيح البخاري» كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، رقم: (٧٤٣٩)، و«صحيح مسلم»، كتاب: الإيمان، رقم: (١٨٣).

(٢) «السنن الكبرى» للنسائي، كتاب: السهو، وذكر ما ينقص الصلاة وما لا ينقصها، باب: موضع السجود، رقم: (٧٣٠).

(٣) «صحيح البخاري» كتاب: المظالم والغصب، باب: قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، رقم: (٢٤٤١)، و«صحيح مسلم» كتاب: التوبة، رقم: (٢٧٦٨).



شرح الوصية الصغرى

«ويجاء يوم القيامة بأناس يأتون بذنوب أمثال الجبال يُغفر لهم» كما عند مسلم في الصحيح^(١).

«ويؤتى بالرجل يوم القيامة من المؤمنين الموحدين، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، فتعرض عليه ويُخبأ عنه كبارها، فيقال: عملتَ يوم كذا وكذا، كذا وكذا وكذا، وهو مقرٌّ لا يُنكر، وهو مشفق من الكبار، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة» يعفو الله عن سيئاته ويكرمه بجعلها حسنات؛ «فيقول: إن لي ذنوباً ما أراها؟» بعد أن كان مشفقاً من ذكر الكبائر، أصبح طامعاً في ذكرها حتى يُعطى مكانها حسنات.

ولذلك لما ذكر النبي ﷺ ذلك ضحك حتى بدت نواجذه من حال هذا الرجل، كان مشفقاً وجلاً خائفاً من ذكر الكبائر؛ فلما رأى كرم الله، طمع؛ فأخذ هو يبحث عنها، ويقول: إن لي ذنوباً ما أراها؟ أي: الكبائر التي خُبئت عنه؛ من أجل أن يُعطى بدلها حسنات، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه، وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في «المسند»، وصححه الألباني^(٢).

ولا يزال ربنا الكريم يرحم عباده في الدنيا، ويرحم عباده يوم القيامة، حتى لا يُبقي في النار من قال (لا إله إلا الله) من قلبه، ولا يزال العبد المؤمن يُرجى له عفو الله ومغفرته.

وليحذر المؤمن المجاهرة بالمعاصي؛ فإن المجاهرة بالمعاصي لها شؤمٌ عظيم، وقد تمنع عفو الله.

(١) «صحيح مسلم» كتاب: التوبة، رقم: (٢٧٦٧).

(٢) «المسند» للإمام أحمد، (٣٥/٣١٣) رقم: (٢١٣٩٣)، وهو في «صحيح مسلم» كتاب: الإيمان، رقم: (١٩٠).

يقول النبي ﷺ: «كل أمتي معافي إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يُصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره الله، ويُصبح يكشف ستر الله عنه» رواه البخاري في «الصحيح»^(١).

«كل أمتي معافي إلا المجاهرين»: كل أمتي - ولو كانوا مذنبين - معافي؛ إلا المجاهرين.

كل من فعل الذنب أمام الناس فهو من المجاهرين، وكذلك كل من فعل الذنب خفية ثم أعلنه أمام الناس فهو من المجاهرين.

فإن قال قائل: كيف نجمع بين هذا وحديث ثوبان رضي الله عنه الذي قال فيه النبي ﷺ: «لأعلمن أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاء؛ فيجعلها الله هباء منثوراً» نسأل الله السلامة «فقال ثوبان: يا رسول الله! صفهم لنا، جلّهم لنا؛ ألا نكون منهم ونحن لا نعلم، قال النبي ﷺ: «أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوامٌ إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها» رواه ابن ماجه، وصححه الألباني^(٢).

هنا يظهر بادي الرأي تعارض؛ لأن النبي ﷺ قال: «كل أمتي معافي إلا المجاهرين» وظاهر هذا أن الذي يستخفي بذنبه معافي، وفي حديث ثوبان يقول النبي ﷺ: «ولكنهم أقوامٌ إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها»، وظاهر هذا أن الذي يفعل الذنب في خلوة يكون معاقباً بهذا العقاب العظيم!

(١) «صحيح البخاري» كتاب: الأدب، باب: ستر المؤمن على نفسه، رقم: (٦٠٦٩).

(٢) «السنن» لابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: ذكر الذنوب، رقم: (٤٢٤٥)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم: (٥٠٥).



شرح الوصية الصغرى

وهذا في ظاهره تعارض! فكيف نجمع بين الحديثين، وأحدهما في «الصحيح» ومعناه في «الصحيحين»، والآخر صححه الألباني؟

الجواب: جُمِعَ بينهما بوجه:

الوجه الأول: أنَّ حديث ثوبان: في أقوام إذا برزوا للناس أظهروا الطاعة والتذلل والعبادة؛ رياء وسمعة، ولا يذكرون الله إلا قليلاً، وإذا خلوا بمحارم الله انتهكوها، فهؤلاء قومٌ منافقون أو قريبون من المنافقين، وهذا يتفق مع كونهم يُجعل حسناتهم هباءً منثوراً، فإنَّ المتقرر أنَّ السيئات ما عدا الكفر والردة لا تحبط الحسنات، وإن كان قد يؤخذ من حسنات العبد من أجل خصومه يوم القيامة، وتطرح عليه من سيئاتهم، لكن أن تكون السيئة سبباً في حبوط الحسنة الصحيحة الصالحة، فهذا غير وارد؛ ولذلك هذا الوجه - الذي ذكره بعض أهل العلم - يتفق مع الحديث: أنَّ هؤلاء القوم الذين إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها؛ قومٌ يتظاهرون بالطاعة أمام الناس، فلهم حسنات فيما يرى الناس، أمّا عند الله فتكون هباءً منثوراً، فإذا جاؤوا يوم القيامة بهذه الحسنات في الظاهر جعلها الله هباءً منثوراً.

أمّا حديث «كل أمتي معافى إلا المجاهرين» فهؤلاء قومٌ موحدون يعبدون الله، ويخافون الله، ولكنهم يقعون في الذنوب فيستترون بها؛ هذا وجه.

الوجه الثاني في الجمع: قال بعض أهل العلم: إنَّ حديث ثوبان رضي الله عنه «ولكنهم أقوامٌ إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها» أنهم أقوام لا يفعلون الذنوب أمام الناس؛ حياءً من الناس لا من الله، فإذا خلوا ارتكبوا الذنوب، ولا يستحيون من الله، يعني هم في ظاهر الأمر أمام الناس يتركون الذنب، ليس حياء من الله، ولا خوفاً من الله؛ ولكنهم يستحيون من الناس، ولذلك ما إن يخلو أحدهم بالذنوب حتى يفعله بلا تردد، لأنه لا يستحي من الله وإنما يستحي من الناس.

وأما حديث «كلُّ أمتي معافى إلا المجاهرين» فهؤلاء أقوامٌ يستترون بذنوبهم حياءً من الله وحياءً من الناس، فهم يستترون بذنوبهم وفي قلوبهم خوف الله والحياء من الناس لكن يغلبهم الضعف فيقعون في الذنوب ويتسترون بها، فهؤلاء يُرجى لهم عفو الله ﷻ.

والوجه الثالث: في قوله ﷺ: «ولكنهم أقوامٌ إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها»: قال بعض أهل العلم: هؤلاء الَّذِينَ يخونون الأمانة، أي يؤتمنون على الشيء فينتهكونه، كالرجل الذي يُزاني حليلة جاره، الرجل الذي يُزاني حليلة جاره من أشد الناس ذنبًا، ومن أعظمهم عقابًا؛ لأن جاره يأتمنه على أهله، لا يظن منه الخيانة، فإذا ذهب جاره انتهك هذه الحرمة وزانى أهله، والعياذ بالله.

أو من يؤتمن على أبناء المسلمين ويؤضع عنده أولاد المسلمين؛ فإذا خلا بهم انتهك محارم الله، إما بمعنى أو يعلمهم ما يخالف شرع الله؛ كأن يعلمهم التكفير، أن يعلمهم التفجير والتدمير، أو يعلمهم كيف يكونون سيفًا في صدور أهل بلادهم، أو بالانتهاك الحسي؛ بانتهاك أعراضهم، فهؤلاء قومٌ ذنبهم عظيم.

ومعنى أن حسناتهم تكون كالهباء المنثور بهذا الوجه؛ أن سيئاتهم ترجح على حسناتهم، ويكون ذلك سببًا في تعذيبهم في النار عذابًا عظيمًا.

فينبغي على العبد الذي يرجو رحمة الله أن يُعظم خوف الله في قلبه، وأن يحرص على البعد عن الذنوب، فإن ابتلي بها حرص على البعد بها؛ بحيث يستتر بها، غير متجري على محارم الله وغير مستهتر بما حرم الله ﷻ.

السبب السابع في تكفير الذنوب: دعاء المؤمنين.

دعاء المؤمن للمؤمن ينفع الاثنين، فإن المؤمن إذا استغفر لأخيه المؤمن بظهر الغيب، قالت الملائكة: آمين، ولك مثله^(١)، فتؤمّن على دعائه، وتدعو له، فأنت -

(١) «صحيح مسلم» كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم: (٢٧٣٢).



شَرْحُ الوَصِيَّةِ الصُّغْرَى

يا عبد الله - إذا جلستَ في جوف الليل على سجادك، ودعوتَ الله، واستغفرتَ نفسك، واستغفرتَ لجارِك، واستغفرتَ لإخوانك الذين تعلمهم، وتعلم لهم ذنوبًا، وقلتَ: اللهم، اغفر لجاري فلان، يقول الملك: آمين، ولك مثله، يا ربِّ، اغفر لأخي فلان، يقول الملك: آمين، ولك مثله.

ورُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات، كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة»^(١)، من استغفر للمؤمنين والمؤمنات؛ يعني: جملةً؛ فقال: اللهم، اغفر للمؤمنين والمؤمنات؛ «كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة»، وهذا الحديث حسَّنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ معتمداً على الهيثمي جاعلاً العهدة عليه، لكن بعد أن طُبِعَ «مسند الشاميين» وجدنا أن إسناده الحديث لا يُحسِّن مثله الشيخ الألباني بل يضعفه، وقد نبَّهتُ عليه لأنه منتشر على ألسنة طلاب العلم على أنه حديث حسن، يُحتجَّ به، لأنَّ الشيخ ناصر رَحِمَهُ اللهُ قد حسَّنه.

ولكن لا شك أنَّ استغفار المؤمن للمؤمنين والمؤمنات ينفعه وينفعهم.

يقول النبي ﷺ في مثالٍ لهذا: «ما من ميتٍ يصلي عليه أمة من المسلمين يبلَّغون مائة كلهم يشفَّعون أو يشفعون؛ إلا شُفِّعوا فيه» رواه مسلم^(٢).

«يشفَّعون» أي: يدعون له.

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «ما من رجل مسلم يموتُ، فيقوم على جنازته أربعون رجلاً، لا يُشرِّكون بالله شيئاً، إلا شفَّعهم الله فيه» رواه مسلم^(٣). وهذا مثال لدعاء المؤمنين، وانتفاع العبد بدعائهم.

(١) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» برقم: (٢١٥٥)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» رقم (١٧٥٩٨)، وانظر كلام الألباني في «صحيح الجامع» رقم: (٦٠٢٦).

(٢) «صحيح مسلم» كتاب: الجنائز، رقم: (٩٤٧).

(٣) «صحيح مسلم» كتاب: الجنائز، برقم: (٩٤٨).

هنا قد يقول لنا قائل: النبي ﷺ ذكر أنه يصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة، وفي الحديث الآخر قال: يقوم على جنازته أربعون، وكلاهما عند مسلم في «الصحيح»، فكيف نجمع بينهما؟

جمع بينهما العلماء بوجوه:

الأول: قال بعض العلماء: هذا من تخفيف الله عن الأمة؛ بمعنى: أن الله جعل الفضل للمائة، ثم خفف عن هذه الأمة فجعل الفضل للأربعين.

الثاني: قال بعض أهل العلم: إنَّ الأربعين أقل الكمال، والمائة وما زاد أكثر الكمال، يعني أقل الكمال في هذا الفضل أن يصلي عليه أربعون، وأعلى الكمال أن يصلي عليه مائة فما فوق.

الثالث: قال بعض أهل العلم: هذا باعتبار اختلاف صفة المصلين، فإن كان المصلون موحدين، خلص، لا يقع منهم الشرك الأصغر، ولا الخفي، بل توحيدهم خالص سالم من الشرك الأصغر والخفي؛ فإنه يكفي أن يشفع أربعون لقول النبي ﷺ: «لا يُشركون بالله شيئاً».

وإن كان المصلون من الموحدين، لكن فيهم من فيه شرك أصغر، أو شرك خفي؛ يعني بعضهم يحلف بغير الله؛ يقول: والنبي، يقول: وحياة أُمي، يقول: وحياة أولادي، يقول: والكعبة؛ فهذا شرك أصغر «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»^(١)، أو فيهم رياء خفيف يسير، فهو لاء موحدون لكن فيهم شيء من الشرك، الذي لا ينقض التوحيد؛ وإنما ينقصه، فهو لاء ينفع منهم إذا صلى منهم مائة، فيكون المائة بالنسبة لصفة هو لاء والأربعون بالنسبة لصفة هو لاء.

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» أبواب: النذور والأيمان، باب: ما جاء في كراهية الحلف بغير الله، رقم: (١٥٣٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٢٠٤٢).



شرح الوصية الصغرى

والشاهد معنا هنا: أنَّ دعاء المؤمنين ينفع للمذنبين من المؤمنين، وقد قال الله **وَعَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ذُكُرُهُمْ وَالَّذِينَ لَا شَرَارَ فِي لِئَابِهِمْ لَا يَنصُرُهُمْ رَبُّهُمْ وَلَا يُعَدُّونَ** [محمد: ١٩]، ولو لم يكن ذلك نافعا لَمَا أمر الله به.

ومن أعظم ما ينفع، دعاء الولد لو والده؛ لا سيما الصالح، فإنه ثبت أنَّ الرجل تُرَفَّع درجته في الجنة فيقول: أنى لي هذا؟ كيف لي هذا؟ يعرف أنه ليس من أهل هذه الدرجة، فيقال: باستغفار ولدك لك^(١).

ولا يزال الولد الصالح يستغفر لأبيه، حتى يُعْفَرَ له، ثم تُرَفَّع درجته في الجنة.

والسبب الثامن من المكفرات: ما يُعْمَل للميت من أعمال البر.

فإنَّ أعمال البر تمحو السيئات - كما تقدّم معنا -، فإذا صحَّ فعلها للميت فإنه يُرَجَى له أثرها كله بما في ذلك محو السيئة بها.

وأعمال البر التي تُعْمَل للميت؛ منها ما اتَّفَقَ على صحة عملها للميت في الجملة على خلاف في التفاصيل؛ كالصدقة والحج والعمرة والصوم، فإنَّ هذه الأعمال تُعْمَل للميت وتنفعه؛ وقد دلَّت على ذلك الأحاديث.

والمعلوم أنَّ الصدقة تُطْفِئ الخطيئة، فإذا تُصَدَّقَ عن الميت رُجِيَ له ثواب الصدقة وأنَّ تُطْفَأ خطيئته بهذا، والمعلوم أنَّ الحج مكفِّر للذنوب، فإذا حُجَّ عن الميت رُجِيَ له أن يحصل له أثر الحج، ومن أثر الحج أن تُكفَّر ذنوبه، والعمرة إلى العمرة كفارة

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٦ / ٢٦٥) رقم: (١٠٦١٠)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (١٥٩٨).

لما بينهما؛ فإذا اعتَمَرَ عن الميت رُجِيَ أن تُكَفَّر ذنوبه^(١)، والصوم جُنَّة^(٢) وكفارة؛ فإذا صِيَمَ عن الميت فيما هو واجب عليه، - فإن «من مات وعليه صيام، صام عنه وليه^(٣)» - فإنه يرجي أن تُكَفَّر بهذا ذنوبه.

وقد ذهب بعض أهل العلم من السلف والخلف إلى أن كل عمل برٌّ يَهْدِي للميت ينفعه؛ بشرط: أن يكون مشروعاً لا مبتدعاً.

وذهب بعض أهل العلم من السلف والخلف، إلى أن هذا أمرٌ غيبي، فيقتصر فيه على ما ورد فيه نصوص دالة على النفع به وعلى وصوله. وهذا الذي يظهر لي - والله أعلم - أنه الأصوب من أقوال العلماء؛ لأنه لا دليل عندنا لا من قول الرسول ﷺ ولا من فعله، ولا أثر عن صحابته رضي الله عنهم يصح الاستدلال به على أن الأعمال يصل ثوابها إلى الميت إلا ما نُصَّ عليه.

وعليه؛ فإن الذي يظهر لي - والله أعلم - أنه يُقْتَصَر على ما ورد، وما عداه من الأعمال فيُتَوَسَّل به في الدعاء؛ فيقول العبد: اللهم إني أسألك بصلاتي هذه أن تغفر لأبي مغفرة من عندك وأن ترحمه، أو يقول: اللهم إني أسألك بقراءتي سورة البقرة أن تغفر لأبي وأن ترحمه؛ فإن التوسُّل إلى الله في الدعاء بالعمل الصالح من التوسُّل المشروع النافع.

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» أبواب العمرة، باب: وجوب العمرة وفضلها، رقم: (١٧٧٣)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: الحج، رقم: (١٣٤٩).

(٢) أخرجه الترمذي في «الجامع» أبواب: الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة، رقم: (٢٦١٦)، وأخرجه ابن ماجه في «السنن» أبواب: الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة، رقم: (٣٩٧٣)، وصححه الألباني في «الإرواء» رقم: (٤١٣).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الصوم، باب: من مات وعليه صوم، رقم: (١٩٥٢)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: الصيام، رقم: (١١٤٧).



شَرْحُ الْوَصِيَّةِ الصُّغْرَى

السبب التاسع من المكفّرات: ما يحصل في القبر للمؤمن من الضغطة والفتنة والرّوعة.

العبد إذا أُدْخِلَ في قبره تحصل له ضغطة لا ينجو منها أحد، ولو كان أحدٌ ينجو من ضغطة القبر لنجا منها سعد بن معاذ رضي الله عنه؛ كما صح ذلك عن رسول الله صلّى الله عليه وآله ^(١). وفي القبر فتنة قال صلّى الله عليه وآله: «فإنكم تُفْتَنُونَ في قبوركم» الرجل الصالح إذا أُدْخِلَ في قبره يجلس غير فزع ولا مشغوف، فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقال: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقال: من هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فيقول: محمد رسول الله، أتانا من عند الله، فصدّقناه، فيقال: وهل رأيت الله؟ فيقول: ما ينبغي لأحد أن يرى الله - أي في الدنيا -، فينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، ويُفَسَّح له في قبره مدّ بصره، ويأتيه من رَوْح الجنة وريحانها.

وإذا كان الرجل على غير ذلك، فإنه يأتيه ملكان شديدا الانتهاز فيتهرانه، فيجلس فزعا مشغوفاً، فيقال: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان: من هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟ فلا يهتدي لاسمه، فيقولان: محمد، فيقول: هاه هاه، لا أدري، كنتُ أسمع الناس يقولون قولاً فقلته، فينادي منادٍ من السماء: أن كذب عبدي؛ فأفرشوه من النار وألبسوه من النار ويُضَيَّق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، ويأتيه من حرّ جهنم وسمومها ^(٢).

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٣٢٧/٤٠) رقم: (٢٤٢٨٣)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (١٦٩٥).

(٢) أخرجه أبو داود في «السنن» كتاب: السنة، باب: في المسألة في القبر وعذاب القبر، رقم: (٤٧٥٣)، وصححه الألباني في «أحكام الجنائز» (ص: ١٥٦).

فهذه فتنة القبر، والروعة تحصل مع الفتنة لبعض من يُفتن.

ولم أقف على دليل خاص يدل على أن هذا السبب من المكفرات؛ لا من الكتاب ولا من السنة، ولكن يظهر لي - والله أعلم - أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله ومن ذكر هذا من العلماء؛ إنما ذكروه من باب الإلحاق الأولوي؛ لأنه دلت الأدلة على أن الشدائد التي تصيب المؤمن في الدنيا تكفر سيئاته، والشدائد التي في القبر أعظم؛ فمن باب أولى أن تُكفر بها السيئات، والله أعلم بحقيقة الحال.

السبب العاشر من المكفرات: أهوال يوم القيامة وكربها وشدائدها.

فإن يوم القيامة يوم عظيم، يوم فيه من الشدائد الشيء الكثير، يُحشَر فيه الناس حفاة عراة غرلاً، على صعيد واحد، تقول أمنا عائشة رضي عنها: «الرجال والنساء يا رسول الله؟!» من حيائها رضي عنها - أمنا زوج رسول الله صلوات الله عليه في الدنيا مات وهو عنها راض، مات واستأذن نساءه في آخر حياته أن يمرض في بيتها رضي عنها فأذن له، وكان آخر ما خالط ريقه صلوات الله عليه من الدنيا ريقها الطاهر، رضي عنها وأرضاها، زوج نبينا صلوات الله عليه في الجنة، لا يحبها إلا مؤمن، ولا يُبغضها من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، والله لا ينال من عرضها مؤمن، والله لا يسبها سباً يقدر في عرضها ودينها؛ فضلاً عن أن يكفرها من في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، الحبيبة، الصديقة بنت الصديق، المباركة بنت المبارك - تقول: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟! فيقول الرسول صلوات الله عليه: «يا عائشة، الأمر أشد من ذلك!»^(١)، الأمر أشد من ذلك؛ لا ينظر أحد إلى أحد ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾، [الحج: ٢]، الأم التي لا يمكن أن تذهل عن رضيعها؛ يوم القيامة تذهل عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها من الخوف والهلع، وترى الناس سكارى؛ يتميلون

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الرقاق، باب: كيف الحشر، رقم: (٦٥٢٧).



شرح الوصية الصغرى

ومَا بِهِمْ سُكْرٌ؛ ولكنَّ عذاب الله شديد، رَأَوْه فأصبحوا يتميلون من الخوف، تدنو الشمس على رؤوس الخلائق مقدار ميل، فمنهم من يبلغ العرق إلى كعبيه، ومنهم من يبلغ العرق إلى ركبتيه، ومنهم من يبلغ العرق إلى حَقْوَيْهِ؛ يعني: إلى وسطه، ومنهم - والعياذ بالله - من يُلْجِمه العرق إلْجَامًا، شدائد عظيمة، حتى يُفَرِّج الله عن الخلق؛ بأن يشفع محمدٌ بن عبد الله ﷺ الشفاعة العظمى التي هي المقام المحمود؛ بأن يسجد بين يدي الله، متذللاً، حامداً، ذاكراً، مثنيًا على ربه، ويفتح الله عليه من المحامد حتى يأذن الله له بالشفاعة، فيشفع فيقضى بين الخلائق.

وقد ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية، وبعض أهل العلم، إلى أنَّ أهوال يوم القيامة وما فيها من الكَرْب والشدائد تُمَحَّصُ بها الذنوب، ومن ذلك المرور على الصراط، فإنَّ الصراط يُنْصَبُ على متن جهنم، وهو دَخَضٌ مَزَلَّةٌ، ولجهنم كلاليب تَخْطِفُ الناس، ويمرُّ الناس على قدر أعمالهم على الصراط، إلى أن يمرَّ آخرهم يحبوا حبوا^(١).

قال العلماء: إنَّ المرور على الصراط فيه تكفيرٌ للذنوب، وبحسب قيدِ الذنب تخفُّ السرعة على الصراط.

وهذه المكفرات في الذنوب، وكما قلتُ في السبب التاسع، أقول في السبب العاشر؛ إنني لَمْ أَقِفْ على دليل خاص، يدلُّ على أنَّ هذا مكفِّرٌ للذنوب؛ لكن لعله من باب القياس الأولوي؛ من جهة أنَّ الأدلة دلَّت على أنَّ الشدائد في الدنيا تُكفِّرُ بها الذنوب، فكَذلك في الآخرة، والله أعلم بحقيقة الحال.

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾، رقم: (٤٧١٢)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: الإيمان، رقم: (١٩٤).

هذه هي أجناس مكفرات الذنوب، والمؤمن إذا سَمِعَ هذا يتَّسع رجاؤه، ويعظم رجاؤه بالله، وفي نفس الوقت يشتدُّ خوفه من الله ويخشى أن يكون من أشقى خلق الله من غير المشركين فلا يُغفر له.

المؤمن إذا سَمِعَ هذا، يرجو المغفرة والرحمة، ويخاف أن يكون مطروداً من كلِّ هذا السَّعة، فلا يجرؤ على محارم الله، بل يُعظم المحرمات، ويتعدى عن انتهاكها، ويسعى لأن يكون من السالمين منها، فإذا وقع في الذنب خاف الله، فرجع إلى الله سُبْحَانَهُ.

والموفق؛ من استعمل الخوف قبل الوقوع في الذنب، والرجاء بعد الوقوع في الذنب.

والمخذول من قاده الرجاء إلى انتهاك محارم الله، وأصابه القنوط بعد الوقوع في الذنوب.

المؤمن الذي يُذنب رجاء المغفرة كمن يشرب السم رجاء الدواء بعد شربه، لا يوجد عاقل يأتي للسم فيتجرَّعه ثم بعد أن يتجرَّعه يقول: أشرب الدواء؛ لأنه قد يموت قبل أن يقدر على الدواء، وأنت - يا عبد الله - ما تدري متى تموت، قد تموت وأنت على ذنبك! والعبد يُبعث يوم القيامة على ما مات عليه من مات ملبياً بُعث ملبياً، ومن مات مصلياً بُعث مصلياً، ومن مات داعياً بُعث داعياً، من مات زانياً - والعياذ بالله - بُعث على هذه الحال القبيحة، من مات كاذباً بُعث على هذه الحال القبيحة، من مات مغتاباً بُعث على هذا الحال القبيحة، من مات سكراناً بُعث على هذا الحال الخبيثة.



شرح الوصية الصغرى

ولذلك ذكّر عن بعض السلف أنّه قال لتلاميذه واعظاً: (من يضمن لي أن يعيش إلى غدٍ آذن له في المعاصي)، يعني: الذي يقوم منكم فيقول: أنا أضمن أن أعيش إلى الغد، أنا آذن له بأن يفعل كل معصية، من الذي يستطيع أن يضمن هذا؟ والله إنَّ الإنسان يكون قوياً قادراً ليس فيه أي عَرَض فيسقط فجأةً ميتاً!!

فكم من سَلِيم مات من غير علّة **وكم من سقيم عاش حيناً من الدَّهر.**

بعض الناس يمرض ويزوره الناس، ويظنون أنه يموت ويصلون عليه، فيموتون قبله ويعزّي فيهم، وكفى بالموت واعظاً، فإذا حدّثت النفس الإنسان بالذنب، ورجّاه الشيطان المغفرة، وقال: ما شاء الله، أنت عندك صالحات كثيرة، وأنت أحسن من غيرك، غيرك يفعل ويفعل ويفعل، وهذا ذنب يسير، يُهَوِّن الذنب لكي يوقع العبد فيه، إذا جاءت النفس الضعيفة، وجاء الشيطان، يُذكر الإنسان نفسه بأن الأجل مؤقَّت ولا يدري ما يكون، فلعل هذا آخر ما يكون، فكيف يعيش عمره على طاعة الله، ثم يُعرِّض نفسه لأن يُقبَض على معصية الله؟!

المؤمن لا يجرؤ على الذنب، لأنه يعلم أن للذنب شؤماً، كما أن له مكفّرات، فقد يسبق الشؤم إليه فَيَرين على قلبه، فيصبح بعد ذلك لا يَقْبَل حقّاً ولا يُنكر باطلاً.

فلا يجرؤ على الذنوب ولا يجرؤ على محارم الله، لكن إذا غلبه الضعف فوقع في الذنب لا يقول: أنا لا خير فيّ، أنا بعدت عن الله، كيف أصلي الليل وأنا زنيّت - والعياذ بالله -؟ كيف أتفّل وأنا قد كذبتُ؟ لا يقنط من رحمة الله؛ بل يرجو مغفرة الله، ويصدّق بموعود الله، ويفعل ما طُلِبَ منه من المكفّرات، ويسأل الله أن يغفر له مغفرة واسعة من عنده.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ؛ فَإِنَّهُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ النَّاسِ فِيمَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، وَمَا يَنْاسِبُ أَوْقَاتَهُمْ، فَلَا يُمْكِنُ فِيهِ جَوَابُ جَامِعٍ مَفْصَّلٍ لِكُلِّ أَحَدٍ).

يقول شيخ الإسلام مخاطباً أبا القاسم السَّبْتِي: (وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ عَنْهُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ)، فَأَفْضَلُ الْأَعْمَالِ هِيَ الْفَرَائِضُ الَّتِي افْتَرَضَهَا اللهُ ﷻ، عَلَى عِبَادِهِ، فَخَيْرُ مَا تَقَرَّبَ بِهِ إِلَى رَبِّكَ - أَيُّهَا الْمُسْلِمُ -: أَنْ تَقِيمَ فَرِيضَةَ مَنْ فَرَائِضُهُ ﷺ؛ لَمَّا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحْبَبْتُهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ وَلَنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِذَنَّهُ»، وَالْحَدِيثُ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ»^(١).

وَالشَّاهِدُ قَوْلُ اللهِ ﷻ فِيمَا حَكَاهُ عَنْهُ رَسُولُهُ ﷺ: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»، فَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ هِيَ الْفَرَائِضُ، وَلَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَشْتَغَلَ بِالنَّوَافِلِ عَنِ الْفَرَائِضِ، بَلِ الْفَرَائِضُ مُقَدِّمَةٌ، يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ فَلَا صَلَاةَ إِلَّا الْمَكْتُوبَةُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي «الصَّحِيحِ»^(٢).

وَبَوَّبَ بِلَفْظِهِ الْبُخَارِيُّ فِي «الصَّحِيحِ»: «إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ» فَقَدْ أَصْبَحَتْ فَرَضًا «فَلَا صَلَاةَ إِلَّا الْمَكْتُوبَةُ»^(٣)؛ فَلَا يَجُوزُ الْإِشْتَغَالُ بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ الَّتِي

(١) «صحيح البخاري» كتاب: الرقاق، باب: التواضع، رقم: (٦٥٠٢).

(٢) «صحيح مسلم» كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، رقم: (٧١٠).

(٣) «صحيح البخاري» كتاب: الأذان، قبل حديث رقم: (٦٦٣).



شرح الوصية الصغرى

هي الفرض؛ فدلّ ذلك على أنه لا يجوز للعبد المسلم أن يشتغل بالنوافل عن الفرائض، فإذا تعارض عند العبد المسلم فعل فريضة مع فعل نافلة فإنه يجب عليه أن يشتغل بالفريضة.

فمن كان عليه دينٌ - مثلاً - وقد حلّ وفاؤه وليس عنده مال، وكان بين أمرين: أن يعمل ليُحصّل المال ليفي دينه، أو يشتغل بطلب العلم المستحب، ولا يستطيع أن يجمع بينهما، فإنه إذ ذاك يجب عليه أن يعمل ليُحصّل وفاء دينه، وكذلك إذا تعارض عند الإنسان ما يتعلّق بالنفقة الواجبة عليه والمستحبات؛ فإنه يجب عليه أن يقدم النفقة الواجبة عليه.

وقد قال العلماء جملة عظيمة: (مَن شغله الفرض عن النفل فهو معذور، ومَن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور).

الذي يدخل المسجد، وقد أُقيمت الصلاة، فلا يستطيع أن يصلي السنة الراتبية القبليّة؛ فدخل في الفرض فهو معذور، والذي يدخل وقد أُقيمت الصلاة، فيشتغل بالنافلة ولا يدخل مع الإمام في الصلاة المفروضة فهو مغرور.

ولذلك قال العلماء: (إنّ الشيطان يسعى لأن يُشغل المسلم بدياه عن دينه، فإذا لم يستطع سعى لأن يشغله بالنوافل عن الفرائض).

ولذلك ذكر أهل العلم أنّ الشيطان قد يُرغب العبد في قيام الليل - وهو أفضل الصلوات المستحبات - إذا علم أنّ ذلك يجعله ينام عن صلاة الفجر، لأنّ الشيطان يعلم أنّ ترك الفريضة إثمٌ وذنبٌ يستحق به فاعله العقاب، أمّا ترك المستحب فليس فيه ذنب ولا إثم؛ وإنما يفوت به الأجر، فيسعى الشيطان لأن يُشغل الإنسان بمستحب حتى يشغله عن الفرض.

ولذلك ينبغي على العبد المسلم دائماً أن ينظر في حاله مع الفرائض، فهي أجمع الأمور، ثم بعد ذلك تكون النوافل.

والأفضل للإنسان أن يُكثِر من النوافل ما استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ فإنها مثقلة للميزان، محبوبة إلى الرحمن، جابرة لما يقع في الأعمال من نقصان. فالعبد إذا عمل فريضة فحصل فيها نقصٌ فإنها تُجبر بالنوافل من جنسها؛ لما جاء في الحديث: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ عَلَيْهِ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ: الصَّلَاةُ» قال: «يقول ربنا ﷻ لملائكته - وهو أعلم - : انظروا في صلاة عبدي؛ أتمّها أم نقصها؟ فإن كانت تامةٌ كُتِبَتْ لَهُ تامةٌ، وإن كان انتقص منها شيئاً؛ قال: انظروا هل لعبدي من تطوُّع، فإن كان له تطوُّع قال: أتمّوا لعبدي فريضته من تطوُّعه، ثم تَوَخَّذُوا أَعْمَالَ عَلَى ذَلِكَ»، رواه الأربعة، وصححه الألباني^(١).

انظر - يا عبد الله - إلى هذا الحديث العظيم: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ عَلَيْهِ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الصَّلَاةُ»، فأول الأعمال الصلاة؛ لأنها أعلاها وأغلاها وأعظمها فرضاً، فالصلاة أول الأعمال بعد التوحيد، فيقول ربنا ﷻ لملائكته - وهو أعلم - : انظروا في صلاة عبدي هل أتمّها أو نقصها؟ فإن كان قد أتمّها كُتِبَتْ لَهُ تامة، وإن كان قد انتقص منها شيئاً قال الله: انظروا هل لعبدي من تطوُّع؟ - يعني: من الصلوات، هل له تطوُّع، من الصلوات؛ هل يصلي السنن الراتبة؟ هل يقوم الليل؟ - فإن كان له تطوُّع قال الله: أتمّوا لعبدي فريضته من تطوُّعه، ثم تَوَخَّذُوا بَقِيَّةَ أَعْمَالٍ عَلَى ذَلِكَ، وفي رواية: (ثم يُفَعَّلُ بِسَائِرِ الْأَعْمَالِ الْمَفْرُوضَةِ ذَلِكَ).

ولذلك؛ قال أهل العلم: (يُسْتَحَبُّ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ مِنْ كُلِّ جَنْسٍ فَرِيضَةً نَافِلَةً).

(١) «السنن» لأبي داود، كتاب: الصلاة، باب: قول النبي: (كل صلاة لا يتمها صاحبها . .)، رقم: (٨٦٤)، و«الجامع» للترمذي، أبواب: الصلاة، باب: ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، رقم: (٤١٣)، و«السنن» للنسائي، كتاب: الصلاة، باب: المحاسبة على الصلاة، رقم: (٤٦٥)، و«السنن» لابن ماجه، أبواب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في أول ما يحاسب به العبد الصلاة، رقم: (١٤٢٥)، وانظر: «صحيح أبي داود الأم» للألباني.



شرح الوصية الصغرى

فالصلاة مثلاً يُستحب له أن يتنفل من جنسها؛ كالسنن الرواتب، والصوم يُستحب أن يتنفل من جنسه؛ كصوم يوم الاثنين والخميس، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر، والزكاة يُستحب للإنسان أن يتنفل من جنسها، كالصدقة، والحج يُستحب للإنسان أن يتنفل من جنسه، بأن يحج نافلة بعد الفريضة مرة أو أكثر من ذلك أخذاً من هذا الحديث؛ حتى إذا كان هناك نقص في فريضته يتم من نوافله.

وذكر أهل العلم أن الأفضل للعبد أن ألا يقتصر على نوع من الفضائل؛ بل يأتي من الفضائل بما يستطيع، فتكون له نوافل من الصلاة، ونوافل من الصيام، ونوافل في المال، ونوافل في الإحسان، إلى غير ذلك من الأعمال.

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه وما يناسب أوقاتهم؛ فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد) يعني أن الإنسان إذا كان يريد اختيار أنواع من الفضائل يفضلها على غيرها لضيق الوقت أو غير ذلك فإن هذا يختلف باختلاف الناس.

ومما لا شك فيه أن الأعمال الصالحة تتفاضل، فقد سئل رسول الله ﷺ، عن أفضل الأعمال في أحاديث متعددة في «الصحيحين»؛ فأقر السائلين وأجابهم عن سؤالهم؛ فدل ذلك على أن الأعمال الصالحة ليست على درجة واحدة في الفضل بل تتفاوت.

ومعرفة أفضل الأعمال من أنفع ما يكون للعبد؛ ولذلك قال العلماء: (ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر؛ لكن العاقل الذي يعرف خير الخيرين، وشر الشرين)، (ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر): ليس المراد هنا نفي العقل؛ بل العاقل يعرف الخير من الشر؛ لكن أعقل منه من يعرف خير الخيرين، لماذا؟ يُقدّم أعلاهما عند التزاحم، (ومن يعرف شر الشرين): ليرتكب أدناهما، ويدفع أعلاهما عند التزاحم، وهذا من الأهمية بمكان للمؤمن.

فمثلاً لو أنّ مؤمناً ذهب يريد أن يُصلي الصلاة في المسجد، فوقع حادث لمسلم أمام عينيه، وهرب صاحب السيارة، هنا خَيْرَان:

الخير الأوّل: أن يُدرك صلاة الجماعة ويصلي مع المسلمين.

والخير الثاني: أن يُنقذ حياة هذا المسلم، إذا كان لا يعرف خير الخَيْرَيْن فإنه قد يدعُ هذا المسلم يموت؛ بحجّة أنّ الصلاة عمل عظيم فيُقدّمه، لكن إذا كان يعرف خير الخَيْرَيْن، فإنه يعلم أنّ اشتغاله بأنقاذ المسلم خيرٌ له من صلاة الجماعة؛ بل خيرٌ له من الصلاة في وقتها؛ لأنه يستطيع أن يقضيها.

فهذا السؤال الذي سألَه السَّبَّي رَحِمَهُ اللهُ فِي غاية علو الشأن.

فشيخ الإسلام يقول إنّ هذا الأمر يختلف لكنّ الميزان الذي يُنظر إليه في معرفة الأفضل من الأعمال، يعود إلى خمسة أمور:

الميزان الأوّل: مواظبة النبي ﷺ، على العمل، أو حثّه علي حثّاً مؤكّداً.

فإذا وجدنا النبي ﷺ مواظباً على عمل من الأعمال، عَلِمْنَا أنه أفضل جَنَسِه، وإذا حَثَّ النبي ﷺ على عمل حثّاً مؤكّداً عَلِمْنَا أنه أفضل جَنَسِه.

فمثلاً صلاة الليل هي أفضل الصلوات المستحبات؛ لأنّ النبي ﷺ واظب عليها على كلّ حال؛ في حال إقامته وفي حال سفره، في حال صحته وفي حال مرضه، وَحَثَّ عليها ﷺ بقوله؛ فقال: «وأفضل الصلاة بعد الفريضة: صلاة الليل»^(١).

فالميزان الأوّل لتعرف الأفضل أن تنظر إلى حال النبي ﷺ مع الفعل، فما واظب عليه أو حث عليه حثّاً مؤكّداً فهو أفضل.

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» كتاب: الصيام، رقم: (١١٦٤).

الميزان الثاني: قدرة العبد على الاستمرار عليه.

فالعامل الذي تستطيع أن تداوم عليه أفضل من غيره؛ وإن كان غيره أفضل من حيث ذاته، فما دامت عليه واستطعت أن تداوم عليه أفضل مما هو أعلى منه، ولا تستطيع أن تداوم عليه.

أضربُ مثلاً: شخصٌ قال: أريدُ أن أجعل لي ورداً من الصلاة في الليل أحافظُ عليه؛ فكم ركعة أصلي؟ نقول له: انظر لِمَا تستطيع أن تداوم عليه، فإن كنتَ تستطيع أن تداوم على ثلاث ركعات، فالثلاث أفضل من إحدى عشرة بالنسبة لك، وإن كنتَ تستطيع أن تداوم على خمس، فالخمس أفضل من الإحدى عشرة بالنسبة لك، وهكذا، وإن كانت صلاة إحدى عشرة ركعة أفضل من حيث ذاتها.

ما الدليل على هذا الميزان؟ الدليل قول النبي ﷺ: «وإنَّ أحبَّ الأعمالِ إلى الله ما دام؛ وإن قلَّ». متفق عليه^(١).

وقالت عائشة رضي الله عنها: (وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملاً أثبتوه) رواه مسلم في «الصحيح»^(٢).

فأحبُّ العمل إلى الله بعد الفرائض منك يا عبد الله: ما تداوم عليه؛ وإن قلَّ. ولكن أنبه هنا إلى أن العبد إن اختار لورده الأقل لا يَمْنَعُهُ ذلك من الزيادة إن وجد نشاطاً.

يعني لو أن إنساناً ورده من قيام الليل هو خمس ركعات مثلاً وفي ليلة وجد نشاطاً أن يصلي إحدى عشرة ركعة؛ فالأفضل أن يصلي إحدى عشرة ركعة، وهذا أمرٌ من الأهمية بمكان.

(١) «صحيح البخاري» كتاب: اللباس، باب: الجلوس على الحصر ونحوه، رقم: (٥٨٦١)، و«صحيح مسلم» كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، رقم: (٧٨٢).

(٢) «صحيح مسلم» كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، رقم: (٧٨٢).

إذا أردت أن تنظر إلى الأفضل من الصيام، وسألتني: ما الأفضل؟ أن أصوم الاثنين والخميس؛ أو أصوم ثلاثة أيام من كل شهر؟ وأنا لا أستطيع أن أجمع بينها؟ نقول: ما الذي تستطيع أن تداوم عليه؟ هل هو الثلاثة أيام من كل شهر ولو مفرقة؟ أو الاثنين والخميس؟ فإن قلت: أستطيع أن أداوم على هذا وهذا ولا أستطيع أن أجمع؛ قلنا: الأفضل صيام الاثنين والخميس؛ لأنه الأكثر، ولأن النبي ﷺ كان يصوم الاثنين والخميس، فإن قلت: أنا أستطيع أن أداوم على صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وإن صمت الاثنين والخميس لا أستطيع المداومة عليها؟ قلنا: الأفضل أن تصوم ثلاثة أيام من كل شهر، وهكذا.

وهذا ميزانٌ عظيم، يغفل عنه كثير من الناس؛ لاسيما مع الحماسة للعمل الصالح.

بعض الناس قد يكون على معاصٍ، ثم يتوب؛ فيكون عنده حماس للعمل الصالح؛ فيبحث عن الأعلى عدداً، ثم لا يلبث أن ينقطع! فينبغي مراعاة هذا الأمر في اختيار الأعمال.

الميزان الثالث: مناسبته لوقته.

من الأعمال ما هو وظيفة الوقت، فالمناسب للوقت أفضل، هذا من جهة وقت العمل.

يعني - مثلاً - إجابة المؤذن عند الأذان أفضل النوافل؛ أفضل من أن تقوم وتصلي، وأفضل من أن تقرأ القرآن، وأفضل من أن تصلي على النبي ﷺ؛ لأن هذه وظيفة الوقت.

ومن وجه آخر؛ مناسبة العمل لوقت الإنسان، فاختر من الأعمال ما يتناسب مع وقتك؛ فإنه أدعى لإقبال قلبك.



شَرْحُ الوَصِيَّةِ الصُّغْرَى

يعني لو سألنا سائل: ما هو أفضل وقت أقرأ فيه القرآن؟ نقول: الأفضل يختلف، لكن ما هو أفضل وقت عندك تكون فيه فارغاً من الشغل فارغ الفكر؟ إن قلت: بعد الفجر؛ نقول إذن: الأفضل بعد الفجر، تقول: في آخر الليل؛ نقول: الأفضل في آخر الليل، لماذا؟ لأن هذه أولاً أدعى لإقبال القلب؛ فتقبل على العمل بقلبك، والعمل إنما يفضل بإقبال العبد بقلبه على العمل.

ولذلك يصلي الناس في مسجد واحد ويتفاوتون في الأجر تفاوتاً عظيماً مع أنهم في فرض واحد، وخلف إمام واحد؛ لكنهم يختلفون في قلوبهم؛ فهذا مقبل على صلاته بقلبه من أولها إلى آخرها، وذاك لا يستحضر إلا نصفها، وذاك لا يستحضر إلا خمسها، وهكذا.

إذن الثالث: مناسبته لوقته، نقصد أمرين:

الأمر الأول: مناسبته لوقت العمل، بأن يكون هذا العمل وظيفه الوقت، فما كان وظيفه الوقت فهو أفضل.

إذا ذكر النبي ﷺ فإن الصلاة عليه في هذا الوقت، أفضل من قول: (لا إله إلا الله)، مع أن قول: (لا إله إلا الله) أفضل من الصلاة على النبي ﷺ في غير هذا الوقت؛ لكن إذا ذكر النبي ﷺ فالصلاة عليه وظيفه الوقت؛ فتكون أفضل.

والأمر الثاني: وقت الإنسان نفسه، فإنه يختار لعمله أفرغ وقته؛ حتى يقبل عليه بقلبه.

الميزان الرابع: تأثير العمل في القلب.

من المقطوع به أن للأعمال الصالحة آثاراً طيبة في القلوب، وتأثيرها عظيم، ويتفاوت في الناس.

ومن المعلوم أنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فإذا صلى الإنسان، فلا بدّ أن تنهاه صلاته عن شيء من الفحشاء.

والتحقيق من أقوال أهل العلم: أنه لا يصلي مصلّ صلاة صحيحة إلا وتنهاه عن الفحشاء، ولكنّ الناس يتفاوتون في هذا الأثر، فمن الناس من تنهاه الصلاة عن الفحشاء حال اشتغاله بها تجبسه عن الفحشاء، فحال كونه مصلّيًا تنهاه صلاته عن الفحشاء، وهذا يحصل لكل مصلّ.

ومن الناس من تنهاه الصلاة عن الفحشاء، قبل الصلاة وبعد الصلاة، وهو سائر يستشعر أنه في صلاة؛ فتنهاه عن الفحشاء، وهو عائد يستشعر أنه كان يصلي فتنهاه عن الفحشاء، لكن قبل هذا وبعد هذا يحصل عنده خلل.

ومن الناس من تنهاه صلاته عن الفحشاء مطلقًا، وهذا بحسب أثر الصلاة في القلب. ضربتُ هذا مثالًا لما يقوله العلماء: إنّ للأعمال الصالحة آثارًا طيبة في القلوب وأنّ الناس يتفاوتون في هذا.

وكذلك يتفاوت الناس في نوع العمل الذي يؤثّر في القلب، فمن الناس من يؤثّر في قلبه: التنفّل بالصلاة، ومن الناس من يؤثّر في قلبه أكثر الدعاء، ومن الناس من يؤثّر في قلبه أكثر أن يقرأ القرآن بنفسه، ومن الناس من يؤثّر في قلبه أكثر: أن يستمع القرآن من غيره، فكلُّ يكون الأفضل في حقّه - حالة تراحم الأعمال، وأراد أن يختار الأفضل - ما كان أعظم أثرًا في قلبه.

لو قال قائل: ما هو الأفضل في آخر الليل؟ هل الأفضل أن أقرأ القرآن؟ أو أن أشتغل بالدعاء؟ نقول: من أنواع المفاضلة أن ننظر إلى الأكثر أثرًا في قلبك؛ فإن كانت قراءة القرآن يَنْتُج منها انكسارٌ في قلبك، وخشوع وبكاء لله؛ فالقراءة أفضل، وإن كان الدعاء يحصل به انكسارٌ لقلبك أكثر وخشوع فالدعاء أفضل،

وإن كان استماعك للقرآن من قارئ يجعل في قلبك من الخشوع أكثر من قراءتك؛ فلاستماع هنا أفضل، والكلام هنا عند التزامهم؛ إذا أراد الإنسان أن يختار الأفضل.

الميزان الخامس: القدرة والعجز.

فالذي تستطيعه هو الأفضل في حقك، والذي تعجز عنه ليس بفاضل في حقك، وإن كان فاضلاً من حيث الأصل.

ولذلك يقول العلماء: (إذا علمت أن عبداً يعمل عملاً فاضلاً هو الذي يقدر عليه ولا يقدر على ما هو أعلى منه فلا تأمره بالأفضل؛ لأن الأفضل في حقه هو ما يقدر عليه).

الذي يستطيع أن يصوم ثلاثة أيام ولا يستطيع غيرها، لا تأتي إليه وتقول: الأفضل أن تصوم يوماً وتفطر يوماً؛ لأمرين:

الأمر الأول: أنه من الناحية الشرعية: ما يقدر عليه العبد فهو الأفضل في حقه، وهذا من رحمة الله؛ لأنه إذا فعل ما يقدر عليه، كتب الله له أجر ما يقدر عليه وأجر ما يعجز عنه؛ إذا كان صادق النية.

والأمر الثاني: لأنك لو أمرته بالأفضل، زهدته فيما يعمل، ولا يستطيع أن يعمل ما تقول إنه الأفضل.

مثلاً تقول له: والله فعلك حسن، تصوم ثلاثة أيام، لكن الأحسن أن تصوم يوماً وتفطر يوماً، تحته وتقول: هناك عباد من عباد الله يصومون يوماً ويفطرون يوماً سبقوك إلى الجنة! لأنه لا يستطيع أن يصوم يوماً ويفطر يوماً فيزهد في الثلاثة أيام، وقد يتركها، ولا يستطيع أن ينتقل إلى الأفضل، وهذا من الفقه العظيم.

إذن الأمر الخامس في معرفة الأفضل: القدرة والعجز؛ بحيث تعلم أيها العبد المبارك أنّ ما تقدّر عليه من الأعمال أفضل في حقك مما تعجز عنه؛ وإن كان المعجوز عنه أفضل من حيث الأصل.

فهذه الموازين الخمسة لمعرفة أفضل الأعمال:

الأول: مواظبة النبي ﷺ للعمل، وحثه عليه حثاً مؤكداً.

الثاني: القدرة على المداومة عليها، فإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قلّ، وكان أحب العمل إلى النبي ﷺ ما داوم عليه صاحبه.

الثالث: مناسبته للوقت، وقلنا إن الوقت يقصد به أمران:

١- وقت الفعل.

٢- ووقت الفاعل.

الرابع: أثره في القلب، لأن للعمل أثراً في القلب، ويتفاوت الناس في هذا، فما كان أعظم أثراً للقلب كان أفضل بالنسبة للإنسان.

الخامس: القدرة والعجز؛ فما كان قادراً عليه الإنسان فهو أفضل مما يعجز عنه، سواء كان العجز حالياً، أو فيما يأتي من الزمان، ويُلاحظ هنا أن العجز قد يكون حسيّاً بأن يكون الإنسان عاجزاً عن العمل فعلاً إما لسبب عائد إليه، أو لسبب عائد إلى خارج، وقد يكون معنوياً؛ بحيث لا يجد الإنسان أنه فُتح له في هذا الأمر، فيرى أنه عاجز عنه لأنه لم يفتح عليه فيه.

هذه موازين معرفة الأفضل من الأعمال بالنسبة لكل إنسان، فإذا عرف العبد هذا؛ فإنه يكون عارفاً - إن شاء الله - بالأفضل في حقه، وإن كان العالم لا يستطيع أن يقول إنّ الأفضل في حق الناس جميعاً هو كذا؛ لاختلافهم فيما ذكرناه.

قال شيخ الإسلام رحمته الله: (لكنَّ مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره، أنَّ ملازمة ذكر الله دائماً هو أفضل ما شَغَلَ به العبد نفسه في الجملة).

تكاد تتفق كلمة السلف - إن لم تتفق، ولا أعرف خلافاً بينهم في هذا - على أنَّ أفضل الأعمال بعد الفرائض المتعيّنة على كل فرد ثلاثة:

١. الجهاد في سبيل الله.

٢. والعلم.

٣. وذكر.

أمّا الجهاد في سبيل الله؛ فقد جاء رجل إلى النبي صلّى الله عليه وآله فقال: «دلّني على عمل يعدل الجهاد» يعدل: أي يساوي قال النبي صلّى الله عليه وآله: «لا أجده» أي لا أجد عملاً يعدل الجهاد؛ يعني بعد الفرائض، ثم قال: «تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك، فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟» قال: الرجل: من يستطيع ذلك؟! متفق عليه^(١).

إذن هذا الحديث يدلّ دلالةً بيّنة على أنَّ الجهاد أفضل الأعمال بعد المفروضات، وقد جاء ذلك عن بعض السلف؛ قال أحمد رحمته الله: (ما من عمل أفضل من الغزو بعد حجة الإسلام)؛ يعني: بعد الفرائض.

وأمّا العلم؛ فقد قال النبي صلّى الله عليه وآله: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم». رواه الترمذي، وصححه الألباني^(٢).

(١) «صحيح البخاري» كتاب: الجهاد والسير، باب: فضل الجهاد والسير، رقم: (٢٧٨٥)، ولم أقف عليه في «صحيح مسلم».

(٢) «الجامع» للترمذي، أبواب: العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم: (٢٦٨٥)، وصححه الألباني فيه.

«فضل العالم على العابد» العالم: هو كثير العلم، العابد: كثير العبادة بلا علم،
«كفضل النبي على أديناكم» أي على أدنى الصحابة أو على أدنى الأمة، ولا شك
أن فضل النبي ﷺ، على أعلى الصحابة فضل عظيم؛ فكيف بفضله على أدنى
الصحابة؟! هذا فضل العلماء، وفضلهم عظيم.

وإنك لتعجب أيما عجب من أناس ينتسبون إلى الفضل ويدّعون العلم
يقدحون في العلماء الربانيين ويطنعون في العلماء الربانيين، ويتنقصون فضلهم،
والنبي ﷺ يقول فيهم هذا الفضل العظيم!

ومما أعجبني من كلام مشايخي وصية أوصاني بها أحد مشايخي، فقال: (يا
سليمان! لا ترض لنفسك أن تكون أقل درجة من الحيوان) قلت: كيف؟ قال:
(إياك أن تنقص العلماء الربانيين المشهود لهم بالسنة والتوحيد؛ بل ليكن شأنك
دائمًا أن تذكر فضلهم، وأن تستغفر لهم؛ فإن النبي ﷺ قال: «وإن العالم ليستغفر
له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء»، وفي الحديث الآخر:
«إن الله وملائكته وأهل السماوات وأهل الأرض حتى النملة في جحرها وحتى
الحوت ليصلون على معلم الناس الخير»^(١)، هذا من جهة فضل العالم.

ومن جهة فضل العلم؛ قال النبي ﷺ: «فَظِلُّ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَظِلِّ الْعِبَادَةِ»
رواه الحاكم وصححه، والطبراني، وصححه الألباني^(٢)، فدل ذلك على أن الزيادة
في العلم خير من الزيادة في العبادة.

(١) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة.

(٢) «المستدرک» للحاکم (١/ ٩٣)، و«المعجم الأوسط» للطبراني، رقم: (٣٩٦٠)، وانظر «صحيح الجامع» للألباني رقم: (٤٢١٤).



وقد قال سفيان الثوري **رحمته الله**: (ما من عمل أفضل من طلب العلم؛ لمن صحت نيته).

وأما ذكر الله، فتأتي النصوص في تفضيله في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية **رحمته الله**. قال معاذ بن جبل **رضي الله عنه**: (لأن أذكر الله من غدوة حتى تطلع الشمس، أحب إلي من أن أحمل على الجهاد في سبيل الله من غدوة حتى تطلع الشمس)^(١)، فهنا ذكرت لكم نصاً يدل على تفضيل واحد من هذا الثلاثة، ولفظاً عن السلف يدل على تفضيل واحد من هذه الثلاثة.

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية **رحمته الله** أن أفضل الأعمال: الصلاة، والجهاد، والعلم، بإجماع الأمة، فالصلاة المفروضة أفضل المفروضات، والعلم، والجهاد.

وقال ابن القيم **رحمته الله**: (التحقيق: أن المراتب ثلاثة:

أولها: ذكر الله والجهاد معاً؛ فهذا فيه جمع بين الذكر والجهاد، وهذا أفضل المراتب.

وثانيها: ذكر الله بلا جهاد؛ وهذا ثاني المراتب فضلاً.

وثالثها: الجهاد بدون ذكر الله؛ وهذا ثالث المراتب).

ووجه تقديم الذكر على الجهاد: أن الجهاد وسيلة إلى ذكر الله، وإنما يُجاهد ليُقام ذكر الله، فيكون المقصود أعظم من الوسيلة.

وبما أن الجهاد من باب الوسائل، والذكر من باب المقاصد؛ فإننا نستطيع أن نقول: إن أفضل الأعمال بعد الفرائض التي هي من باب الوسائل: الجهاد في سبيل الله، وإن أفضل الأعمال بعد الفرائض مما هو من باب المقاصد: الذكر.

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» برقم (١٧٣)، وابن المبارك في «الزهد» برقم: (١١٢٨) وابن أبي شيبة في «المصنف» برقم: (٣٠٠٧١).

ثم من المعلوم أنَّ المقاصد أفضل من الوسائل؛ ولذلك ذهب أكثر العلماء من السلف والخلف إلى أنَّ الأفضل: ذكر الله ﷻ، وقال هنا شيخ الإسلام ابن تيمية: (كالإجماع)؛ بمعنى أنَّ القائلين به كثرة كاثرة جدًّا؛ حتى أشبهه الإجماع.

ونحن قلنا إنَّ أفضل الأعمال بعد الفرائض المتعينة عند السلف - بما يشبه الاتفاق إن لم يكن اتفاقاً - ثلاثة: الجهاد في سبيل الله، والعلم، وذكر الله، وشيخ الإسلام: يُدخل العلم في ذكر الله، فبقي عملان: ذكر الله والجهاد.

ويرى رحمه الله: أنَّ ذكر الله أفضل من الجهاد؛ ولذلك قال هذه الجملة التي معنا: (لكن مما هو كالإجماع) لماذا قال: (كالإجماع) ولم يقل: بإجماع؟ لأنَّ من السلف من يقدِّم الجهاد - كما قدَّمنا قبل قليل - لكنَّ أكثر السلف يقدِّمون ذكر الله؛ ولذلك قال: (كالإجماع)؛ يعني أنَّ القائلين به هم الأكثر كثرة كاثرة من مقدِّمي غيره عليه.

قوله رحمه الله: (لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره): العلماء بالله: هم الذين يخافون الله ويخشونه، والعلماء بأمر الله: هم الفقهاء الذين يعرفون الحلال والحرام. فشيخ الإسلام يقول: (كالإجماع بين العلماء بالله وأمره) العلماء الذين يخافون الله ويخشونه، ويفقهون؛ دينه فيعرفون الحلال والحرام.

قوله رحمه الله: (أنَّ ملازمة ذكر الله دائماً هو أفضل ما أشغل العبد به نفسه في الجملة). ملازمة العبد ذكر الله وكثرة جريان اللسان بذكر الله: أفضل ما تقرب به العبد إلى الله بعد الفرائض عند أكثر السلف الصالحين ﷺ؛ لقول الله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] قيل في معناها: (ذكر الله العباد أكبر من ذكرهم له؛ فإنه ما ذكر أحد ربه في ملأ إلا ذكره في ملأ خير منه، ولا ذكر أحد ربه في نفسه إلا ذكره الله في نفسه).



شرح الوصية الصغرى

إذن ذكر الله العباد أكبر من ذكرهم له؛ فكيف تملّ من ذكر الله؟! كيف تملّ من ذكر الله وأنت كلما ذكرت الله ذكرك الله، مجرد استشعار هذا ماذا يعمل في القلب؟ كلما ذكرت الله ذكرك الله! وبنوع ذِكْرِكَ يذكرك الله سُبْحَانَ اللَّهِ.

وقال بعض أهل العلم: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ معناه: إنّ ذكر الله أكبر من كل شيء؛ يعني: بعد الفرائض، ولا مانع من الأمرين؛ فهذا اختلاف تنوّع وليس اختلاف تضاد؛ ذكر الله العباد أكبر من ذكرهم له، وذكر العباد لربهم أكبر من كل شيء من الأعمال إلا المفروضات.

قيل لسلمان رضي الله عنه: (أيّ العمل أفضل؟ قال: أما تقرأ القرآن ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ لا شيء أفضل من ذكر الله) رواه الطبري عنه^(١).

فجريان اللسان بذكر الله مع تواطؤ القلب على هذا، واستحضار عظمة الله، أفضل الأعمال التي يتقرب بها العبد إلى الله بعد الفرائض، وفي نفس الوقت هي أخف الأعمال، أنت جالس، ما الذي يمنعك أن تقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده سبحان الله؟! ما الذي يمنعك؟ لا حائل يحول بينك وبين ذلك، ولا تحتاج لأن تقوم، ولا تحتاج لأن تتوضأ، ما تحتاج إلى شيء، من أسهل ما يكون. وهذا إذا تأملناه، يبيّن لنا عظم رحمة الله بهذه الأمة، وأنه لا يهلك على الله إلا هالك.

فالذنوب يغفرها، وجعل مكفرات تكفرها وتمحوها، والحسنات جعل الفرائض مستطاعات، والنوافل جعل أفضلها أيسرها وأسهلها للعبد، فلا إله إلا الله ما أعظم رحمة الله بهذه الأمة!

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٨/٤١٥).

قال شيخ الإسلام رحمته الله: (وعلى ذلك دلّ حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي رواه مسلم: «سَبَقَ الْمُفْرَدُونَ، قالوا: يا رسول الله! ومن المفردون؟ قال: الذاكرون الله كثيراً والذاكرات»^(١)).

هذا الحديث في «صحيح مسلم»، قال النبي صلّى الله عليه وآله: «سبق المفردون»، والمفردون: قال بعض أهل العلم: هم الذين ذهب أقرانهم وبَقُوا، والعادة أنّ الإنسان إذا ذهب أقرانه تتهدّب نفسه، كلّما فقد أحداً من أقرانه كلّما خاف الموت وخاف الله وعجل، وعلى هذا المعنى يكون النبي صلّى الله عليه وآله أراد أن يقول: إنّ الذكر يُهدّب النفس؛ كما يهدّبها موت الأقران.

وقيل: إنّ المفردين: هم الذين انقطعوا لعبادة الله، فيكون المراد: أنّ الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، كأنهم اعتزلوا الناس؛ لكثرة ذكرهم، فتجدهم قليلي الحديث مع الناس، يشتغلون بذكر الله سبحانه وتعالى.

«سبق المفردون، قالوا: يا رسول الله، من المفردون؟» من تعني بالمفردين؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات» أي الذاكرات الله، وهذا دليل على فضيلة ذكر الله سبحانه وتعالى، وأنّ العبد بإكثاره من ذكر الله يسبق غيره، وأنك يا عبد الله في الدنيا في سباق؛ فسابق ومسبوق، وأنّ من أعظم ما يُعينك على السّبق: أن تُكثر من ذكر الله سبحانه وتعالى.

قال شيخ الإسلام رحمته الله: (وفيما رواه أبو داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي صلّى الله عليه وآله أنه قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناكم؟» قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «ذكر الله»).

(١) «صحيح مسلم» كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم: (٢٦٧٦).



شرح الوصية الصغرى

هذا الحديث العظيم رواه الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، ورواه الإمام مالك في «الموطأ» من قول أبي الدرداء رضي الله عنه،^(١) قال ابن عبد البر: وهو في حكم المرفوع؛ لأنه لا يقال بالاجتهاد، بل الروايات الأخرى تدل على أنه مرفوع.

وبحث عنه في أبي داود بلفظه ومعناه فلم أجده، وقد قال شيخ الإسلام هنا (فيما رواه أبو داود) فيما أن يكون ذلك سبق ذهن؛ لأن أكثر كتابه شيخ الإسلام من حفظه، وقد تعقبته في كثير مما يكتب فوجدته أنه يأتي بالأشياء في ألفاظها حتى في كلام السلف، لكن لعله سبق ذهنه هنا فقال: (فيما رواه أبو داود)، ويمكن أن يقال: لعله في نسخة لم تبلغنا، لكن الأول أقرب، والله أعلم.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلوات الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم؟» أي: عند ربكم سبحانه وتعالى «وأرفعها في درجاتكم؟ وخير لكم من إعطاء الذهب والورق؟» يعني خير لكم من النفقة في سبيل الله؛ أي النفقة غير المفروضة، «ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم» وفي رواية: «من أن تلقوا عدوكم غداً فتضربوا أعناقهم؟ ويضربوا أعناقكم» قالوا: بلى، يا رسول الله، قال: «ذكر الله»؛ وهذا يدل على أن ذكر الله أفضل النوافل.

فإن قال قائل: إن ظاهر الحديث يدل على أن ذكر الله أفضل مطلقاً، نقول: دل الحديث الذي قدمناه على أن أفضل الأعمال هو ما افترضه الله على العباد، فيكون هذا في تفضيل الذكر على النوافل.

(١) «المسند» للإمام أحمد (٣٣/٣٦) رقم: (٢١٧٠٢)، و«الجامع» للترمذي، أبواب: الدعوات، باب: ما جاء في فضل الذكر، رقم (٣٣٧٧)، و«السنن» لابن ماجه كتاب: الأدب، باب فضل الذكر، رقم: (٣٧٩٠)، و«الموطأ» للإمام مالك، كتاب: القرآن، باب: ما جاء في ذكر الله، رقم: (٢٤)، وانظر «صحيح الترمذي» للألباني.

ولو قال قائل: إن ذكر الله منه ما هو مستحب، ومنه ما هو واجب، نقول: إن ذكر الله من حيث هو ليس أفضل الفرائض، فأفضل الفرائض الصلاة.

ولذلك أحسن ما يُحمَل عليه الحديث أن أفضل النوافل: ذكر الله ﷻ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (والدلائل القرآنية، والإيمانية، بَصْرًا، وخبرًا، ونظرًا على ذلك كثيرة).

أي: الأدلة من الكتاب والسنة؛ لأن الدلائل القرآنية: هي الكتاب والسنة؛ لأن القرآن ورد فيه أمرنا باتباع السنة، ولذلك لما ذكر بعض السلف أمرًا فقليل له: إن هذا ليس في كتاب الله، قال: بلى هو في كتاب الله ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] كأنه يقول: أنا أقول: قال رسول الله ﷺ كذا، وربنا قال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ إذن معنى هذا: خذوا قول الرسول ﷺ هذا.

ولذلك فالتحقيق: أن السنة مثل القرآن؛ «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه»^(١).

فإذا قلنا: الدلائل القرآنية؛ فإنها عند المحققين تدخل فيها الآيات والأحاديث، وإذا قلنا: الدلائل القرآنية والخبرية، تصبح الدلائل القرآنية: الآيات، والخبرية: السنة.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (والدلائل القرآنية والإيمانية بَصْرًا وخبرًا): لعله يريد بالخبر: السنة، والإيمانية بَصْرًا: أي ما يسميه العلماء بالدلائل الوجدانية، التي يجدها العبد في نفسه؛ بمعنى: ما يراه الإنسان بعينه وبصره، وما يجده في نفسه من أثر الذكر، يدل على فضيلة الذكر.

(١) أخرجه أبو داود في «السنن» كتاب: السنة، باب: في لزوم السنة، رقم: (٤٦٠٤)، والترمذي في «الجامع» أبواب: العلم، باب: ما نهي عنه أن يقال عند حديث النبي ﷺ، وابن ماجه في «السنن»، أبواب: في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب: تعظيم حديث رسول ﷺ، رقم: (١٢)، وصححه الألباني فيها.



إذن ندلل على فضيلة الذكر بأربعة أمور:

١- بقول الله.

٢- وقول الرسول ﷺ.

٣- وَمَا نَرَاهُ بِأَعْيُنِنَا مِنْ أَثَرِ الذِّكْرِ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَرَى فِي الْوَقَائِعِ كَيْفَ أَنْ ذَكَرَ اللَّهُ يُؤَثِّرُ تَأْثِيرًا عَظِيمًا.

٤- وَمَا نَحْشُهُ فِي قُلُوبِنَا مِنْ أَثَرِ الذِّكْرِ.

كل هذا يدل على فضيلة الذكر، وهذا معنى قول الشيخ: (والدلائل القرآنية) أي: الآيات، (والإيمانية) أي: الوجدانية التي يجدها أهل الإيمان في قلوبهم، (بصرًا) أي: ما يرونه بأعينهم من أثر الذكر، (وخبرًا) أي: في السنة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (وأقلُّ ذلك أن يلازم العبد الأذكار الماثورة عن معلِّم الخير، وإمام المتقين ﷺ).

يعني أن أقلَّ الذكر الذي يكون به الإنسان من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات: أن يلازم الأذكار الماثورة عن النبي ﷺ؛ الذي هو معلِّم الخير، والخير يُنسب إلى تعليمه.

والمعلوم أن ما ورد عن النبي ﷺ من الأذكار ذكرٌ عظيم شريف، فلماذا قال شيخ الإسلام هنا: (وأقلُّ ذلك)؟ لماذا وصف ذلك بالقلَّة؟

نقول: إنَّ المقصودَ هنا ليس التقليل من شأن المذكور؛ وإنما المقصودُ بيان أقلِّ ما يكون الإنسان به من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات؛ لأنَّ ذكر الله أعمُّ من ذكر اللسان، فهو يشمل ذكر اللسان والقلب، وما يكون من الأعمال متعلقًا باللسان؛ كالتعليم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأكمل الذكر أن يحرص الإنسان على كلِّ هذا.

وأقلّ الذكر الذي يكون به الإنسان من الذاكرين الله والذاكرات: أن يحافظ على الأذكار الماثورة عن النبي ﷺ.

والمقطوع به أنّ معلّم الخير هو النبي ﷺ، وقد ثبت في الحديث أنّ الله وملائكته وأهل السماوات وأهل الأرض حتى الحوت وحتى النملة في جحرها ليُصلُّون على معلّم الناس الخير^(١)، والمعلّمون كثر، وإذا أردنا أن نعرف الميزان فلننظر إلى ما يُعلّمه الإنسان، ونسبته إلى ما علّمه النبي ﷺ، فإن كانت نسبة تعليمه إلى تعليم النبي ﷺ موافقة؛ فهو معلّم للخير، وإن كانت نسبة تعليمه لتعليم النبي ﷺ نسبةً تداخل؛ فهذا فيه تعليم للخير، وإن كانت النسبة مباينة؛ فهذا معلّم شرّ.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (وإمام المتقين) فالنبي ﷺ إمام المتقين وسيدهم، ولن يسبقه أحد لا بنصح ولا باجتهاد في العبادة.

والله الذي لا إله إلا هو، إذا رأيت شخصاً ينصحك بغير ما ورد في السنة، فاعلم أنه لم ينصحك بخير، فإن النبي ﷺ لا يسبقه أحد في النصح، وإنما النصّح ما ورد في سنة النبي ﷺ.

ولن يسبقه أحد في اجتهاد في عبادة، ولذلك قال النبي ﷺ: «أما إنني أتقاكم لله وأخشاكم لله» فلن يسبقه أحد ﷺ في عبادة لا في ذكر ولا في غير ذكر.

فمن لزم سنته ﷺ، قولاً وفعلاً فقد استقام وعرف الطريق الأقوم.

ولذلك عندما جاء أولئك الثلاثة نفر إلى بيوت أزواج النبي ﷺ فسألوا عن عبادته، فلمّا أخبروا بها كأنهم تقالُّوها، فقال أحدهم: فأما أنا فلا أتزوج النساء، وقال الآخر: وأما أنا فأصوم ولا أفطر، وقال الثالث: فأما أنا فأقوم فلا أرقد، فلمّا

لقيهم النبي ﷺ قال: «أنتم الذين تقولون كذا وكذا؟» قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «أما إني أتقاكم لله وأخشاكم لله، أما إني أصوم وأفطر، وأقوم وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»، رواه البخاري في «الصحيح»^(١).

وهذا حكم عام «من رغب عن سنتي فليس مني»، فالموفق من عباد الله من لزم المأثور عن النبي ﷺ.

والمأثور عن النبي ﷺ من الأذكار نوعان: مقيّد، ومطلق.

مقيّد: بمعنى أنه مضاف إلى وقت أو سبب.

ومطلق: وهو الذي لم يُضَفْ إلى شيء من ذلك.

وبدأ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ بالأذكار المقيّدة بالزمان.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (كالأذكار المؤقّدة في أوّل النهار وآخره، وعند أخذ المضجع، وعند الاستيقاظ من المنام، وأدبار الصلوات).

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (كالأذكار المؤقّدة في أوّل النهار وآخره) وهذه كثيرة وتسمّى أذكار الصباح والمساء، ويُسنُّ للمسلم أن يحرص على حفظها وملازمتها.

وهنا أنبه إلى شيء وهو: أنه ليس شرطاً أن يحفظها كلها دفعة واحدة، أو أن يأتي بها كلها دفعة واحدة، بل يحفظ ما استطاع؛ يحفظ ذكراً واحداً مثلاً من أذكار الصباح وأذكار المساء، ويأتي به، فإذا أتقنه حفظ الذكر الثاني، وهكذا.

لماذا أنبه على هذا! لأن بعض المسلمين يترك أذكار الصباح والمساء كلها، وإذا قلت له: لماذا؟ يقول: لم أستطع أن أحفظها، فنقول: لا يشترط أن تحفظها كلها، اتت بما تحفظ ثم احفظ وأت بما تزيد؛ وهكذا.

(١) «صحيح البخاري» كتاب: النكاح، باب: الترغيب في النكاح، رقم: (٥٠٦٣).

ومن ذلك مثلاً قراءة آية الكرسي، فلو أنّ الإنسان قرأ آية الكرسي عند الصباح وعند المساء، فقد جاء بذكر من أذكار الصباح والمساء^(١).

كذلك أن يقول الإنسان: (سبحان الله وبحمده) مائة مرة في الصباح والمساء؛ فهذا ذكر من أذكار الصباح والمساء^(٢).

ووقت هذه الأذكار: وقت الصباح ووقت المساء.

ووقت الصباح مختلف فيه، والصحيح: أنه يبدأ من طلوع الفجر إلى شروق الشمس، ويمتدّ إلى وقت الضحى.

ووقت المساء: يبدأ قبيل العصر إلى غروب الشمس، ويمتد بعد الغروب شيئاً. وأذكار الصباح والمساء، منها ما دلّ الدليل على أنه يقال قبل انفتاح النور، أو بعد الإظلام؛ فهذه تكون مخصّصة في أوّل وقت الفجر، وفي آخر وقت المساء عند الغروب، وما لم يردّ فالإنسان مُخَيَّرٌ فيه.

وبعض أهل العلم يرون أنّ الأفضل أن يفرّقها لتكون وظيفة الوقت، وهذا في الحقيقة طيّب إن لم يؤدّ إلى تضييعها، فإن كان يؤدي إلى تضييعها فليسردها المسلم في وقت واحد.

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (وعند أخذ المضجع) أي: إذا أراد الإنسان أن ينام؛ كقراءة آية الكرسي^(٣)، وقراءة سورة ﴿قُلْ يَتَّابِهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]^(٤)، وقول: «بسم

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١/ ٢٠١)، رقم: (٥٤١)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» رقم: (٦٦٢).

(٢) أخرجه مسلم في «الصحيح»، كتاب: الذكر والدعاء، رقم: (٢٦٩٢).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الوكالة، باب: إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئاً... ، رقم: (٢٣١١).

(٤) أخرجه الترمذي في «الجامع»، أبواب: الدعوات، باب: ما جاء فيمن يقرأ القرآن عند المنام، رقم: (٣٤٠٣)، وصححه الألباني فيه.



شرح الوصية الصغرى

الله وضعتُ جنبي، اللهم اغفر لي ذنبي، وأخسئ شيطاني، وفكَّ رهاني، واجعلني في النديِّ الأعلى^(١)، وقول: «باسمك اللهم نموت ونحيا»^(٢)، وغير ذلك مما ورد عن النبي ﷺ.

وأقول كما قلتُ أولاً: لا يُشترط أن يُؤتى بها كلها، احفظ واحداً، وحافظ عليه، ثم زد عليه ولا تترك القليل؛ من أجل أنك لا تستطيع الكثير.

قوله **رَحِمَهُ اللهُ**: (وعند الاستيقاظ من المنام) كأن يقول الإنسان: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»^(٣).

وكلُّ هذا ثابت عن النبي ﷺ.

قوله **رَحِمَهُ اللهُ**: (وأدبار الصلوات) أي: الأذكار عَقِبَ الصلوات؛ كقول: «أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله، اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام...»^(٤)، إلى آخر الأذكار التي هي عَقِبَ الصلوات.

وهنا أذكر فائدة ذكرها بعض أهل العلم؛ وهي: (أَنَّ كُلَّ دَعَاءٍ قُيِّدَ فِي السَّنةِ بِدُبْرِ الصَّلَاةِ؛ فَهُوَ فِيهَا) يعني: في نفس الصلاة، (وَكُلُّ ذِكْرٍ قُيِّدَ فِي السَّنةِ؛ فَهُوَ تَالِيهَا) أي: بعد الفراغ من الصلاة.

ومبنى هذا: الاستقراء، فإنَّا استقرأنا حال النبي ﷺ فوجدنا دعاءه في الصلاة، ولم يثبت عنه دعاء بعد الصلاة على وجه يصح لا تأويل فيه، ووجدنا ذكر النبي ﷺ بعد الصلاة.

(١) أخرجه أبوداود في «السنن» كتاب: النوم، باب: ما يقال عند النوم، رقم: (٥٠٥٤)، وصححه الألباني فيه.

(٢) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا نام، رقم: (٦٣١٢)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: الذكر والدعاء، رقم: (٢٧١١).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الدعوات، باب: ما يقول إذا نام، رقم: (٦٣١٢).

(٤) أخرجه الإمام مسلم في «الصحيح» كتاب: المساجد، رقم: (٥٩١).

قال شيخ الإسلام رَحْمَةُ اللَّهِ: (والأذكار المقيّدة؛ مثل ما يقال عند الأكل والشرب، واللباس، والجماع، ودخول المنزل، والمسجد، والخلاء، والخروج من ذلك، وعند المطر والرعد، إلى غير ذلك، وقد صُنِّفَتْ له الكتب المسماة بعمل اليوم والليلة).

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (والأذكار المقيّدة؛ مثل ما يقال عند الأكل والشرب) أي: الأذكار المقيّدة بأحوال؛ مثل ما يقال عند الأكل «بسم الله»^(١)، ولم يرد قول (بسم الله الرحمن الرحيم) عند الأكل، وإنما يقول «بسم الله» فهذا ذكر عند الأكل.

وعند الفراغ مثلاً يقول: «اللهم أطعمت وأسقيت وأغنيت وأقنيت وهديت وأحييت؛ فلك الحمد على ما أعطيت» هذا ورد عن النبي ﷺ بإسناد حسن^(٢). والشرب مثل الأكل؛ أن يقول «بسم الله».

قوله رَحْمَةُ اللَّهِ: (واللباس) إذا استجدّ ثوباً أن يقول: «اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه، ورزقنيه، أسألك خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صُنِعَ له»^(٣)، وإذا تعرّى من ثيابه فإنه عند التعرّي يقول: «بسم الله»؛ ففي ذلك سترٌ له من عيون الجن والشياطين^(٤).

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الأطعمة، باب: التسمية على الطعام، رقم: (٥٣٧٦)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: الأشربة، رقم: (٢٠٢٢).

(٢) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» كتاب: الأطعمة، باب: ما يقول إذا رفعت مائدته، رقم: (٦٨٧١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٧١).

(٣) أخرجه أبوداود في «السنن» كتاب: اللباس، رقم: (٤٠٢٠)، والترمذي في «الجامع»، أبواب: اللباس، باب: ما يقول إذا لبس ثوباً جديداً، رقم: (١٧٦٧)، وصححه الألباني فيها.

(٤) أخرجه ابن ماجه في «السنن» أبواب: الطهارة وسننها، باب: ما يقول الرجل إذا دخل الخلاء، رقم: (٢٩٧)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» رقم: (٥٠).



شَرْحُ الوَصِيَّةِ الصُّغْرَى

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (والجماع) يقول عنده: «بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقنا»^(١).

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (ودخول المنزل) إذا دخل الإنسان المنزل فإنه ورد في ذلك أحاديث، ضعّفها بعض أهل العلم، وحسّنها بعض أهل العلم^(٢).

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (والمسجد) وإذا دخل المسجد يُسَلِّم على النبي **ﷺ** يقول: «بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك».

وعند الخروج يقول: «بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب فضلك»^(٣).

قال العلماء: المناسبة: أن الإنسان إذا دخل المسجد يدخل مكان عبادة؛ فناسَب أن يسأل الرحمة؛ لأنه «لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته»^(٤).

وإذا خرج فإنه مقبل على الرزق فيسأل الله من فضله، وكلُّ هذا جاء عن النبي **ﷺ** بأسانيد صالحة.

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الوضوء، باب: التسمية على كل حال وعند الوقاع، رقم: (١٤١)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: النكاح، رقم: (١٤٣٤).

(٢) من ذلك قوله **ﷺ**: «إذا ولج الرجل بيته فليقل: اللهم إني أسألك خير المولج، وخير المخرج، بسم الله ولجنا، وبسم الله خرجنا، وعلى الله ربنا توكلنا، ثم يسلم على أهله» أخرجه أبو داود في «السنن» كتاب: الأدب، باب: ما يقول إذا دخل بيته، رقم: (٥٠٩٦)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٢٢٥).

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح» بنحوه مُختصراً، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، رقم: (٧١٣).

(٤) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: المرضى، باب: تمنى المريض الموت، رقم: (٥٧٣)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، رقم: (٢٨٢٦).

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (والخلاء) وعند دخول الخلاء يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الخُبْثِ والخبائث»^(١).

وعند الخروج من الخلاء يقول: «غفرانك»^(٢).

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (وعند المطر) فعند المطر يقول: «اللهم صَيِّباً نافعاً»^(٣).

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (والرعد إلى غير ذلك) وعند الرعد يقول: «سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته»^(٤). إلى غير ذلك من الأحوال.

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (وقد صُنِّفَتْ لَهُ الْكُتُبُ الْمَسْمُومَةُ بِعَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ) كعمل اليوم واللييلة للنسائي، وابن السني، وغير ذلك.

قال شيخ الإسلام **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (ثم ملازمة الذكر مطلقاً، وأفضله: لا إله إلا الله).

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (ثم ملازمة الذكر مطلقاً) هذا الذكر المطلق الذي لَمْ يُقَيَّدْ بِزَمْنٍ أَوْ بِسَبَبٍ، وأفضله على الإطلاق: قراءة القرآن.

قراءة كلام الله هي أفضل الذكر، وكان النبي **ﷺ**، يداوم على قراءته، فأفضل ما يذكر به العبد ربه أن يُرْتَلَ كلامه، وأن يقرأ كلامه **رَحِمَهُ اللَّهُ**، ثم ما ذكره شيخ الإسلام هنا.

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الوضوء، باب: ما يقول عند الخلاء، رقم: (١٤٢)، ومسلم في «الصحيح» كتاب: الحيض، رقم: (٣٧٥).

(٢) أخرجه أبو داود في «السنن» كتاب: الطهارة، باب: ما يقول الرجل إذا خرج من الخلاء، رقم: (٣٠)، والترمذي في «الجامع» أبواب: الطهارة، باب: ما يقول إذا خرج من الخلاء، رقم: (٧)، والنسائي في «السنن الكبرى» كتاب: عمل اليوم واللييلة، باب: ما يقول إذا خرج من الخلاء، رقم: (٩٨٢٤)، وابن ماجه في «السنن» أبواب: الطهارة وسننها، باب: ما يقول إذا خرج من الخلاء، رقم: (٣٠٠)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» رقم: (٥٢).

(٣) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: الاستسقاء، باب: ما يقال إذا مطرت، رقم: (١٠٣٢).

(٤) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» كتاب: الكلام، باب: القول إذا سمعت الرعد، رقم: (٢٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» رقم: (٧٤٤)، وصححه الشيخ الألباني في «الكلم الطيب» (ص: ١٣٥) موقوفاً على ابن الزبير **رضي الله عنه**.

قوله **رَحِمَهُ اللهُ** : (وأفضله: لا إله إلا الله) أي: أفضله بعد قراءة القرآن قول: لا إله إلا الله، من حيث هو ذكر؛ وذلك لقول النبي **ﷺ**: «خير ما قلتُ أنا والنبون قبلي: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير» رواه الترمذي، وحسنه الألباني^(١).

وهذه الخيرية لأن في هذه الكلمة العظيمة توحيد رب العالمين، ففي هذه الكلمة العظيمة إثبات العباد لله وحده، ونفي العباد عما سواه، ولذلك كان لها هذا الفضل العظيم.

وقد قال النبي **ﷺ**: «أفضل الذكر: لا إله إلا الله» رواه الترمذي، وابن ماجه، وحسنه الألباني^(٢).

قال شيخ الإسلام **رَحِمَهُ اللهُ** : (وقد تعرض أحوال يكون بقيّة الذكر مثل: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، أفضل منه).

الذكر المطلق أفضلُه قراءة القرآن، ثم قول: لا إله إلا الله، وهذا أمرٌ يسير على العبد أن يكرّره وأن يقول: لا إله إلا الله، على الوجه المشروع، لا على وجه بدعيّ. لكن القاعدة عند أهل العلم: (أنّ الفاضل والمفضول قد يتعاوران بسبب اختلاف الأحوال)، ومعنى يتعاوران: يكون المفضول فاضلاً والفاضل مفضولاً. يقول بعض أهل العلم: المفضول تعرض له أحوال يكون أفضل بسبب مصلحة ظهرت في ذلك؛ إما عائدة إلى الإنسان نفسه أو عائدة إلى غيره.

(١) «الجامع» للترمذي، أبواب: الدعوات، رقم: (٣٥٨٥)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم: (١٥٠٣).

(٢) «الجامع» للترمذي، أبواب: الدعوات، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، رقم: (٣٣٨٣)، و«السنن» لابن ماجه، أبواب: الأدب، باب فضل الحامدين، رقم: (٣٨٠٠)، وانظر «السلسلة الصحيحة»، رقم: (١٤٩٧).

فعندما نقول: أفضل الذكر (لا إله إلا الله)؛ إذن قول (سبحان الله) مفضل بالنسبة لـ لا إله إلا الله، لكن قد تعرض للإنسان حال يكون قول (سبحان الله) أفضل في حقه؛ كأن يكون - مثلاً - نزل منخفضاً فيكون قول (سبحان الله) هنا أفضل من قول (لا إله إلا الله)؛ لما عَرَضَ من الحال.

فمعنى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أنه قد تعرض للمكلف أحوال يكون قول (سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر) أنفع في ذلك الحال وأصلح في ذلك الحال؛ فتكون أفضل.

وهذه الكلمات فضلهن عظيم، فكونهن مفضولات بالنسبة لـ (لا إله إلا الله) لا يعني أنه لا فضل لهن، بل فضلهن عظيم ومقامهن كريم، وقد قال النبي ﷺ: «لأن أقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر؛ أحب إلي مما طلعت عليه الشمس»، رواه مسلم^(١).

وهذا يُنبِّهنا إلى شيء - وقد ذكرناه سابقاً ونكرّره - وهو: أن الجمع بين الفضائل ما أمكن أحسن، فهنا النبي ﷺ جمع بين قول (لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر)، لكن قد يعرض حال يكون المفضل فاضلاً؛ كما قلنا لو نزل منخفضاً أو نحو ذلك.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: (ولا حول ولا قوة إلا بالله): هذه جملة عظيمة، وإن كانت مفضولة بالنسبة لـ لا إله إلا الله، وقد قال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ألا أدلك على كلمة هي كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله» متفق عليه^(٢).

(١) «صحيح مسلم» كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم: (٢٦٩٥).

(٢) «صحيح البخاري» كتاب: المغازي، باب: غزوة خيبر، رقم: (٤٢٠٥)، و«صحيح مسلم» كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم: (٢٧٠٤).



شرح الوصية الصغرى

ومعنى (لا حول ولا قوة إلا بالله): أنه لا يتحوّل من حال إلى حال إلا بعون الله، ولا قدرة على هذا إلا بالله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، هذا قول أكثر العلماء.

وقال بعض أهل العلم: معنى (لا حول ولا قوة إلا بالله) أي: لا قدرة على التمسك بالطاعة وترك المعصية إلا بعون الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، وهذا نوع من الأوّل؛ لا تحوّل من حال إلى حال إلا بإعانة الله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**، ولا قوة وقدرة على ذلك إلا بالله **سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى**.

فمثلاً عند خروج الإنسان من بيته هل الأفضل أن يقول (لا إله إلا الله) أو يقول: (لا حول ولا قوة إلا بالله)؟ الأفضل أن يقول (لا حول ولا قوة إلا بالله) في ضمن الذكر الذي يقوله إذا خرج من بيته؛ لقول النبي **ﷺ**: «إذا خرج الرَّجل من بيته فقال: بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، يقال: حَسْبُكَ، هُدَيْتَ وَكُفَيْتَ وَوُقِيتَ، وتنحى عنه الشيطان» رواه الترمذي، وصححه الألباني^(١).

ومن ذلك أيضاً قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله) إذا قال المؤذن: (حيّ على الصلاة)، أي: لو كان عندنا رجلان يسمعان المؤذن، فقال المؤذن: (حيّ على الصلاة)، فقال أحدهما: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، وقال الآخر: (لا إله إلا الله)، كان الأوّل أفضل؛ لأنّ قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله) هنا أفضل، وهذا من باب تزاحم الذكر المقيّد مع الذكر المطلق، من باب تزاحم الذكر المقيّد - الذي هو مقيّد مع الأذان - بالذكر المطلق وهو قول: (لا إله إلا الله).

وقد يتعارض الفاضل والمفضول باعتبار حال القلب، فقد يكون عَرَضٌ للإنسان ضَعْفٌ في دينه، أو نزل به شيء أضعفه، فيكون محتاجاً لأن يقول: (لا حول ولا قوة إلا بالله) يتقوى بها؛ فيكون قولها هنا أفضل؛ من أجل هذه الحاجة.

(١) «الجامع» للترمذي، أبواب: الدعوات، باب: ما يقول إذا خرج من بيته، رقم: (٣٤٢٦)، وصححه الألباني فيه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ : (ثم يُعَلِّمُ أَنَّ كُلَّ مَا تَكَلَّمُ بِهِ اللِّسَانُ وَتَصَوِّرُهُ الْقَلْبُ مِمَّا يُقَرِّبُ إِلَى اللَّهِ؛ مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا وَتَعَلِّمَهُ وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ وَنَهَى عَنْ مَنكَرٍ؛ فَهُوَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ).

هذا الذي أشرتُ إليه سابقًا؛ أَنَّ ذِكْرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، ليس مقصورًا على الأذكار التي يقال باللسان مما هو مشهور على أنه ذكر؛ بل يدخل في ذلك كل ما يتعلق باللسان مما يُقَرِّبُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَتَعَلِّمَهُ، وَمَنْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ وَنَهَى عَنْ مَنكَرٍ؛ فَهُوَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ.

فَأَنْتَ إِذَا عَلَّمْتَ فَأَنْتَ ذَاكِرٌ لِلَّهِ، وَإِذَا تَعَلَّمْتَ فَأَنْتَ مُسْتَمِعٌ لَذِكْرِ اللَّهِ، وَإِذَا أَمَرْتَ بِالْمَعْرُوفِ فَأَنْتَ ذَاكِرٌ لِلَّهِ، وَإِذَا نَهَيْتَ عَنْ مَنكَرٍ فَأَنْتَ ذَاكِرٌ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهذا كمال الذكر؛ أَنْ يَحْرَصَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَقُولَ بِلِسَانِهِ كُلَّ مَا يُقَرِّبُ إِلَى اللَّهِ مِمَّا ثَبَتَ شَرْعًا، سِوَاءٍ فِي بَابِ التَّعَلُّمِ، أَوْ فِي بَابِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمَنكَرِ، أَوْ فِي بَابِ الذِّكْرِ اللَّسَانِيِّ الْمَعْلُومِ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ : (ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض، أو جلس مجلسًا يتفقه أو يُفَقِّه فيه الفقه الذي سَمَّاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَقَهَا؛ فَهَذَا أَيْضًا مِنْ أَفْضَلِ ذِكْرِ اللَّهِ).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ : (ولهذا من اشتغل بطلب العلم النافع بعد أداء الفرائض أو جلس مجلسًا يتفقه؛ أَي: يَتَعَلَّمُ الْفَقْهَ، يُفَقِّه فِيهِ الْفَقْهَ الَّذِي سَمَّاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَقَهَا؛ فَهَذَا أَيْضًا مِنْ أَفْضَلِ ذِكْرِ اللَّهِ)؛ لِحَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «فَضْلُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ»^(١).

(١) تقدم تخريجه .

وقد تقدّم معنا ، وقلنا: إنّ النبي ﷺ فضّل العلم من جهة ذاته، وفضّل العالم فقال: «فضل العلم خير من فضل العبادة»، وقال ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»^(١).

وفي الحديث الآخر: «فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب»^(١).

فأفضل النوافل: ذكّر الله - كما تقدّم معنا - ، وأفضل الذكر عند كثير من العلماء: العلم؛ تعلّمًا وتعليمًا.

وقد جاء عن أبي هريرة وأبي ذرٍّ رضي الله عنهما ، أنهما قالَا: (بابٌ من العلم تتعلّمه أحبُّ إلينا من ألف ركعة تطوّع)^(٢).

وقال سفيان الثوري: (ما من عمل أفضل من طلب العلم إذا صحّت النية)^(٣).

وقال وكيع: (لولا أنّ الحديث عندي أفضل من التسييح ما حدّثتُ)^(٤).

وقال بشر بن الحارث: (لا أعلم على وجه الأرض عملاً أفضل من طلب العلم والحديث؛ لمن اتقى الله وحسنت نيته)^(٥).

فطلب العلم هو خير النوافل عند كثير من العلماء.

(١) أخرجه أبو داود في «السنن» كتاب: العلم، باب: الحث على طلب العلم، رقم: (٣٦٤١)، والترمذي في «الجامع» أبواب: العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم: (٢٦٨٢) وابن ماجه في «السنن»، كتاب الإيمان، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم: (٢٢٣)، وصححه الألباني فيها.

(٢) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» رقم (١١٥)؛ وأورده بدر الدين ابن جماعة في «تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم» (ص: ٩).

(٣) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» رقم (١١٩).

(٤) أخرجه الخطيب البغدادي في «شرف أصحاب الحديث» (ص: ٨٢).

(٥) المصدر السابق.

ولذلك - مثلاً - لو أنّ شخصاً قال لنا: إنه تعارض عندي أن أذكر أذكار الصباح مع درس بعد الفجر؛ فأيهما أقدم؟ نقول: عند كثير من أهل العلم: تقدّم الدرس؛ لأنّ طلب العلم أفضل، مع أنه لا ينبغي القول بالتعارض إلا عند عدم إمكان الجمع، فإذا أمكن الجمع فافعل الفضائل، لكن عند التزامه فإنه يُقدّم عند كثير من أهل العلم: طلب العلم.

قال شيخ الإسلام رحمته الله: (وعلى ذلك إذا تدبّرت لم تجد بين الأولين في كلماتهم في أفضل الأعمال كبير اختلاف).

لأنّ الاختلاف بين السلف في أفضل الأعمال: إمّا أنه من باب الاختلاف باعتبار الأحوال؛ مثلاً: جاء عن بعضهم أنّ أفضل العمل التواضع، هذا في الحقيقة محمول على الحال؛ إذا احتيج إلى التواضع. أو يكون هذا الاختلاف راجعاً إلى الاتفاق؛ لأنّ الذي قال: (الأفضل العلم)، والذي قال: (الأفضل الذكر) ليس بينهما اختلاف؛ لأنّ العلم من الذكر، والذي قال: (الأفضل الجهاد)؛ مقصوده الجهاد مع الذكر، كما تقدّم تقريره عن ابن القيم رحمته الله. فلا يكون في الحقيقة هناك اختلاف حقيقي في أكثر كلام السلف.

قال شيخ الإسلام رحمته الله: (وما اشتبه أمره على العبد فعليه بالاستخارة المشروعة، فما ندم من استخار الله تعالى، وليكثر من ذلك، ومن الدعاء؛ فإنه مفتاح كل خير). ما أعظم هذه الجملة! الإنسان قد تشبه عليه الأمور في أمور دنياه، وما يتزاحم من أمور دينه من جنس واحد.

لاحظوا أنّا نقول: من أمور دنياه، قد يشبهه على الإنسان الأمر، هل يتزوج هذه المرأة المعينة أو لا يتزوجها؟ هل يتزوج الآن أو لا يتزوج؛ هل يشتري هذه السيارة أو لا يشتريها؟ لتزاحم أمور عنده، أو نحو ذلك من أمور الدنيا، وقد يحصل عنده اشتباه بين أمور دينه عند التزامه من جنس واحد.



شرح الوصية الصغرى

طبعاً ما طلب من الإنسان عيناً؛ هذا لا يقع فيه تراحم ولا يقع فيه اشتباه، لا يأتي إنسان يقول: أستخير هل أصلي في البيت أو أصلي في المسجد؟ من حيث الأصل. لكن قد يُبتلى الإنسان ببلية - نعوذ بالله من البلاء - فيحتاج إلى هذا؛ مثلاً يكون في بلد يتسلط فيه الشرط على من يصلي صلاة الفجر في المسجد، ويمكن أن يؤخذ ويُسجن أياماً، أو نحو ذلك، وهو متردد يقول: ممكن أخرج لا أجد أحداً، ويمكن أخرج وأجد من يؤذيني، في هذا الحال تأتي مسألة الاستخارة ليعرف الأصلح؛ لأنه هنا يجوز له أن يصلي في بيته إذا غلب على ظنه أنه إذا خرج إلى المسجد يؤذى أذى بالغاً؛ كأن يُسجن أياماً فلا يصلي هذا الأيام كلها في المسجد! فإنه يجوز له أن يصلي الفجر في بيته ولا إشكال فيه، لكن إذا تردد الإنسان هل يوجد أحد أو لا يوجد؟ هل يحصل أذى أو لا يحصل؟ يأتي هنا موضوع الاستخارة.

كذلك مثلاً إذا أراد الإنسان أن يختار عملاً فاضلاً من الأعمال الفاضلة، ولم يتبين له؛ فهنا أيضاً تأتي الاستخارة.

ولذلك ذكرها شيخ الإسلام **رحمته الله** هنا لما ذكر أفضل الأعمال، وأنها تختلف باختلاف الأحوال والأشخاص والأزمان، فقد يشتبه الأمر على الإنسان فيستخير، ويطلب خيرة الأمور.

أمّا الأفعال الواجبة من حيث هي، والأفعال المحرمة من حيث هي؛ فليس فيها استخارة، لا يأتي إنسان يقول: أستخير الله أعفي لحيّتي أو لا أعفي لحيّتي؟ ليس هنا استخارة؛ لأنّ الخيرة قد بانت بأمر الله **وعجل**: «أعفوا للحي»^(١)، «وفروا للحي»^(٢)، «ارخوا للحي»^(٣) كلّها أحاديث صحيحة عن النبي **صلّى الله عليه وآله**.

(١) أخرجه البخاري في «الصحيح» كتاب: اللباس باب تقليم الأظفار، رقم: (٥٨٩٣).

(٢) المصدر السابق، رقم: (٥٨٩٢).

(٣) أخرجه مسلم في «الصحيح» كتاب: الطهارة، رقم: (٢٦٠).

مثال ذلك: إنسان تقول له زوجته: احلق لحيتك، ونبيه ﷺ يقول له: إغف؛ فيقول: أستخيرُ أطيع الرسول ﷺ أو أطيع زوجتي؟! هنا لا تأتي الاستخارة لأنَّ الخيرةَ بيّنة واضحة، وإنما الاستخارة طلب خير الأمرين عند الاشتباه. فمن اشتبه عليه ما هو أصلح له من أمور دنياه أو من أفضل الأعمال الصالحة التي هي النوافل؛ فليطلب معرفة الخير له منها بالاستخارة. والاستخارة مشروعة، وقد كان النبي ﷺ، يُعَلِّم أصحابه الاستخارة في الأمور كلّها كما يُعَلِّمهم السورة من القرآن.

يقول ﷺ: «إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ» والهم: هو الميل مع تردّد، فإذا مال الإنسان في أمر من أمور دنياه مع تردّد «فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسمّيه - خير لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال: في عاجل أمري وآجله - فاقدره لي، ويسّره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال: في عاجل أمري وآجله - فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به» رواه البخاري في الصحيح^(١).

وظاهر الحديث أن الدعاء يكون بعد الصلاة، وبعض أهل العلم قال: دعاء الاستخارة يكون في الصلاة، لأن القاعدة العامة أن الدعاء في الصلاة خير منه بعدها؛ يعني خير منه في خارجها.

لكن النص هنا ظاهر في الترتيب؛ قال: «ثم»، فالظاهر - والله أعلم - أن دعاء الاستخارة يكون بعد الفراغ من الصلاة.

(١) «صحيح البخاري» كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ﴾، رقم: (٧٣٩٠).



شَرْحُ الْوَصِيَّةِ الصُّغْرَى

وقد ذكر أهل العلم أنَّ الإنسان إذا استخار تبين له الخير بأمور:

منها: أن يَتيسَّر الأمر، وَيَسْهَل بعد أن كان صعبًا، تزول العوائق وتيسر الأمور؛ فهذا دليل على أن الخير فيه.

ومنها: أن ينشرح الصدر، مثلاً لو كان الإنسان متردداً بين أمرين، واستخار فيهما، فرأى صدره منشرحاً لأحدهما دون الآخر، فإنَّ هذا علامة على الخير.

وقد يقع للإنسان أن يرى رؤية صالحة، يتبين له بها الخير، لكنَّ هذا ليس بلازم، لأنَّ بعض الناس يسألنا، ويقول: أنا استخرتُ مائة مرة ولم أَر رؤيا؟! ليس بلازم: أن ترى رؤيا، بل قد يكون ذلك - كما قلنا - بتيسر الأمر، يعني مثلاً قد تستخير في نكاح امرأة أنت مترددٌ في نكاحها؛ لقلّة ذات يدك أو نحو ذلك، فإذا بك لما أصبحتَ يتصل بك رجل ويقول: مهرك عليّ إن تزوجتَ، فهذه علامة الخير في الأمر؛ لأنه تيسر وسهل.

قوله **رَحِمَهُ اللهُ**: (وليُكثر من ذلك، ومن الدعاء) أي: لِيُكثر من طلب معرفة خير الأمرين بالاستخارة، ولا يميل ذلك، وليس المقصود الوسوسة؛ بحيث يكرّر الإنسان الاستخارة في الأمر الواحد مراراً كثيرة، وإنما المقصود أن يُكثر منها في أموره، وألا يدعها؛ بل كلّما دعت الحاجة إليها استخار، فإنَّ هذا من دأب الصالحين، وما ندم أبداً من طلب الخير من ربه **سُبْحَانَهُ**.

قوله **رَحِمَهُ اللهُ**: (فإنه مفتاح كل خير) على العبد أن يكثر عند الاشتباه من الدعاء؛ فإنه مفتاح كل خير، لا شك أنه لا خير للعبد إلا بعون الله، فيدعو العبد ربه **سُبْحَانَهُ**، ويسأله العون والهداية إلى الخير والثبات عليه.

والدعاء شأنه عظيم، الدعاء هو العبادة، فقد جعله الله **وَعَجَّلَ** مكان العبادة، قال الله **وَعَجَّلَ**: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، [غافر: ٦٠] ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾، [البقرة: ١٨٦].

وقال النبي **ﷺ**: «الدعاء هو العبادة» رواه الأربعة، وقال ابن حجر: سنده جيد، وصححه الألباني^(١).

وقال **ﷺ**: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء» رواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الحاكم، والألباني^(٢).

فالدعاء منزلته عند ربنا **ﷻ** عظيمة، وعند المؤمنين، ولذلك يُكثر العبد من الدعاء، ولا يملّ هذا، وإذا اشتبه عليك الأمر فاسأل الله متجردًا: (اللهم اهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنك)، والمؤمن المتجرد يسأل الله ذلك.

كان هناك رجل يخالف السنة، فحدث في هذا، وبُيِّنَتْ له الأدلة فأبى، فقيل له قل: (اللهم اهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنك)، فأبى! وهذا -والعياذ بالله- من طاعة الشيطان، لأن الشيطان لا يريد للإنسان أن يعرف الخير أبدًا.

(١) «السنن» لأبي داود، كتاب: الصلاة، باب: الدعاء، رقم: (١٤٧٩)، و«الجامع» للترمذي، أبواب: تفسير القرآن، باب: وسورة المؤمن، رقم: (٣٢٤٧)، و«السنن الكبرى» للنسائي، كتاب: التفسير، باب: سورة غافر، رقم: (١١٤٠٠)، و«السنن» لابن ماجه، أبواب: الدعاء، باب: فضل الدعاء، رقم: (٣٨٢٨)، وانظر «صحيح أبي داود الأم».

(٢) «الجامع» للترمذي، أبواب: الدعوات، باب: ما جاء في فضل الدعاء، رقم: (٣٣٧٠)، و«السنن» لابن ماجه، أبواب: الدعاء، باب: فضل الدعاء، رقم: (٣٨٢٩)، و«المستدرک» للحاكم، كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر (١/٤٩٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» و«صحيح ابن ماجه».



شرح الوصية الصغرى

فينبغي للإنسان إذا كانت عنده أمور مشتبهة لم تتبين له؛ أن يسأل الله أن يُبينها له، وإذا اشتبه عليه أمران أيهما أحسن؛ أن يسأل الله **عَجَلًا** أن يُبين له الأحسن والأفضل، وهكذا.

قال شيخ الإسلام **رحمته الله**: (ولا يعجل فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي).

الدعاء عبادة؛ فلا ينبغي للعبد أن يملّ العبادة.

بل الدعاء - كما قال العلماء - يحتاج إلى صبر؛ فينبغي على المسلم أن يداوم على الدعاء ولا يملّ؛ لأنّ الدعاء ليس مجرد سؤال، الدعاء عبادة، فأنت تعبد الله بالدعاء؛ فكيف تملّ عبادة الله؟! عبادة وفيها سؤال، وقد وعدت الإجابة ما لم تعجل، ولله حكمة، قد يكون الله أراد أن يرفع منزلتك وأن يزيد حسناتك بالدعاء فتأخر الإجابة؛ فتكثر من الدعاء؛ فتجتمع لك الفضيلتان: الأجر الكثير، وإجابة الدعوة، فلا تعجل.

والنبي **صلوات الله عليه** يقول: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل» كيف يعجل؟ «يقول: دعوت فلم يستجب لي» والحديث في «الصحيحين»^(١)، فينبغي للإنسان أن يتنبّه لهذا الأمر.

قال شيخ الإسلام **رحمته الله**: (وليتحرّ الأوقات الفاضلة: كآخر الليل، وأدبار الصلوات، وعند الأذان، ووقت نزول المطر، ونحو ذلك).

من آداب الدعاء وأسباب الإجابة: الحرص على الدعاء في أوقات فاضلة.

الله كريم، ويُرجى أن يُجيب دعوة داعيه في أيّ وقت؛ لكن هنالك أوقات يعظم فيها الرجاء، ويزداد الأمل في أن يُجاب الدعاء؛ كآخر الليل؛ لما ورد أنّ

(١) «صحيح البخاري» كتاب: الدعوات، باب: يستجاب للعبد ما لم يعجل، رقم: (٦٣٤٠)، و«صحيح مسلم» كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، رقم: (٢٧٣٥).

رَبَّنَا وَعَالِيَهُ ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: «من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له»؟ متفق عليه^(١).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأدبار الصلوات) والمقصود بأدبار الصلوات في الدعاء: أي في آخر الصلوات، بدليل فعل النبي ﷺ، فإنه كان يدعو في آخر الصلاة، ويأمر بالدعاء في آخر الصلاة، جاء في الحديث: أن النبي ﷺ سُئِلَ: أي الدعاء أسمع؟ قال: «جوف الليل الآخر وأدبار الصلوات المكتوبات» رواه الترمذي وحسنه، وحسنه الألباني^(٢).

وكذلك (عند الأذان، ووقت نزول المطر)؛ يقول النبي ﷺ: «ثنتان لا تردان، أو قلما تُردان: الدعاء عند النداء، وعند البأس» يعني عند التحام القتال، رواه أبو داود وصححه الألباني^(٣).

وفي زيادة عند أبي داود «وقت المطر»؛ لكن الألباني ضعفها من طريق أبي داود، وحسنها من طرق أخرى^(٤).

وفي «صحيح الجامع» ذكر الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ لفظ: «ثنتان ما تردان: الدعاء عند النداء، ووقت المطر» وقال: حسن^(٥)، فوقت المطر من الأوقات التي ترجى فيها الإجابة.

(١) «صحيح البخاري» كتاب: التهجد، باب: الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم: (١١٤٥)، و«صحيح مسلم» كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، رقم: (٧٥٨).

(٢) «الجامع» للترمذي، أبواب: الدعوات، رقم: (٣٤٩٩) وحسنه الألباني فيه.

(٣) «السنن» لأبي داود، كتاب: الجهاد، باب: الدعاء عند اللقاء، رقم: (٢٥٤٠)، وانظر: «صحيح أبي داود الأم».

(٤) قال الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود الأم» عند رقم (٢٢٩٠): (قلت: حديث صحيح دون الزيادة، وقد صححه ابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم، والذهبي، وكذا ابن الجارود، وأما الزيادة فهي حسنة).

(٥) «صحيح الجامع» للألباني، رقم: (٣٠٧٨).

وهناك آداب أخر لمن أراد أن يجاب دعاؤه:

من تلك الآداب ما هو متعلق بحال الإنسان : كالحرص على دعاء الله في حال الرخاء فإن من أكثر الدعاء في حال الرخاء، رُجِيَ أن يستجاب له في حال الشدة، يقول النبي ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكُرْبِ؛ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرِّخَاءِ» رواه الترمذي، والحاكم وصححه، وحسنه الألباني^(١).

ومن آداب الدعاء: أَنْ تَحْرِصَ عَلَى جَوَامِعِ الْكَلِمِ، جَوَامِعِ الْكَلَامِ: الَّذِي يَجْمَعُ أَهَمَّ الْخَيْرِ وَأَنْ تَدْعَ مَا سِوَى ذَلِكَ، (فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ)، كَانَ يَسْتَحِبُّ الْجَوَامِعَ مِنَ الدُّعَاءِ، وَيَدْعُ مَا سِوَى ذَلِكَ) رواه أبو داود، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألباني^(٢).

وقال النبي ﷺ: لَأَمْنًا عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «عَلَيْكَ بِالْكَوَامِلِ وَالْجَوَامِعِ»^(٣).

وفي رواية: «عَلَيْكَ بِجَمَلِ الدُّعَاءِ وَجَوَامِعِهِ؛ قُولِي: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ مِمَّا سَأَلَكَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَعُوذُ بِكَ مِمَّا تَعَوَّذَ مِنْهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَمَا قَضَيْتَ لِي مِنْ قَضَاءٍ فَاجْعَلْ عَاقِبَتَهُ رُشْدًا» رواه الحاكم، وصححه الألباني^(٤).

(١) «الجامع» للترمذي، أبواب: الدعوات، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، رقم: (٣٣٨٢)، و«المستدرک» للحاكم (١/٧٢٩)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم: (٥٩٣).

(٢) «السنن» لأبي داود، كتاب: الصلاة، باب: الدعاء، رقم: (١٤٨٢)، و«المستدرک» للحاكم (١/٥٣٩)، وانظر: «صحيح أبي داود الأم» رقم: (١٣٣٢).

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» برقم (٢٥١٣٨) وقال الشيخ الأرناؤوط: (إسناده صحيح).

(٤) «المستدرک» للحاكم (١/٥٢١)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم: (١٥٤٢).

وانظري يا عبد الله كيف جاءت الجوامع، وقد ذكرتُ هذا الحديث لأبينَّ المراد بالجوامع، فإنَّ النبي ﷺ قال لها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «قولي: اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما عَلِمْتُ منه، وما لَمْ أَعْلَمْ»، لم يقل: قولي: اللهم إني أسألك الخير كله؛ لأنَّ الخير كله لا يُجمع لإنسان، ف(من) هنا تبعية، ولكن: «أسألك من الخير كله، عاجله» يعني في أمور دنيائي، «وآجله»: يعني في أمور الآخرة، «ما عَلِمْتُ منه وما لَمْ أَعْلَمْ»، فأحاط هذا السؤال بكل خير يليق بالسائل عِلْمَهُ أو لَمْ يَعْلَمْهُ، ولو كان المراد سؤال كل الخير لقال: أسألك الخير كله؛ لأنَّ الفعل يتعدى بنفسه.

«وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله»: وهنا لاحظ أنَّ الاستعاذة من الشرِّ كله؛ لأنَّ الإنسان يطلب السلامة من الشرِّ كله؛ ولذا قال: «اللهم إني أعوذ بك من الشرِّ كله عاجله وآجله ما عَلِمْتُ منه وما لَمْ أَعْلَمْ».

«وأسألك الجنة وما قَرَّبَ إليها من قول أو عمل» جَمَعَ طلب الخير، «وأعوذ بك من النار وما قَرَّبَ إليها من قول أو عمل، وأسألك مما سألك به محمد ﷺ، وأعوذ بك مما تعوذ منه محمد ﷺ، وما قضيت لي من قضاء فاجعل عاقبته رُشْدًا».

يعني من جوامع الكلم - يا عبد الله - أنك إذا دعوتَ تقول: مثلاً: (اللهم إني أسألك العافية)، والعافية تعني السلامة من كلِّ شرٍّ عاجل أو آجل؛ ولذلك أَمَرَ النبي ﷺ عمَّه العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا دعا أن يسأل الله العافية^(١).

وَمِنْ أدب الدعاء أن تحرص على جوامع الكلم، أمَّا التفصيل فهو نوع من الاعتداء كما سيأتي.

ومن آداب الدعاء: أنَّ الإنسان يبدأ الدعاء بالشَّاء على الله، ويصلي فيه على النبي ﷺ، يقول النبي ﷺ: «أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد

(١) رواه الترمذي في «الجامع»، أبواب الدعوات، باب، رقم: (٣٥١٤) وصححه الألباني فيه.



شرح الوصية الصغرى

لله»^(١)، فإذا جعلت في دعائك الثناء على الله، - كتحميد الله - فقد جعلت في دعائك أفضل الدعاء، وتكون قد جمعت بين نوعي الدعاء.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض، لا يصعد منه شيء، حتى تصلي على نبيك صلوات الله عليه» رواه الترمذي، وحسنه الألباني^(٢).

أيضاً من آداب الدعاء: أن تعزم، وألا تعلق بالمشيئة؛ لا تقل: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحم فلاناً إن شئت.

وليس من أدب الدعاء إذا دعا لك أحد، أن تقول: إن شاء الله، وإنما قل: آمين، فإذا قال أحدهم: جزاك الله خيراً؛ فقل: آمين، إذا قال: غفر الله لك؛ فقل: آمين، فإن من آداب الدعاء أن يُجزم فيه.

يقول النبي صلوات الله عليه: «لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، فإنه لا مُستكره له، وليعزم المسألة» رواه البخاري، وهو عند مسلم بمعناه^(٣).

وفي رواية: «إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة، ولا يقولن: اللهم إن شئت فأعطني، فإنه لا مُستكره له» والحديث في «الصحيحين»^(٤).

ومن آداب الدعاء: عدم الاعتداء فيه.

(١) «الجامع للترمذي، أبواب: الدعوات، باب: ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، رقم: (٣٣٨٣) و«السنن» لابن ماجه، أبواب: الأدب، باب فضل الحامدين، رقم: (٣٨٠٠)، وانظر «السلسلة الصحيحة»، رقم: (١٤٩٧).

(٢) «الجامع للترمذي» أبواب: الوتر، باب: باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي صلوات الله عليه رقم: (٤٨٦)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم: (٢٠٣٥).

(٣) «صحيح البخاري» كتاب: التوحيد، باب في المشيئة والإرادة، رقم: (٧٤٧٧)، و«صحيح مسلم»، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم: (٢٦٧٩).

(٤) «صحيح البخاري» كتاب: الدعوات، باب: ليعزم المسألة فإنه لا مُكره له، رقم: (٦٣٣٨)، و«صحيح مسلم»، كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، رقم: (٢٦٧٨).

وشرُّ الاعتداء: أن يعلّق العبد قلبه بغير الله؛ فيُشرك في قلبه؛ فيجعل دعاءه لله ولغير الله؛ وهذا شركٌ أكبر، فالله **وَعَلَى** يقول: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

ومن الاعتداء: الابتداءُ في الدعاء؛ بأن يدعو الإنسان على هيئة مبتدعة، أو أن يأتي بأمور مبتدعة في الدعاء.

ومن الاعتداء في الدعاء، ما يقع فيه بعض الأئمة، من كونهم يُعجبهم الكلام فيُفصلون، فيأتي أحدهم فيقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من دُوده، وأعوذ بك من كذا، وكذا، ثم يأتي عند ذكر الجنة يقول: وأسألك الجنة وما فيها من كذا وما فيها من كذا، وأعوذ بك من النار، وما فيها من السلاسل والأغلال، وما فيها من كذا، وما فيها من كذا، كلُّ هذا من الاعتداء، وقد قال النبي **ﷺ**: «سيكون قومٌ يعتدون في الدعاء». رواه أبو داود، وابن ماجه، وصحَّحه الألباني^(١).

وجاء عن ابنٍ لسعد **رضي الله عنه** أنه قال: (سمعتني أبي وأنا أقول: اللهم إني أسألك الجنة، ونعيمها، وبهجتها، وكذا، وكذا..) أي: التفصيل في النعيم (وأعوذ بك من النار، وسلاسلها، وأغلالها، وكذا، وكذا) أي: التفصيل في العذاب، فقال: يا بني! إني سمعتُ رسول الله **ﷺ** يقول: «سيكون قومٌ يعتدون في الدعاء»؛ فإياك أن تكون منهم، إن أُعطيَت الجنة أُعطيَتها وما فيها، وإن أُعذت من النار أُعذت منها وما فيها) رواه أبو داود، وصحَّحه الألباني^(٢).

(١) «السنن» لأبي داود، كتاب: الصلاة، باب: الدعاء، رقم: (١٤٨٠)، و«السنن» لابن ماجه، أبواب: الدعاء، باب: كراهية الاعتداء في الدعاء، رقم: (٣٨٦٤)، وانظر: «صحيح أبي داود الأم».

(٢) «السنن» لأبي داود، كتاب: الصلاة، باب: الدعاء، رقم: (١٤٨٠)، وانظر: «صحيح أبي داود الأم» للألباني.



شرح الوصية الصغرى

كذلك جاء عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه أنه سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض على يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: أي بني، سل الله الجنة وتعوذ به من النار، فإني سمعتُ النبي صلّى الله عليه وآله يقول: «إنه سيكون في هذا الأمة قومٌ يعتدون في الطهور والدُّعاء» رواه أبو داود، وصحّحه الألباني ^(١).

ومن آداب الدعاء: عدم التكلّف في اختيار كلماته، فبعض الناس إذا دعا يتكلّف السجع في الدعاء تكلّفاً؛ وهذا ليس من أدب الدعاء، لكن لا بأس أن تكون رؤوس الكلمات متوافقة من غير تكلّف؛ فإنّ هذا ورد في دعاء النبي صلّى الله عليه وآله. فما يطيب في السمع من غير تكلّف لا بأس به، لكنّ السجع المتكلّف بحيث يتكلّف الإنسان أن يأتي بنهايات تتفق مع بعضها في الدعاء؛ فهذا ليس من آداب الدعاء.

وقد قالت أمّنا عائشة رضي الله عنها: (واجتنب السجع في الدعاء؛ فإنّي عهدتُ النبي صلّى الله عليه وآله، وأصحابه يكرهون ذلك) رواه ابن حبان، وقال الألباني: صحيح لغيره ^(٢).

أيضاً من آداب الدعاء: أن تکرّر الدعاء ثلاثاً؛ فإنّ النبي صلّى الله عليه وآله (كان إذا دعا دعا ثلاثاً)؛ كما في «صحيح مسلم» ^(٣) والنبي صلّى الله عليه وآله كان إذا تكلم، تكلم ثلاثاً، وكان إذا دعا، دعا ثلاثاً.

و من آداب الدعاء: أن تحرص - يا عبد الله - على الحلال، في مأكلك ومشربك وملبسك، تحرص على أن تكون مكتسباً للحلال ومنقفاً للحلال، فإنّ النبي صلّى الله عليه وآله

(١) «السنن» لأبي داود، كتاب: الطهارة، باب: الإسراف في الماء، رقم: (٩٦)، وانظر: «صحيح أبي داود الأم» للألباني.

(٢) «الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان» لابن بلبان، رقم: (٩٧٨)، وانظر: «التعليق على الإحسان» للألباني عند الموضع السابق.

(٣) «صحيح مسلم» كتاب: الجهاد والسير، رقم: (١٧٩٤).

ذكر «الرجل أشعث أغبر» يعني أنّ حالته متغيّرة؛ وهذا يُرجى أن يُجاب دعاؤه «يُطيل السفر، يمدّ يديه إلى السماء: يا ربّ يا ربّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، فأنيّ يُستجاب لذلك!»^(١).

يعني هذا الرجل وُجِدَتْ فيه أسباب إجابة الدعاء؛ فهو مسافر، أشعث، أغبر، يرفع يديه، ولكن وُجِدَ فيه المانع؛ وهو أنّ مطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، فأنيّ يُستجاب لذلك؟!

ومن آداب الدعاء: رفع اليدين في الدعاء؛ للحديث المتقدم معنا قبل قليل؛ ولقول النبي ﷺ: «إنّ ربكم تبارك وتعالى حييّ كريم، يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً» رواه أبو داود، والترمذي، وصحّحه الألباني^(٢).

وقد قال العلماء: إنّ الدعاء من جهة رفع اليدين فيه ثلاثة أحوال:

الحال الأولي: يكون رفع اليدين فيه بدعة غير مشروعة؛ وذلك في كلّ موضع دعا فيه النبي ﷺ ولم يرفع يديه، مثل الدعاء في الخطبة لغير الاستسقاء، فإنّ رفع اليدين إذاك بدعة، لأنّ النبي ﷺ دعا ولم يرفع.

ومثل الدعاء عند الطواف بالكعبة؛ فإنّ رفع اليدين حال الطواف بالكعبة بدعة، ومثل رفع اليدين في المسعى عند الدعاء؛ فإنّ رفع اليدين إذاك بدعة؛ لأنّ النبي ﷺ دعا في هذا المواطن ولم يرفع.

الحال الثانية: يكون رفع اليدين سنة فوق كونه سبباً من أسباب الإجابة؛ وذلك في كلّ موطن دعا فيه النبي ﷺ ورفع يديه، مثل: الدعاء إذا صعد الإنسان على

(١) أخرجه مسلم في «الصحیح» كتاب: الزكاة، رقم: (١٠١٥).

(٢) «السنن» لأبي داود، كتاب: الصلاة، باب: الدعاء، رقم: (١٤٨٨)، و«الجامع» للترمذي كتاب: الدعوات، رقم: (٣٥٥٦)، وصحّحه الألباني فيهما.

الصفاء وعلى المروة، ومثل الدعاء بعد رمي الجمرة الصغرى والوسطى، ومثل الدعاء حال الاستسقاء في الخطبة؛ فهنا رَفَعَ اليدين سنة.

الحالة الثالثة: أن يكون رفع اليدين مستحباً لكونه سبباً من أسباب إجابة الدعاء؛ وذلك في كل موطنٍ لَمْ يُنْقَلْ عن النبي ﷺ حالٌ في الدعاء.

مثل الدعاء بين الأذان والإقامة؛ بين النبي ﷺ أن الدعاء بين الأذان والإقامة لا يُردُّ^(١)؛ لكن لَمْ يُنْقَلْ لنا أن النبي ﷺ دعا؛ فهنا يكون رفع اليدين مستحباً؛ لهذا الحديث الذي معنا، والحديث الآخر «يُدُّ يديه إلى السماء»^(٢)، وهذا الحديث «إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفراً»^(٣).

وهذا الشأن في تقسيم أنواع الدعاء بالنسبة لرفع اليدين.

ومن أعظم آداب الدعاء: ألا تجرّب الله ﷻ؛ بل تتيقّن الإجابة، وتُقبِلَ بقلبك، فإن النبي ﷺ قال: «ادعوا الله وأنتم موقنون الإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه» رواه الترمذي، وحسنه الألباني^(٤).

بعض الناس مساكين يقول: ادعُ يا أخي إن لَمْ ينفعك لا يضرك! وهذا القول لا يصلح في الدعاء، بل نحن نجزم أن الدعاء إذا فُعِلَ على الوجه المشروع ينفع، وأن الإجابة حاصلة، إمّا بإجابة نفس الدعاء أو بادّخار خير أو بصرف شر.

(١) «السنن» لأبي داود، كتاب: الصلاة، باب: ما جاء في الدعاء بين الأذان والإقامة، رقم: (٥٢١)، و«الجامع» للترمذي، أبواب: الصلاة، باب: ما جاء في أن الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة، رقم: (٢١٢)، وانظر: «صحيح أبي داود الأم» للألباني.

(٢) تقدّم: أنفأ.

(٣) تقدّم: أنفأ.

(٤) «الجامع» للترمذي، أبواب: الدعوات، رقم: (٣٤٧٩)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم: (٥٩٤).

ومن آداب الدعاء: أن تقبل بقلبك؛ بعض الناس يدعوا وربما يتكلم ثم يعود للدعاء؛ ثم يتكلم ثم يعود للدعاء من غير إقبال قلب!

ومسألة عدم إقبال القلب هذه آفة عندنا في هذا العصر، حتى الصلاة أصبحنا نصلي في غالب الحال وقلوبنا غير مقبلة، كم واحد منا في صلوات اليوم التي مرّت قريبة كبرّ مع الإمام ثم خشع إلى أن سلّم الإمام؟ الواحد منا يكبرّ ليعيش في الدنيا ويسبح في أحلام الخيال حتى يُسلّم، حتى كثر فينا الوسواس وكثر فينا الخلل في الصلاة، بل إنَّ بعضنا قد لا يدرك هل صلى الإمام أربعاً أو صلى واحدة! بعضنا أصبح يصلي مع الإمام كأنه آلة بحسب صوت الإمام إذا قال الإمام: (الله أكبر) جلس، وإذا أخطأ الإمام مرة وقال: (الله أكبر) عند القيام من الركوع، يجلس، لأنه لا يشعر بصلاته، وإنما أصبح يتبع الصوت!

وهذا في الحقيقة خلل عظيم، يحتاج منا إلى وقفة، أن نقف مع حالنا مع ربّنا، لماذا أصبحت قلوبنا لا تُقبل على العبادة كما ينبغي؟ لابد أن نعالجها.

كذلك في الذكر أصبح كثيرون منا لا يُقبلون بقلوبهم وهم يذكرون الله، تجد أن الواحد منا تسمع منه صفيراً فقط؛ أستغفر الله أستغفر الله، يمشي كأنه ما قال شيئاً.

حتى الدعاء ونحن نسأل الله حاجتنا، أصبح الواحد منا يدعو، وربما لا يدرك ما يدعو، ندعو في الطواف كأننا فقط لإنهاء الوقت وتمضية الوقت! ربما ينقلب الدعاء على الواحد منا وهو لا يشعر! لأنّ القلوب غير مقبلة.

وهذا الأمر يحتاج إلى علاج، ويحتاج إلى مصابرة، والجنة غالية، الجنة لا تنال بأدنى سبب، الجنة تنال بفضل الله ورحمته، وسبب نيل فضل الله ورحمته أن نُقبل على الله، ونجتهد، ونصبر، ونصابر.

ينبغي أن نجالد أنفسنا، ونجاهدها، إذا كبرت (الله أكبر) أحضر نفسي، وإذا خرجت أعدتها، وأصبر على هذا، وأنا في خير عظيم، وهكذا في الذكر والدعاء.

هذه بعض آداب الدعاء، التي من لزمها رُجي أن تكون الإجابة قريبة له، وإن كان الأمر - كما ذكرنا سابقاً - أن الله قريب من عباده يجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

ثم شرع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله في بيان أرجح المكاسب، فقال: **(وأما أرجح المكاسب: فالتوكل على الله، والثقة بكفايته، وحسن الظن به).**

قال: (وأرجح المكاسب) أي: أفضل المكاسب في الرزق وخيرها، هذا من وجه.

ومن وجه آخر: سبب حصولها.

ومن وجه ثالث: سبب بركتها.

ومن وجه رابع: سبب القناعة بها.

لأن الإنسان في الرزق يحتاج أن يعرف هذه الأمور، يحتاج أن يعرف أفضل المكاسب وخيرها، ويحتاج أن يعرف سبب حصولها الشرعي، ويحتاج أن يعرف سبب بركتها، ويحتاج أن يعرف سبب القناعة بها؛ لأن الرزق لن تسعد به، ولن تهناً به، إلا إن حصل من طريق حلال، وبارك الله فيه، وقنعك به، ومن حرم واحداً من هذا الثلاثة، فقد حرم الخير في الرزق.

فالمؤمن الموفق يحرص على أن يعرف أفضل المكاسب، وسبب حصولها، وأن يعرف سبب بركتها؛ كيف يبارك الله فيها وأن يعرف سبب القناعة بها، وهذا هو السؤال الذي سأل به أبو القاسم السبتي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله.

ولذلك ستجد أن شيخ الإسلام ابن تيمية بدأ الكلام في أرجح المكاسب عن أمرٍ من لم يدرك ما ذكرناه يستغرب؛ ويقول: الكلام عن الكسب وأفضل المكاسب! وشيخ الإسلام هنا يقول: (فالتوكل على الله، والثقة بكفايته، وحسن الظن به) هذا سبب الخير في الرزق؛ أن تتوكل على الله سُبْحَانَهُ.

والتوكل على الله: يعني تفويض الأمر إلى الله سُبْحَانَهُ، والاعتماد عليه، **﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾** [الطلاق: ٣]، فمن توكل على الله وسلم أمره إلى الله فإن الله حافظه في أموره كلها **﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾** [الزمر: ٣٨] أي: قل حسبي الله مما سواه، فإليه أفزع في أموري كلها، فالله هو الكافي، وبيده الضّر والنفع، لا بيد غيره.

فإذا جمّع طالب الرزق بين تقوى الله والتوكل عليه، فقد حصل الخير **﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾** **﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾**، [الطلاق: ٢-٣] الذي يتوكل على الله، فيبذل الأسباب مفوضاً أمره إلى الله، معتمداً على ربه، عالماً أن الأسباب إنما هي من رحمة الله بالعباد، وإلا فالأمر كله بيد الله، إن شاء أمضى الأسباب، وإن شاء عطلها.

ولذلك ذكر بعض أهل العلم أن من حكّم سحر النبي ﷺ حيث سحر في أمور دنياه، أمّا دينه فلم ينله شيء، مع كونه ﷺ كان محافظاً على الأذكار، قالوا: من حكّم ذلك أن يعلم العباد أن الأمر كله بيد الله، وأن الأسباب إنما جعلها الله رحمة للعباد؛ فتفعل ولا يتعلّق بها، وإنما يتوكل على الله، **﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾** من كل ضيق في الدنيا والآخرة، **﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾** يأتيه الرزق من حيث لا يحتسب، ويبارك له فيه، ويقنّع به.

ولذلك طالب الرزق ينبغي أن يجمع: تقوى الله، والتوكل على الله، والثقة بكفائته، أي يفوض المسلم أمره لله **وَعَجَّلْ** فيما يُقدم عليه من طلب الرزق؛ ثقةً بالله واعتماداً على الله **﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾** [الزمر: ٣٦] الله **وَعَجَّلْ** كافٍ عبده، وفي قراءة حمزة والكسائي **﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾**، فالله **وَعَجَّلْ** يكفي عباده في إزالة الشر وإنالة الخير.

بعض الناس يقول: أنا سأذهب إلى السوق، وأنا واثق بنفسي واثق بقدراتي! بعض الناس يأتي يقول: المشكلة عندي أنه ليس عندي مال، وإلا فأنا واثق بقدراتي على الكسب وهذا خطأ! الموفق يثق بالله **وَعَجَّلْ** ويفعل الأسباب ولا يكون متردداً في أموره إذا قَدَّمَ الأسباب الصحيحة.

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (التوكل على الله، والثقة به، وحُسن الظن به)، عند دخول العبد في أمر يطلب الكسب منه، فإنه ينبغي أن يكون قلبه ممتلئاً بحسن الظن بالله **وَعَجَّلْ** وأن الله رزاق كريم، فمن توكل على الله وفوض أمره إليه واثقاً بكفاية الله محسناً الظن بالله مكثراً دعاء الله مكثراً من طاعة الله؛ فإنه ييسر له الرزق، ويبارك له فيه، الله **وَعَجَّلْ** يقول: **﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾**، بعض الناس يدخل في تجارة، ويقول: سأحاول، وأنا أعرف حظي، يعني يدخل التجارة وهو مليء بالإحباط، وأنه سيخسر، يقول: على كلِّ حال محاولة، وإلا فأنا عارف حظي! نقول: هذا خطأ، الموفق يدخل فيما يدخل فيه من عمل يطلب به الرزق، وقلبه ممتلئ حسن ظن بالله.

يقول النبي **ﷺ**: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي» رواه البخاري ومسلم^(١).

(١) «صحيح البخاري» كتاب: التوحيد، باب: قول الله تعالى: **﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾** . . . ، رقم: (٧٤٠٥)، و«صحيح مسلم» كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، رقم: (٢٦٧٥).

وفي رواية لمسلم: «إِنَّ الله يقول: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا دعاني»^(١)،
وبين حسن الظن والدعاء ارتباط وثيق.

فمن حسن الظن بالله أن تدعو الله، فإذا أردت - يا عبد الله - أن تُيسرَ أمورك
في طلب الرزق، فعليك أن تتسلح بتقوى الله والتوكل على الله والثقة بكفاية الله
وحسن الظن بالله، والإكثار من الدعاء، فهذا هو مفتاح التوفيق في طلب الرزق،
وهذا ما ينبه عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله.

قال شيخ الإسلام رحمته الله: (وذلك أنه ينبغي للمهتم بأمر الرزق أن يلجأ فيه إلى
الله ويدعوه).

هذا بيان لما تقدّم؛ وهو أنه ينبغي للعبد المسلم أن يُحسنَ ظنه بالله إذا أراد
الرزق، ويتوكل عليه، ويشق بكفايته، ويُقدّم التقوى، ويكثر من الطاعة، الطاعة
سبب للرزق، فليكثر طالب الرزق من الطاعة، فإن النبي صلّى الله عليه وآله قال: «إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا
عَمِلَ حَسَنَةً أَطْعِمَ بِهَا طُعْمَةً فِي الدُّنْيَا» يُرْزَقُ بِهَا رِزْقًا فِي الدُّنْيَا، «وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ
اللَّهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ» رواه مسلم في
«الصحيح»^(٢).

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّ اللَّهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ، أَي: لَا تَذْهَبُ فِي الدُّنْيَا مِثْلُ
الْكَافِرِ، وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا عَلَى طَاعَتِهِ، فَمِنْ أَسْبَابِ الرِّزْقِ أَنْ يُكْثِرَ الْإِنْسَانُ مِنْ طَاعَةِ
اللَّهِ سُبْحَانَهُ.

(١) «صحيح مسلم» كتاب: الذكر والدعاء والتوبة، رقم: (٢٦٧٥).

(٢) «صحيح مسلم» كتاب: صفات المنافقين وأحكامهم، رقم: (٢٨٠٨).

جاء في «الصحيحين»: أن نفراً من صحابة رسول الله ﷺ كانوا في سرية ناحية البحر، خرجوا في طاعة، وكان زادهم قليلاً فنقد زادهم بعدما اشتركوا فيه، فألقى البحر حوتاً عجيباً كبيراً على الساحل، وأخذوا يأكلون منه شهراً.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (كما قال - سبحانه - فيما يَأْثُرُ عَنْهُ نَبِيهِ ﷺ): «كلكم جائع إلا من أطعمته؛ فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته؛ فاستكسوني أكسكم»^(١).

وهذا الحديث الذي ذكره شيخ الإسلام رحمه الله، رواه مسلم في «الصحيح» وفيه أمر العبد بسؤال الله حاجته، أي: فليتوكل على الله، حتى يستغني بسؤال الله ﷻ، عن سؤال الخلق، حتى السؤال المباح، فإن هذا من حسن التوكل على الله ﷻ.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: (وفيما رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها، حتى شسع نعله إذا انقطع؛ فإنه إن لم ييسره لم ييسر»، وقد قال الله - تعالى - في كتابه: ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢].

قال رسول الله ﷺ: «ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها» يعني حتى في أمور دنياه «حتى شسع نعله إذا انقطع»، الشسع: هو شراك النعل، «فإنه إن لم ييسره لم ييسر» صححه بهذا اللفظ السيوطي^(٢)، ورواه دون قوله «فإنه إن لم ييسره لم ييسر» والترمذي^(٣)، والظاهر، والله أعلم أنه ضعيف الإسناد.

(١) «صحيح مسلم» كتاب: البر والصلة والآداب، رقم: (٢٥٧٧).

(٢) «الجامع الصغير» رقم: (٧٥٤٤).

(٣) «الجامع» للترمذي، أبواب: الدعوات، باب: ليسأل الحاجة مهما صغرت، رقم: (٣٦٠٤) و«صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان» كتاب الرقائق، باب الأدعية، (٣/١٤٨) رقم: (٨٦٦) وانظر: «السلسلة الضعيفة» للألباني، رقم: (١٣٦٢).

أَمَّا زِيَادَةُ «فَإِنْ لَمْ يَسِّرْهُ لَمْ يَتَسَّرْ» لَيْسَتْ مِنْ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ؛ وَإِنَّمَا مِنْ قَوْلِ أَمَّا عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَقَدْ رَوَى ذَلِكَ أَبُو يَعْلَى عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ^(١).

قَوْلُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَدْ قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - فِي كِتَابِهِ: ﴿وَسَئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢]).

لِلْعُلَمَاءِ فِي الْمَرَادِ بِالْفَضْلِ هُنَا قَوْلَانِ:

الْقَوْلُ الْأَوَّلُ: أَنَّ الْفَضْلَ هُوَ الطَّاعَةُ؛ يَعْنِي وَاسَأَلُوا اللَّهَ الطَّاعَةَ؛ أَيِ: الْعَوْنِ عَلَيْهَا.

وَالْقَوْلُ الثَّانِي: أَنَّ الْمَقْصُودَ بِالْفَضْلِ هُنَا: الرِّزْقُ. وَهَذَا مِنْ اخْتِلَافِ التَّنَوُّعِ؛ فَلَا مَانِعَ مِنْ إِرَادَةِ الْأَمْرَيْنِ؛ ﴿وَسَئَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَيِ: سَلُوا اللَّهَ الطَّاعَةَ، وَالْإِعَانَةَ عَلَيْهَا، وَسَلُوا اللَّهَ الرِّزْقَ، فَهَذَا يُسَمَّى عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِاخْتِلَافِ التَّنَوُّعِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَالَ سَبْحَانَهُ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [الجمعة: ١٠] وَهَذَا وَإِنْ كَانَ فِي الْجُمُعَةِ فَمَعْنَاهُ قَائِمٌ فِي جَمِيعِ الصَّلَوَاتِ).

مَعْنَى ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾: اطْلُبُوا الرِّزْقَ الْحَلَالَ مِنَ اللَّهِ، عَلَى أَحَدِ الْأَقْوَالِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ.

وَلِذَلِكَ مِنْ فِقْهِ الْإِمَامِ الْبُخَارِيِّ - وَهُوَ مِنْ كِبَارِ فَقْهَاءِ الْأُمَّةِ - وَفَقْهَهُ يَظْهَرُ فِي تَرَاجُمِهِ أَنَّهُ بَوَّبَ فَقَالَ: (بَابُ الْخُرُوجِ فِي التَّجَارَةِ؛ وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَإِنْ تَشَرُّوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾، فَفَهِمَ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: الْإِذْنَ فِي الْخُرُوجِ فِي التَّجَارَةِ وَالسَّفَرِ، وَهَذَا مِنْ فِقْهِ الْإِمَامِ الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

(١) «مُسْنَدُ أَبِي يَعْلَى الْمُوصِلِيِّ» رَقْمُ: (٣٥٦٠).



شرح الوصية الصغرى

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (وهذه - وإن كان في الجمعة - فهو قائم في جميع الصلوات) أي: أن الحكمة فيه موجودة في جميع الصلوات.

قال شيخ الإسلام **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (ولهذا - والله أعلم - أمر النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، الذي يدخل المسجد أن يقول: «اللهم افتح لي أبواب رحمتك»، وإذا خرج أن يقول: «اللهم إني أسألك من فضلك»^(١)).

لأن الإنسان إذا دخل المسجد، فهو يدخل للعبادة التي يُرجى أن تكون سبباً لرحمة الله؛ فيدخل الإنسان الجنة؛ لأنه لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»^(٢)، فإذا دخل الإنسان المسجد فإنه يدخل ليعبد الله؛ رجاء رحمة الله، فناسب أن يسأل الرحمة، وإذا خرج فإنه يخرج للدنيا وطلب الرزق؛ فناسب أن يسأل الله من فضله **سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ**.

قال شيخ الإسلام **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (وقد قال الخليل **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: ﴿قَابَنُغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾، وهذا أمر، والأمر يقتضي الإيجاب، فالاستعانة بالله واللجوء إليه في أمر الرزق وغيره أصل عظيم).

وهذا أمر واجب؛ أنه يجب على الإنسان أن يستعين بالله في أموره كلها، وأن يتبرأ من حوله في الأمور كلها، ولا يجوز أن يعتقد الإنسان طرفة عين أنه قادر على تحصيل خير لنفسه دون عون الله **سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ**، وهذا معنى قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (هذا أمر، والأمر يقتضي الإيجاب) أنه يجب على العبد أن يستعين بالله في أموره كلها؛ معتقداً أن الخير كله بيد الله، وأنه لا يحصل له خير إلا بإذن الله **سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ**، وأمره.

(١) أخرجه مسلم في «الصحيح» بنحوه مُختصراً، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، رقم: (٧١٣).

(٢) تقدّم تخريجه.

قال شيخ الإسلام رحمته الله: (ثم ينبغي له أن يأخذ المال بسخاوة نفس ليبارك له فيه، ولا يأخذه بإشرافٍ وهلع).

ينبغي عليه أن يأخذه بسخاوة نفس؛ لأن النبي صلوات الله عليه قال: «إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلُوةٌ؛ فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافٍ نَفْسٌ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ» رواه البخاري^(١).

فمن أخذه بطريق حلال وكان سمحاً في طلبه، صادقاً فيه مُبيناً؛ بورك له فيه، ومن أخذه بطمع أغواه حتى كتم وغش؛ لم يبارك له فيه. فسبب البركة في الرزق: أن يكون الإنسان صادقاً مُبيناً، وأن يكون سخي النفس. وسبب مَحَقِّ البركة في الرزق: أن يكذب الإنسان، أو لا يُبين، أو يغش، أو يتخذ الأسباب المحرمة.

قال شيخ الإسلام رحمته الله: (بل يكون المال عنده بمنزلة الخلاء الذي يُحتاج إليه من غير أن يكون له في القلب مكانة، والسعي فيه إذا سعى كإصلاح الخلاء).

انظروا إلى هذا الجملة من شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله، ومقصوده: أنه ينبغي أن يكون الإنسان مقتصدًا في طلب الدنيا.

وأقلّ درجات الاقتصاد: ألا تُشغله عن الأعمال الصالحة الواجبة عليه.

نسمع أن بعض إخواننا الذين يعملون في التجارة يجمعون الصلوات الخمس أو الأربع؛ الظهر والعصر والمغرب وقت العشاء؛ قبل أن يناموا ولا سيّما بعض إخواننا في أوروبا؛ لأنّ الحركة مستمرة، والانشغال بالصلاة في وقتها - عندهم - تُضيّع الفرص، وهذا لا شك أنه حرام.

(١) «صحيح البخاري» كتاب: الزكاة، باب: الاستعفاف عن المسألة، رقم: (١٤٧٢)، و«صحيح مسلم» كتاب: الزكاة، رقم: (١٠٣٥).

أقل درجات الاقتصاد: ألا تُشغل التجارة أو طلب الرزق المرء عن الأعمال الصالحة الواجبة عليه، فيجعل طلبه الدنيا، كدخول الإنسان الحمام لقضاء الحاجة، فإن الإنسان إذا دخل الحمام الذي تُقضى فيه الحاجة لا يبقى فيه فوق حاجته، بل فوراً أن يفرغ من حاجته يخرج، فكذلك ينبغي أن يكون شأن الإنسان مع طلب الرزق.

الإنسان في بناء بيت الخلاء لا يهتم به ويجعل فيه أشياء زائدة، وإنما يهتم بإصلاحه ولا يبقى فيه فوق الحاجة، فكذلك ينبغي للإنسان أن يكون في طلب الرزق؛ لا ينبغي أن يتوسّع فيما لا يحتاج إليه، ولا يبقى في طلب الرزق فوق الحاجة.

جاء في بعض كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله أنه قال: (يجعله كالحمار يركبه وقت الحاجة)، أي: الإنسان في الأصل يركب على البعير ويركب على الحصان والفرس، ويركب على الحمار عند الحاجة، والناس لا تفضل الركوب على الحمار، وإنما تركبه وقت الحاجة، فإذا انتهت الحاجة نزل الإنسان عنه، فيقول: هكذا ينبغي أن يجعل المسلم طلبه للدنيا؛ مقتصدًا في هذا الطلب، فيكون بمنزلة من يدخل الخلاء، أو يبني الخلاء، ومنزلة من يركب الحمار.

والعامّة عندهم دعوة بمعنى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية؛ يقولون: (اللهم اجعل المال في جيبى ولا تجعله في قلبي) لا تجعله في قلبي: يُشغلني عن ديني، ارزقني ما يُغنيني ولا تشغلني به.

وأقل درجات الاقتصاد: الاقتصاد الواجب وهو: ألا يُشغل طلب الرزق الإنسان عن الواجبات عليه، بل يكون حريصًا على أداء ما وجب عليه شرعًا. وكمال الاقتصاد: ألا يُشغل الإنسان نفسه بطلب الرزق فيما لا حاجة له.

قال شيخ الإسلام رحمته الله: (وفي الحديث المرفوع الذي رواه الترمذي وغيره: «من أصبح والدنيا أكبر همًّا؛ شَتَّتَ الله عليه شَمْلَه، وفرَّقَ عليه ضِيعَتَه، ولم يَأْتِه من الدنيا إلا ما كُتِبَ له، ومن أصبح والآخرة أكبر همًّا؛ جَمَعَ الله عليه شَمْلَه، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»).

هذا حديث عظيم، ولفظ الترمذيُّ كما في «السنن»: «من كانت الآخرة همًّا جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شَمْلَه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همًّا جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّقَ عليه شَمْلَه، ولم يَأْتِه من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له» رواه الترمذي، وصحَّحه الألباني، والوادعي^(١)، رحم الله الجميع.

«من كانت الآخرة همًّا ونَيْتَه» كما جاء في بعض الروايات، وطلبته، وهي المقدَّمة؛ كافأه الله عز وجل، بأن يجعل غناه في قلبه، فيكون قنوعًا، مهما جاءه من الرزق يفرح به ويقول: الحمد لله قد رُزِقْتُ خيرًا كثيرًا، ولا يتطلَّع إلى ما في يد غيره، لأنَّ من أعظم أسباب شقاء الإنسان أن يتطلَّع إلى ما في يد غيره، بعضهم عنده سيارته توصله إلى المسجد سالمًا طيِّبًا، ولما تمرَّ بجواره سيارة أفضل من سيارة يضرب بيده على سيارته ويقول: هذه السيارات! تذهب السيارة وتبقى الحسرة في القلب.

فمن كانت الآخرة همًّا يجعل الله غناه في قلبه، فمهما حصَّل يَقْنَع، ويرى أنه قد أوتيَ خيرًا كثيرًا.

«وجُمِعَ له شَمْلَه» فلا يتشتت قلبه؛ ولذلك بمجرد أن يضعوا له الفراش ينام. «وأتته الدنيا وهي راغمة» ما كُتِبَ للإنسان من الدنيا سيئاته سواء كان صالحًا أو لم يكن، لكنَّ الصالح يسعد بما يَأْتِيه، ويسلم بين يدي ربه.

(١) «الجامع» للترمذي، أبواب: صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، رقم: (٢٤٦٥)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم: (٩٤٩)، و«الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين» للوادعي (٣٩/١).



«ومن كانت الدنيا همّه»: وطلبته، وغايته، والمقدمة عنده: جعل الله فقره بين عينيه، بخلاف من كانت الآخرة همّه، من كانت الآخرة همّه جعل الله غناه في قلبه، أمّا من كانت الدنيا همّه جعل الله فقره بين عينيه، فكلّما نظر لن يرى إلا فقره، وبالتالي لن يقنّع بما يُرزق، ولن يهنأ بما يُرزق، ويكون متطلّعاً إلى ما ليس في يديه غير مستمتع بما في يده! وهذا غاية الشقاء؛ أن يكون عند الإنسان شيء لا يستمتع به، ويطلب شيئاً لا يقدر عليه.

«وفرّق عليه شمله» فكثرت الهموم في قلبه، ولذلك يأتي يريد أن ينام لا يستطيع النوم.

بعض الخلفاء قال لابنه: يا بني! قد كبرت سنّي وأريد أن أتنازل عن الخلافة لك، فالولد ذكي فهم أنه يختبره؛ فقال: متّع الله بك يا أبي، لا خير في الخلافة إن تركتها، لا أرضى بها أبداً، فبعد فترة دعاه أبوه وقال: ما حملك على أن قلت ما قلت؟ - وأبوه ذكي فهم أن الولد فهم أنه يختبره -، فقال: رأيْتُك إذا هَجَعَ النُّوم أضأت السراج وطلبت الخادم ليدهن لك ظهرك وأخذت تديم النظر في أمر الخلافة حتى يلوح الفجر، فعلمتُ أن من يفعل هذا لا يترك هذا؛ أي لمّا رأيت هذا الحرص منك عرفتُ أنك لن تتنازل عنها؛ لأنّ قلبك معلق بها، الناس تنام وأنت تأمر الخادم فيأتي يدهن ظهرك بالزيت حتى تستعين على أن تبقى وتديم النظر في أمر الخلافة.

بعض الناس تكون عنده الأموال الكثيرة ولا ينام، يُشقيه ما عنده، ومن رزقه الله الرزق، وقد جعل الآخرة همّه؛ يجمع الله له خيرين: خير الدنيا وخير الآخرة.

كلامنا لا يعني أنّ الغنى مذموم على الإطلاق، أو أنّ الأغنياء هكذا على الإطلاق؛ ولكنّ الكلام عمّن أفرد الدنيا، ولم يُقبل على الآخرة، وإلا كم من غني يكفل من طلاب العلم الكثير، ويتصدّق بالكثير، ويبذل في الدعوة الكثير. أعرف أحد الأغنياء أنفق مرةً واحدةً ما يساوي مائة مليون دولار في الدعوة في سبيل الله؛ مرة واحدة، تبرّع بأرض في قلب العاصمة للدعوة في سبيل الله قيمتها مائة مليون دولار، يوجد أناس موفّقون في مثل هذا الأمر.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (وقال بعض السلف: أنت محتاج إلى الدنيا، وأنت إلى نصيبك إلى الآخرة أحوج، فإن بدأت بنصيبك من الآخرة مرّ على نصيبك من الدنيا، فانتظمه انتظاماً).

جاء عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الصحابي الجليل -وهو المراد ببعض السلف هنا - أنه قال لرجل: (إني موصيك بأمرين، إن حفظتهما حُفِظْتَ: أنه لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر، فأثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا؛ حتى ينتظمه لك انتظاماً؛ فتزولُ به معك أينما زِلْتَ) رواه الطبراني، وابن أبي شيبة، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح^(١).

فمعاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أوصى هذا الرجل بهذه الوصية العظيمة، في قوله: (إنه لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا) فلم يُشرع في دين الإسلام ما يُسمّى بالدروشة، الإسلام جاء لعمارة الدنيا والآخرة، وجعل عمارة الدنيا طريقاً لعمارة الآخرة، فلم يأمر الإسلام بإهمال الدنيا بالكلية؛ وأن يتدروّش الإنسان، ويدع طلب الرزق ونصيبه

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة، باب: كلام معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، رقم: (٣٤٦٩٥)، و«المعجم الكبير» للطبراني، ذكر مشاهد معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وسنّه، ووفاته، ومن أخباره، (٢٠ / ٣٥)، رقم: (٤٩)، وانظر كلام الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤ / ٤٠١).



شَرْحُ الوَصِيَّةِ الصُّغْرَى

من الدنيا، ولم يجعل للإنسان أن يُطْلَقَ يده في الدنيا كما يشاء، فالحلال ما حلَّ في الجيب، ويُقدَّم ما في الدنيا على ما في الآخرة!

المسلم لا يُهْمِلُ الدنيا، ولكنه عند نظره للدنيا يبدأ بنظره في الآخرة، فإن كان أمر الدنيا لا يعارض إصلاح الأمر في الآخرة، ولا يُفسد القلب فإنه يُقدَّم عليه، وإن كان يعارض إصلاح أمره في الآخرة فإنه يُقدَّم عمارة الآخرة على عمارة الدنيا، وهكذا كان السلف الصالح - رضوان الله عليهم -.

ولذلك قال معاذ رضي الله عنه: (وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر، فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا)، وهنا سؤال: لو آثرت نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا هل تفسد دنياك؟

الجواب: لا، بل من عمل بما أمره الله به؛ صلَّح له أمر دنياه وأمر آخرته؛ ولذلك قال: (حتى ينتظمه لك انتظامًا)، بمعنى: أنك إذا أقبلت على الله، فإنَّ أمر الدنيا سيصلح لك.

ولذلك تعجَّب من أناس ينتسبون إلى العلم، يزعمون أنهم يريدون الإصلاح، وأنهم من دعاة الإصلاح، وإذا نظرت إلى كلامهم وجدت أنهم ينظرون إلى عمارة الدنيا، ولا يُبالون بعمارة الآخرة، فيزعم بعضهم اليوم أنَّ الحكم بالديمقراطية أفضل من الحكم بالشرع بدون رضى الشعب، وأنَّ التطلُّع إلى قيادة الشعوب إلى حياة كريمة، إنما يكون بإصلاح أمور الدنيا، مع أنَّ ما يُدعى إليه من أمور الدنيا لا يُصلحها، والتجربة والبرهان يدُلُّان على ذلك.

ولا يُصلح حال الدنيا إلا ما جاء في كتاب الله، وفي سنة رسول الله صلَّى الله عليه وآله.

فالواجب على المصلح أن يدعو إلى إصلاح الدنيا؛ بالعودة إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله صلَّى الله عليه وآله، وبالدعوة للتمسُّك بالأصول الشرعية التي كان عليها سلف الأمة رضي الله عنهم، ففي ذلك إصلاح المسلمين، وعزُّهم، وصلاح الدنيا.

وإنَّ الدعوة ينبغي أن تكون لأفراد الناس؛ بالحرص على إصلاح البيوت؛ بأن تقام على دين الله ﷻ، وإذا صلح ذلك فإنَّ الظنَّ بالله ﷻ، أن يُصلح للعباد أمر البلاد.

أما أن يُترك الناس على فساد، ولا يُدعون إلى توحيد، ولا إلى سنة، ولا إلى صلاة، ولا إلى برٍّ، ولا إلى إصلاح حال؛ ويقال إنَّ هناك دعوة للإصلاح فهذا غلطٌ بين.

ولذلك؛ ينبغي على المسلمين جميعاً أن يتنبهوا إلى هذه القضية الكلية: الخيرُ كُلُّه في الاقبال على مالك الخير كُلِّه؛ وهو ربنا ﷻ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ٥٦ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾). [الذاريات: ٥٦-٥٨].

الله ﷻ خلق الجن والإنس لعبادته، وجعل لهم في ذلك إرادة واختياراً، وأخبرهم أنَّ حكمة خلقهم إنما هي عبادته ﷻ، وأنَّ المراد من وجودهم في الدنيا أن يعبدوا الله، فإذا عبدوا الله رزقهم الله وأطعمهم، وآمنهم من خوف، وهذا مفهوم من الآيات؛ لأنَّ الله ﷻ قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾، لَمْ يُرد الله ﷻ منَّا أن نرزقه أو نرزق أحداً من عباده؛ بل ولا أن ننشئ الرزق، فالذي يُنشئ الرزق هو الله ﷻ، ونحن نطلبه، ثم قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾، إذن - يا عبد الله - إن عبدت الله رَزَقَكَ الرزاق ذو القوة المتين.

وهذه قاعدة إيمانية عظيمة: أنَّ الرزق والخير في الدنيا يتحقق بعبادة الله ﷻ.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (فَأَمَّا تَعَيُّنُ مَكْسَبٍ عَلَى مَكْسَبٍ مِنْ صِنَاعَةٍ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ بِنَايَةٍ أَوْ حِرَاثَةٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ؛ فَهَذَا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ النَّاسِ).

المكاسب كلها الأصل فيها أنها حلال؛ إلا ما دلّ الدليل على تحريمه، الأصل في البيوع والمعاملات الحلّ إلا أن يدلّ الدليل على التحريم، فالأصل أنه يجوز للإنسان أن يبيع ما شاء كيف شاء، إلا ما منعه الشارع؛ كبيع الحصاة مثلاً، وبيع الغرر، والرّبا.

وأفضل المكاسب أن يكتسب الإنسان بعمل يده؛ يقول النبي ﷺ: «ما أكل أحدٌ طعاماً قط، خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإنّ نبيّ الله داود السليمان كان يأكل من عمل يده» رواه البخاريّ في «الصحيح»^(١).

فما أكل أحدٌ طعاماً قط، أطيب ولا أحسن من طعام يأكله من عمل يده، وقد كان نبيّ الله داود السليمان، قد ألان الله له الحديد، فكان يصنع منه ما شاء للناس، ويعمل بيده ويكتسب من عمل يده، فأفضل المكاسب ما كان من عمل اليد.

وتلحّظ أنّ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ قال: (فَأَمَّا تَعَيُّنُ مَكْسَبٍ عَلَى مَكْسَبٍ مِنْ صِنَاعَةٍ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ بِنَايَةٍ أَوْ حِرَاثَةٍ) وهذه كلها من عمل اليد، فأفضل العمل هو ما كان من عمل اليد.

وأما تفضيل عمل على عمل من أعمال اليد؛ فهذا لم يرد به نصٌّ، ويختلف باختلاف أحوال الناس، وبحسب ما يتقنّه الإنسان، وكلّ جعل الله له قدرة في أمر من الأمور، فكما يقول الفقهاء: كلُّ إنسان فقيه نفسه، كل واحد يعرف ما يحسنه ويقتنه من الأعمال الطيبة.

(١) «صحيح البخاري» كتاب: البيوع، باب: كسب الرجل عمله بيده، رقم: (٢٠٧٢).

قال شيخ الإسلام **رَحِمَهُ اللهُ**: (ولا أعلم في ذلك شيئاً عاماً، لكن إذا عنَّ للإنسان جهة فليستخر الله - تعالى - فيها الاستخارة المتلقة عن معلم الخير **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**؛ فإنَّ فيها من البركة ما لا يُحاط به، ثم ما يتيسر له، فلا يتكلّف غيره؛ إلا أن يكون منه كراهة شرعية).

قوله **رَحِمَهُ اللهُ**: (لكن إذا عنَّ للإنسان جهة) أي: من أعمال المكاسب (فليستخر الله)، وقد قال السلف: ينبغي على الإنسان أن يستخير الله في أمور دنياه، فإذا أراد أمراً من أمور الدنيا وعنَّ له فليصل صلاة الاستخارة - كما تقدّم معنا - وليستخر الله في ذلك الأمر.

قوله **رَحِمَهُ اللهُ**: (ثم ما يتيسر له) من الأعمال، بعد الاستخارة فليُقدّم عليه، إلا أن يظهر فيه كراهة شرعية، ولا ينبغي للإنسان إذا تيسر له شيء حلال أن يُعرض عنه إلا إلى أحسن منه، وإلا فليقبل رزق الله ولا يُعرض عنه، وهذا غاية ما ذكره شيخ الإسلام **رَحِمَهُ اللهُ** في الأمر الثالث.

ثم يشرع **رَحِمَهُ اللهُ** في الأمر الرابع فيما يتعلّق بالكتب النافعة في العلوم.

قال شيخ الإسلام **رَحِمَهُ اللهُ**: (وأما ما تعتمد عليه من الكتب في العلوم؛ فهذا باب واسع، وهو أيضاً يختلف باختلاف نشء الإنسان في البلاد، فقد يتيسر له في بعض البلاد من العلم أو من طريقه ومذهبه فيه ما لا يتيسر له في بلد آخر).

قوله **رَحِمَهُ اللهُ**: (وأما ما تعتمد عليه من الكتب في العلوم) الشرعية (فهذا باب واسع)؛ لكثرة ما كتبه علماء الإسلام في العلوم الشرعية؛ وهو يختلف.

وكما يقول العلماء: انتقاء الكتاب مهارة ينبغي العناية بها، فلا ينبغي للإنسان أن يقرأ الكتب كيفما اتفق؛ بل ينبغي أن يختار الكتاب المناسب في العلم الذي يريد أن يدرسه.



وهذا له أمورٌ تحدّد:

منها: ثناء العلماء على الكتاب.

ومنها: الثقة في مؤلفه.

ومنها: خدمة هذا الكتاب.

ومنها: النفع العائد على الطالب من هذا الكتاب.

الأمر الأول : لا بد أن ينظر طالب العلم إلى ثناء العلماء على الكتاب، فإنّ أهل العلم هم أهل الخبرة بالكتب.

الأمر الثاني : لا بد أن ينظر إلى سلامة مؤلفه؛ مهما كان الفن، فإنه لا يكتب أحد كتاباً إلا ويخدم ما في قلبه؛ حتى في النحو تجد العقيدة؛ ولذلك المعتزلة لمّا ألفوا في النحو والبلاغة ملؤوا كتبهم بما يشهد لعقيدة المعتزلة.

كتاب الخصائص لابن جني - وهو من الكتب المعتمدة في اللغة - مليء بالأمثلة التي تؤكد عقيدة المعتزلة، ومليء بالعبارات التي تتفق مع عقيدة المعتزلة، فإياك أن تقول: هذا الكتاب في فنّ كذا لا علاقة للعقيدة به! العقيدة ملازمة للإنسان، وما من مؤلف يؤلف إلا وهو يخدم عقيدته، فلا بد من معرفة هذا.

والأمر الثالث : خدمة هذا الكتاب، كون العلماء شرحوه، وكونه يمكن أن ينتقل الإنسان منه إلى كتاب أعلى منه فتكون سلسلة، هذا من الأهمية بمكان.

الأمر الرابع : مقدار إنتفاع الطالب به، و مقدار نفعه به، وهذا الذي أشار إليه شيخ الإسلام في قوله: (فقد يتيسر له في بعض البلاد من العلم أو من طريقه ومذهبه فيه ما لا يتيسر له في بلد آخر) وما يتعلق بالمذهب وطريق العلم.

فمثلاً؛ إذا أردنا أن نختار متناً في الفقه؛ فإننا إذا نظرنا إلى الثلاثة الأمور المتقدمة نقول يختار طالب العلم مثلاً «زاد المستقنع»؛ لأنّ العلماء أثنوا عليه، ولسلامة

صاحبه، ولأنه مخدوم، فإن الطالب بعد أن يفرغ منه ينتقل إلى «الشرح المختصر على زاد المستقنع» للشيخ صالح الفوزان، فيفهم الكتاب فهمًا جيّدًا، ثم ينتقل إلى كنز الفقه «الشرح الممتع» للفقيه الممتع، الإمام الشيخ محمد بن صالح العثيمين؛ بحيث يعرف الترجيح في المسائل، ثم ينتقل إلى «المغني» لابن قدامة، ويُبهر كما يشاء في علم الفقه.

ولكن ينبغي أيضًا النظر إلى النفع المتعدي القادم؛ ولذلك إذا كنت من بلد ينتشر فيه المذهب الحنفي، فالأحسن أن تختار متناً في الفقه الحنفي؛ لأنك إن أجدته وعدت إلى البلاد، فإن الناس يثقون بعلمك؛ لأنك تأتيهم بالكتب التي عهدوا، وبالمصطلحات التي عهدوا، وإذا وثق الناس في أصل علمك، فإنك تستطيع أن توصل إليهم الخير إن شاء الله **وَعَلَيْكُمْ**، فتجعل ذلك مفتاحاً لتنشر فقه الدليل والسنة.

إذا كنت من بلد ينتشر فيه المذهب المالكي فحَسَنٌ أن تختار متناً في المذهب المالكي، وكذلك بالنسبة للمذهب الشافعي.

ومن أنفع الأمور أن تقرأ المتن على متمكن من الفنّ يستطيع أن يشرح لك الكتاب، ثم تعيد القراءة عليه بنقد الكتاب، ثم بعد ذلك تنتقل إلى ما بعده من الكتب، وهكذا في سائر الفنون والعلوم الشرعية.

لكن الشأن كل الشأن هو فيما يوصي به شيخ الإسلام **رَحِمَهُ اللهُ** حيث يقول: **(لكنّ** جماع الخير أن يستعين بالله - سبحانه - في تلقّي العلم الموروث عن النبي **ﷺ**، فإنه هو الذي يستحق أن يُسمّى علماً، وما سواه إمّا أن يكون علماً فلا يكون نافعاً، وإمّا أن لا يكون علماً وإن سُمّي به، ولئن كان علماً نافعاً فلا بد أن يكون في ميراث محمد **ﷺ** ما يغني عنه مما هو مثله وخير منه، ولتكن همّته فهم مقاصد الرسول



شَرْحُ الْوَصِيَّةِ الصُّغْرَى

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أمره ونهيه وسائر كلامه. فإذا اطمأن قلبه أن هذا مراد رسوله ﷺ فلا يعدل عنه فيما بينه وبين الله - تعالى - ولا مع الناس إذا أمكنه ذلك).

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (لكنّ جماع الخير) - لطالب العلم - (أن يستعين بالله) أوّل علامات التوفيق: أن يبرأ طالب العلم من حوله وقوته، ويقول معتقداً: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، لا ينطلق طالب العلم في طلبه للعلم معتمداً على قدراته - كما يقول أهل الدنيا - أو معتمداً على ذكائه؛ بل ينطلق وهو يعلم أنه ضعيفٌ إلا بإعانة الله، عاجزٌ إلا بحول الله ﷻ، فيستعين بالله، ويُعَلِّق قلبه به.

وكم من إنسان سلك طريق العلم، أو طريق الدعوة معتمداً على مهارته فلم يُوفَّق، بل قد يصل الأمر إلى أن يتزندق، نعرف من آحاد الناس من كان مقبلاً على العلم الشرعي، وألّف على طريقة السلف، فغرّته نفسه وقدراته؛ فانحرف حتى مات على الزندقة.

فطالب العلم ينبغي أن يحذر حذراً شديداً من العُجب بنفسه، ومن الغرور بذكائه، بل يُذكر نفسه دائماً بأنه عبدٌ ضعيف، وأنه لن يكون له خير إلا إذا أعانه الله، فيستعين به.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (في تلقّي العلم الموروث عن النبي ﷺ) يا طالب العلم أقصر نفسك في طلب العلم على طلب العلم الموروث عن النبي ﷺ، أو ما دلّ عليه العلم الموروث عن النبي ﷺ.

لأنّ العلم النافع نوعان:

الأول: علمٌ هو الذي جاء في الكتاب والسنة، وهو المسمّى بالعلم الشرعي.
الثاني: علمٌ أرشد إليه الكتاب والسنة، وهذا هو العلم الدنيوي النافع، الذي لا يعارض شيئاً من الشرع؛ كعلم الطب والهندسة ونحو ذلك.

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (فإنه هو الذي يستحق أن يُسمّى علماً) العلم الذي أجمع المسلمون على أنه علم: هو ما جاء في كتاب الله، وفي سنة النبي **ﷺ**، لا يوجد أحدٌ يقول: هذا ليس بعلم؛ بل هو العلم المقطوع به أنه علم.

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (وما سواه): أي: من الأمور التي تُنسب إلى الدين أو تتعلق به.

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (إما أن يكون علماً فلا يكون نافعاً) إمّا أنه علم وله أصول، لكنه لا يَنفَع؛ ما دام أنه خارج عن الكتاب والسنة؛ مثل ما يسمّى بعلم المنطق؛ وهو علم، وله أصول، لكن لا يحتاجه ذكي، ولا ينتفع به غبي، فإن كان الإنسان ذكياً فإنه لا يحتاجه في فهم العلم، فإنّ الصحابة - رضوان الله عليهم - أعلم الأمّة بالإجماع، ما احتاجوا إلى هذا المنطق، ولا يستفيد منه غبيّ؛ لأنه لا يفهمه، ولو دخل فيه سيغرق.

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (وإمّا ألا يكون علماً وإن سُمّي به) فليس من العلوم مثل ما يسمّونه الآن بعلم (ما وراء الطبيعة) أو علم (الغيبات)؛ وهو الكهانة التي تعتمد على الكذب والدجل، التي تعتمد على أخذ شيء صحيح، يُبنى عليه مائة شيء كاذب، هذه الكهانة في هذا الزمان أسموها علماً، ويأتون بأشخاص يقولون: الدكتور فلان عالم، وخاصة عند نهاية العام يأتون به يسألونه؛ ماذا تتوقع للعام القادم؟ ويأتون بأشياء معروفة لها أسباب متكرّرة، يقول: سيضرب أمريكا إعصار، في السنة يضربها عشرة أو عشرون؛ هذا معروف، يقولون: سيحصل كذا ويحصل كذا، ويكذبون الكذبات، ويقولون علم، علم الغيبات، علم ما وراء الطبيعة! وهذا أسوأ من الجهل، ومضادّ لدين الله **ﷻ**.



شرح الوصية الصغرى

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (ولئن كان علمًا نافعًا) لئن كان ما سوى العلم الموروث عن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** علمًا نافعًا مما يُنسب إلى الدين؛ فإنّ في ميراث النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ما هو خيرٌ منه، فلا اشتغال به اشتغال بالمفضول وتركٌ للفاضل.

قوله **رَحِمَهُ اللَّهُ**: (ولتكن همّته فهم مقاصد الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**): ليكن قصدك وعزمك وهمّتك أن تعرف مراد الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، لأنّ المتبع حقًا هو الذي علم الموروث كما أَراده النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

ويذكر شيخ الإسلام ابن تيمية **رَحِمَهُ اللَّهُ** أنّ الصحابة كانوا ينظرون إلى مقصد الرسول **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في الاتّباع، فليس الاتّباع أن تعمل بالنص مُغفلاً حكمته، وإنّما الاتّباع أن تعمل بالنص مُعملاً حكمته.

فمثلاً جاء في «سنن ابن داود»: (أنّ ناقة البراء بن عازب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** دخلت حائط قوم فأفسدته، فقاضى النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** أنّ على أهل الحائط حفظها بالنهار، وعلى أهل المواشي حفظها بالليل)^(١)، ناقةً للبراء بن عازب **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ** دخلت بستاناً - الحائط هو: البستان - فأفسدته ولم تكن بساتين المدينة مسورة في زمن النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**، فرفع أصحاب البستان الأمر إلى النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** ليحكم، بم حكم النبي **صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**؟ حكم (أنّ على أهل الحائط حفظها بالنهار) فمسؤولية الحفظ في النهار على أهل الحائط، فلو دخلت الدابة في النهار البستان وأفسدته، فلا ضمان على صاحبها؛ لأنّ الحفظ على أهل البساتين، وحفظ المواشي بالليل على أهلها فلو أنّ الماشية دخلت البساتين في الليل فأفسدته فإنّ أصحابها يضمنون.

(١) «السنن» لأبي داود، كتاب: البيوع، باب: المواشي تفسد زرع القوم، رقم: (٣٥٧٠)، وصححه الالباني في «إرواء الغليل» رقم: (١٥٢٧).

قال العلماء: ما مقصود النبي ﷺ من هذا الحكم؟

قالوا: (المقصود رفع الحرج عن الناس؛ بالحكم بما يوافق العادة)، العادة أنّ أهل البساتين متى يعملون فيها؟ يعملون في النهار؛ فقضى عليهم أنّ عليهم الحفظ بالنهار، لأنه لو لم يقض النبي ﷺ بذلك لوقع الناس في حرج؛ يبقى صاحب البستان فيه في النهار للحرارة، ويبقى في الليل للحراسة، فيبقى في بستانه طوال يومه وليلته؛ وهذا حرجٌ شديد وأيضاً أهل المواشي يمسون مواشيهم بالليل؛ خوفاً عليها من الذئاب، ويمسونها في النهار لأنّ عليهم حفظها، وهذا أيضاً فيه مشقة شديدة.

لو فرضنا أنّ في بلد من البلدان تغيّر الحال، مثلاً بلد أصابه حرٌّ شديد، فأصبح أصحاب البساتين يعملون في البساتين في الليل، لا يستطيعون العمل في النهار، وأصحاب المواشي يمسون المواشي في النهار؛ خوفاً عليها من حرارة الشمس الشديدة، فإنّ المتبع حقاً يقول: إنّ على أهل الحائط حفظها بالليل، وعلى أهل المواشي حفظها بالنهار، لماذا؟ لأنّ هذا مقصود الرسول ﷺ؛ وهو أن يُيسّر على الناس.

ولو جاء إنسان وقال: لا، أنا أتمسك بالنص؛ على أهل الحائط أن يحفظوها في النهار ولو عملوا في الليل، وعلى أهل المواشي أن يحفظوها بالليل ولو أمسكوها في النهار، قلنا: أنت مخالف لمراد الرسول ﷺ.

إذن؛ أريد بهذا المثال أن أقول: إنّ طالب العلم ينبغي عليه أن يعرف مراد الرسول ﷺ، ويتبع بناء على فهم مراده ﷺ.



شَرْحُ الوَصِيَّةِ الصُّغْرَى

قوله **رَحِمَهُ اللهُ**: (فإذا اطمأن قلبه) - أي قلب طالب العلم - (أن هذا هو مراد الرسول فلا يعدل عنه فيما بينه وبين الله تعالى ولا مع الناس) أي يعمل، فإن فائدة العلم العمل، والنبى **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** يقول: «مررت ليلة أُسري بي بأقوام تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباء أمتك، الذين يقولون ما لا يفعلون، ويقرؤون القرآن، ولا يعملون به»^(١).

فالذي ينبغي لطالب العلم إذا علم الموروث عن النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** وعلم مقصوده منه أن يعمل به، سواء فيما يتعلق بحقوق الله، أو ما يتعلق بحقوق الآدميين.

قال شيخ الإسلام **رَحِمَهُ اللهُ**: (وليجتهد أن يعتصم في كل باب من أبواب العلم بأصلٍ مأثورٍ عن النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**).

ليكن همُّ طالب العلم أن يعرف الأصل الوارد عن الرسول **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** فيما يتعلم، إذا كان يتعلم الفقه فينبغي أن يتعلم الأصل في الباب الذي دلَّ عليه الدليل، فإذا جاء إلى باب الآنية، فينبغي أن يعرف الأصل في باب الآنية بحسب ما دلَّ عليه الدليل، فيعرف أن الدليل دلَّ على أن الأصل في الأواني الطهارة فيتمسك به، فكلما درسَ نظر إلى هذا الأصل، فما وافق الأصل فحسن، وما خالف الأصل؛ إن دلَّ عليه دليلٌ خاص فحسن، وإلا رده إلى الأصل، وهكذا يكون علمه متيناً، قائماً على قول الله وقول رسوله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**.

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٩/٢٤٢)، برقم: (١٢٢١١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم: (٢٩١).

قال شيخ الإسلام **رَحِمَهُ اللهُ**: (وإذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه الناس فليدعُ بما رواه مسلم في صحيحه، عن عائشة - **رَضِيَ اللهُ عَنْهَا** - أَنَّ رَسُولَ اللهِ **ﷺ** كان يقول إذا قام يصلي من الليل: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١)).

طالب العلم إذا تعلّم:

إمّا أن تكون المسألة اتفاقية: وما أجمعتُ عليه الأمة فهو حق.

وإمّا أن تكون خلافية: فإن كانت المسألة خلافية من حيث الواقع؛ فلينظر هل سبق هذا الاختلاف اتفاق؟ فإن سبق هذا الاختلاف اتفاق، فإنه يتمسك بما اتفق عليه صدر الأمة؛ فإنه الحق المقطوع به.

فإذا جئنا إلى العقيدة، نجد أن السلف قد اتفقوا على مسائلها، ووقع الاختلاف بعدهم، فهنا لا اشتباه ولا توقّف ولا احتمال؛ بل الحقُّ اليقينيُّ: ما كان عليه سلف الأمة، ما اتفق عليه الصدر الأوّل، والباطل المقطوع به: ما خالف هذا.

وإن لم يسبق هذا الاختلاف اتفاق؛ فلينظر هل هناك قول دلّ عليه الدليل النقليّ دون غيره؟ فإن وجدَ قولاً دلّ عليه الدليل النقليّ؛ فإنه يتمسك به ويدعُ ما سوى ذلك، وهذا معنى قول الفقهاء: (لا اجتهد مع النص)، وهو قول الإمام الشافعي: (أجمَعَ الناس على أنّ من استبانَتْ له سنة رسول الله **ﷺ** لم يكن له أن يدعها لقول أحدٍ من الناس كائناً من كان).

(١) «صحيح مسلم»، كتاب: صلاة المسافرين وقصرها، رقم: (٧٧٠).



شَرْحُ الْوَصِيَّةِ الصُّغْرَى

وإن كانت المسألة خلافية، ولم يسبقها اتفاق، ولم يظهر دليل يقوِّي أحد الأقوال على غيره قوة ظاهرة؛ بل اشتبهت الأقوال على طالب العلم؛ فليسأل الله الهداية، ويسأله أن يلهمه الحق فيما اختلف فيه.

ولذلك قال **رَحِمَهُ اللهُ**: (وإذا اشتبه عليه مما قد اختلف فيه الناس، فليدعُ بما رواه مسلم في «صحيحه» عن عائشة **رَضِيَ اللهُ عَنْهَا**: أَنَّ رَسُولَ اللهِ **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** كان يقول إذا قام يصلي من الليل) وهذا من أدعية الاستفتاح التي كان يستفتح بها النبي **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** في صلاة الليل: «اللهم ربَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١).

فيسأل طالب العلم ربه أن يهديه لما اختلف فيه من الحق، وأن يثبت عليه.

قال شيخ الإسلام **رَحِمَهُ اللهُ**: (فإنَّ الله - تعالى - قد قال فيما رواه عنه رسوله **صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**: «يا عبادي! كلُّكم ضالٌّ إلا من هديته؛ فاستهدوني أهدكم»^(٢)).

وتقدّم أنَّ هذا في «صحيح مسلم»، «فاستهدوني»: اطلبوا هدايتي «أهدكم»، والهداية من الله كانت بالبيان فالله قد هدانا إلى الحقِّ ببيان الأدلة، ومن استعصم بالدليل فقد تمسَّك بسواء السبيل وعرف طريق الهداية، وقد تشبَّه الأدلة على طالب العلم فيسأل الله أن يهديه إلى الحقِّ مما اختلف فيه أهل العلم.

(١) تقدّم في الصفحة السابقة.

(٢) «صحيح مسلم» كتاب: البر والصلة والآداب، رقم: (٢٥٧٧).

قال شيخ الإسلام **رَحِمَهُ اللهُ**: (وأما وصف الكتب والمصنِّفين؛ فقد سُمِعَ مِنَّا في أثناء المذاكرة ما يَسِّرُهُ اللهُ - سبحانه -).

شيخ الإسلام ابن تيمية **رَحِمَهُ اللهُ** من أعلم الناس بالكتب والمؤلفين، إذا قرأت كلامه تتعجب مما يورده من المصنِّفات والكتب وما يذكره عن أحوال مؤلفيها؛ وذلك لأنَّ الله رزقه سعةً في العلم، وقد كان في دروسه **رَحِمَهُ اللهُ** - وكثيرٌ منها جُمِعَ منه أجزاء في مجموع الفتاوى وفي غيره - يذكر الكتب، ويبين النافع منها والضار، وأحوال المصنِّفين لها، ولذلك قال هنا: (وأما وصف الكتب والمصنِّفين؛ فقد سُمِعَ مِنَّا في أثناء المذاكرة) أي: في أثناء الدروس (ما يَسِّرُهُ اللهُ سبحانه).

قال شيخ الإسلام **رَحِمَهُ اللهُ**: (وما في الكتب المصنَّفة المبوبة كتابٌ أنفع من صحيح محمد بن إسماعيل البخاري).

هذا الكتاب أصحُّ كتاب على وجه الأرض ألف، وهو أنفع كتاب كتبه آدميٌّ وألفه، ولا يُعرَف أنفع منه، وذلك لأنَّ كاتبه فقيهٌ من فقهاء الأمة، مُحدِّث متقنٌ، حافظٌ للأحاديث، اشترط في كتابه أعلى شروط الصحة على الإطلاق، وما كتَب حديثًا حتى صَلَّى ركعتين، وقد أجمعت الأمة على صحَّة ما في هذا الكتاب العظيم، وهو كتاب نافعٌ في كلِّ أبواب العلم، فإنَّ البخاري **رَحِمَهُ اللهُ** جعله على كتب العلم، وترجم له تراجم فقهية نافعة.

في العقيدة يجد طالب العلم في هذا الكتاب العظيم النفع الكثير؛ ولذلك أحد الإخوة قال: أهلنا في البلد لا يرضون أن نقرأ لهم كتب العقائد! قلتُ له: اقرأ عليهم «صحيح البخاري»؛ كلُّ المسلمين يُسلمون لصحيح البخاري، وليكن همُّك أولاً أن تُسمعهم الأحاديث فيما يتعلَّق بالعقيدة والأصول الكلية، ثم بعد



شَرْحُ الْوَصِيَّةِ الصُّغْرَى

ذلك أسمعهم شروحاً للعلماء ليست لك، منتقاة؛ تكون قد علمتهم العقيدة.

فليس تعليم العقيدة خاصاً بالكتب المؤلفة باسم العقيدة، بل كتب السنة الصحيحة الثابتة فيها خيرٌ كثيرٌ، وتعليمٌ للعقيدة.

أيضاً في الفقه؛ من أنفع الكتب لطالب العلم في الفقه هذا الكتاب العظيم كتاب الإمام البخاري، وكذا في السيرة، وفي الفضائل، وفي الرغائب، في جميع ما يُحتاج إليه في العلم؛ يُتَفَعُّ بهذا الكتاب.

لكنه عملٌ لبشر، وما كان لبشريٍّ أن يُحيط بالحقِّ كله؛ إلا رسول الله ﷺ، فأبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو أعلى الأمة وأعلم الأمة بعد رسول الله ﷺ فاتته أحاديث كثيرة، وكذا عمر رضي الله عنه، وغيرهما من صحابة رسول الله ﷺ، ولهذا تَبَّه شيخ الإسلام رحمه الله على هذه القضية.

فقال رحمه الله: (لكن هو وحده لا يقوم بأصول العلم، ولا يقوم بتمام المقصود للمتبَحَّر في أبواب العلم؛ إذ لا بد من معرفة أحاديث آخر، وكلام أهل الفقه وأهل العلم في الأمور التي يختصُّ بعلمها بعض العلماء).

أي: أنَّ طالب العلم الذي يريد أن يتبحَّر في العلم، لا يَقْصُر نفسه على شيخ واحد ولو كان البخاري، ولو كان بعلم البخاري، ولكنه يأخذ من شيخه ما يُتَقَنه، ويضيف إلى علم شيخه علم الأشياخ الأثبات، بطريقة مرتَّبة صحيحة.

أحياناً يحصل تراحُمٌ للدروس؛ تكون في وقت واحد، فيختار طالب العلم، مثلاً قد يكون درس الشيخ عبد المحسن البدر ودرس الشيخ صالح السحيمي، في وقت واحد، وهناك طريقة كان يفعلها طلاب العلم في المسجد النبوي أيام كان

يُدْرَس في هذا المسجد أعلام كبار؛ كالشيخ ابن باز - رحمه الله رحمةً واسعة وأعلى درجته في الجنة - والشيخ الأمين - إمام الدنيا في وقته في التفسير، الفقيه الأصولي، السلفي حقاً وصدقاً، صاحب أضواء البيان - والشيخ الألباني، والشيخ عبد الرحمن الأفريقي، وعدد كبير من العلماء، وكانت دروسهم تقريباً في وقت واحد، فكان بعض طلاب العلم يَقتسمون الدروس، أربعة أو خمسة عند الشيخ فلان، وثلاثة عند الشيخ فلان وهكذا، ثم بعد العشاء يجتمعون: يقولون لبعضهم: ماذا سجلتم من فوائد عند الشيخ ابن باز؟، يقولون: استفدنا كذا وكذا؛ فيقيّدوه، ماذا استفدتم من الشيخ الأمين من فوائده؟ يقولون: كذا وكذا؛ فيقيّد الجميع، فلا يخرجون من المسجد إلا وقد علّقوا فوائد الجميع.

وهذا أحسن من التسجيل، لأنّ فيه مدارس بين طلاب العلم.

يا طالب العلم، والله ما وجدتُ أبرك للعلم من أن تنفع به غيرك، إن أردت أن يُبارك لك في العلم، وأن يثبت وأن تنتفع به فابذله ولا تبخل به، والله تجد بركة عجيبة وتجد ثباتاً عجيباً.

إذا كان البخل مذموماً، فبخل طالب العلم بالعلم أذمّ، فإن حصلت فائدة فابذلها؛ يُبارك لك فيها، وتنتفع بها، وتثبت إن شاء الله **وَعَزَّ**.

وأيضاً طريقة المدارس بين طلاب العلم مثبتة للعلم، وأحياناً تغيب عنك المسألة فتذكرها بكلام أخيك، يقع بينكما بعض المراجعة في المسألة؛ فتذكر المسألة بتلك المراجعة، وهذا من أنفع ما يكون.



شرح الوصية الصغرى

قال شيخ الإسلام رحمته الله: (وقد أوعبت الأمة في كل فنٍّ من كل فنون العلم إيعاباً، فمن نور الله قلبه هداه بما يبلغه من ذلك، ومن أعماه لم تزد كثره الكتب إلا حيرة وضلالاً؛ كما قال النبي صلوات الله عليه لأبي لبيد الانصاري رضي الله عنه: «أو ليست التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى؟ فماذا تُغني عنهم؟!»^(١)).

قال رحمته الله: (وقد أوعبت الأمة في كل فنٍّ من كل فنون العلم إيعاباً) أي: كتب علماء الإسلام في فنون العلوم النافعة كتباً كثيرة، وهي موجودة ومشتهرة، ولكنّ الشأن كل الشأن: ما أثر هذه الكتب على الإنسان؟ ليس الشأن أن تعرف الكتب، بل وليس الشأن أن تحفظ الكتب، ولكنّ الشأن: ما أثر هذه الكتب عليك؟

وهذا الأثر لا يكون خيراً وبركة إلا بعون الله تعالى؛ ولذلك نبّه شيخ الإسلام إلى هذا القضية العظيمة؛ وهي: أنّ (من نور الله قلبه هداه بما يبلغه من ذلك) ما يبلغه من كتب أهل العلم الأثبات يهديه الله به إن نور قلبه، ومن أعماه لم تزد كثره الكتب، إلا حيرة وضلالاً وغواية.

الآن في وسائل الاتصال الحديثة، في الشبكة العنكبوتية؛ يأتي أشخاص وقد وضعوا خلفهم كتباً كثيرة، ويأتي يأخذ الواحد منهم كتاباً من الكتب ويقرأ ثم لا تجد همّة إلا أن ينقُصَ أصول السنة، كل ما يُقرّره ينقُصَ أصول السنة التي أجمع عليها أهل السنة، والله ما زادته الكتب إلا حيرة وضلالاً.

وإنك تجد أن بعض الدكاترة العوامّ خيرٌ منهم، فالعاميّ تجده على عقيدة طيبة، وتجد بعض الدكاترة مساكين ما زادتهم الدكتوراه إلا جهلاً وضلالاً فاضحاً!

(١) «الجامع» للترمذي، أبواب: العلم عن رسول الله ﷺ، باب: ما جاء في ذهاب العلم، رقم: (٢٦٥٣)، وصححه الألباني في تخريج «اقتضاء العلم العمل» (٨٩).

كثيرٌ من الناس قرؤوا كتبًا فأصبحوا طُبولًا، الطبل كبيرٌ حجمه، عالٍ صوته، لكن لا شيء تحت جلده، لو شَقَقْتَ الجلد ما وجدتَ إلا هواء فارغًا، وبعض من يُنصَّبون اليوم لو شَقَقْتَ جلده ما وجدتَ إلا هواء فاسدًا.

فالعبرة بهداية الله للعبد، أن يهديه وينور قلبه.

والله زرتُ أحد البلدان فركبتُ مع سائق أجرة، وإذا به عامي يتكلم بالسنة والتوحيد ما شاء الله تبارك الله! ثم دخلتُ المسجد لأصلي الجمعة، وإذا بشيخ معمم يخطب، لو كان لي سلطة لأنزلته من على المنبر، فمثله لا يجوز له أن يتكلم في الدين.

فالعبرة بهداية الله، فلذلك الموفق من عباد الله من يلجأ إلى الله دائمًا (اللهم اهدني، اللهم نور قلبي)، ويلزم الطرق الصحيحة في هذا الباب.

ولذلك قال **رَحِمَهُ اللهُ**: (كما قال النبي ﷺ لأبي لبيد) وهذا كما في أكثر النسخ، وفي بعض النسخ (لابن لبيد) وهو الصواب، أنه ابن لبيد، وليس أبا لبيد كما في أكثر النسخ، وهذا هو الموافق لما ورد في الحديث.

جاء أن النبي ﷺ قال: «هذا أَوَانٌ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ» أي اقترب الوقت الذي يُخْتَلَسُ فيه العلم ويُرْفَعُ فيه العلم، قال: «هذا أَوَانٌ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ من الناس حتى لا يَقْدِرُوا منه على شيء»، والمقصود اقتراب هذا الزمان، ولا شك أنه في آخر الزمان يُرْفَعُ الْعِلْمُ بموت العلماء، حتى يتخذ الناس رؤوسًا جهلًا، فيفتنون بغير علم ولا سنة ولا هدى؛ فيكونون ضللاً، ويضلُّون الناس بهذا.

قال **رَحِمَهُ اللهُ**: «هذا أَوَانٌ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ من الناس، حتى لا يَقْدِرُوا منه على شيء»، قال زياد بن لبيد الأنصاري **رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**: كيف يُخْتَلَسُ مِنَّا وقد قرأنا القرآن؟ فوالله لنقرأنه ولنقرئنه نساءنا وأبنائنا.



شرح الوصية الصغرى

ابن لبيد قال: كيف يُختلس العلم ونحن - بحمد الله - قرأنا القرآن، ووالله لن نُفَرِّط؛ سنقرأه ونُقرئه حتى النساء وحتى الأطفال، فقال النبي ﷺ: «ثكلتك أمك يا زياد! إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة - لأنه أنصاري - هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا تغني عنهم؟! ما أغنت عنهم شيئاً، لما لم يحفظها الله فبدلت وغُيّرت، ولم يحفظ الله عليهم دينهم فحرّفوا وبدّلوا وأصبحوا مشركين، وهذا الحديث رواه الترمذي وقال: حسن غريب، وصحّحه الألباني^(١).

والمقصود، أنّ التوراة والإنجيل، لماذا لم تنفعهم؟ لأمرين:

الأمر الأوّل: أنها لم تحفظ لهم؛ فحرّفوها.

الأمر الثاني: أنهم مع تحريفهم لها لم يعملوا بها، فما لم يُحرّف منها لم يعملوا به، ولذلك جاء عند ابن ماجه: «أوليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا يعملون بشيء مما فيهما»؟!^(٢).

إذن كيف يُختلس العلم من الأُمَّة؟

في ثلاثة أمور - يجب أن نتنبه لها حتى نحذرهما -:

الأمر الأوّل: موت العلماء، بحيث لا يخلف العالم عالم، وإلا فالعلماء يموتون من زمن النبي ﷺ؛ لكنهم يورثون العلم، ويخلف العالم عالم لكن إذا زهدنا في العلماء لا نتعلّم منهم، يموت العالم ولا يأتي أحد بعده؛ هنا يُختلس منا العلم.

(١) تقدّم آنفاً.

(٢) أخرجه ابن ماجه في «السنن» أبواب: الفتن، باب: ذهاب القرآن والعلم، رقم: (٤٠٤٨)، وصحّحه الألباني فيه.

فينبغي أن نحرص على علم علمائنا، إذا جلست مع العالم احرص على أن تأخذ منه الدُّرر، لا تُشغل نفسك بما لا خير فيه، تسأل الشيخ هذا السؤال، وتذهب للشيخ الثاني تسأله نفس السؤال، وتذهب للشيخ الثالث تسأله نفس السؤال، بعد سنة تأتي من بلدك من بعيد تزور الشيخ تسأله نفس السؤال! علمت يا هذا فاعمل، استخرج الدُّرر من المشايخ والعلماء، حتى إذا مات العالم خَلَفَهُ عالم، على الأقل يكون عندنا مجموعة يُشكّلون عالماً من العلماء.

الأمر الثاني : الانصراف عما في الكتاب والسنة وطلب الهداية بغيرهما، وهذا - نعوذ بالله - كثير في زماننا.

كثيرٌ ممن يزعمون أنهم مستقيمون، لا يلتزمون الهدى في آية أو سنة، وإنما هم أتباعٌ للشيخ، إن اهتدى اهتدوا وإن ضلّ ضلُّوا، فأعرضوا عن سبيل الهداية وهو ما في الكتاب والسنة، واتخذوا رجالاً يتبعونهم، ولذلك تجد جماعات لا يسمّحون بقراءة الكتب التي فيها (قال الله، قال رسوله ﷺ)، وإنما كتب فيها أحاديث ضعيفة وموضوعة، وتجد جماعات لا تهتدي بآيات من القرآن أو أحاديث من السنة وإنما أصول الشيخ تُحفظ.

حتى قال لي أحدهم - وهو من كبارهم - صلى بنا أحدهم، فلما فرغ قلتُ له: لماذا لم تعمل كذا؟ السُّنَّة كذا.

قال: ألم يقل الشيخ: نجتمع على ما اتَّفَقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه؟ هذا الدليل والحجة! فيقول هذا الشيخ الذي يحدثني: قلتُ له: بلى، ولكن هذا لا يخالف كلام الشيخ.

سبحان الله! نترك أن نهتدي بكتاب الله وسنة النبي ﷺ إلى أصول يضعها رجال، لا نعرضها على الكتاب والسنة!



شرح الوصية الصغرى

فهذا الأمر الثاني من أسباب اختلاس العلم واندراس العلم: أن نُعرض عما في الكتاب والسنة إلى الاهتداء بغير ما ورد في الكتاب والسنة، فيظهر الجهل المركب، علماء بلا علم، - يُسمَّون علماء - ، فيدلون الناس على الجهل، ويتقذرون العلم للأسف، ويُصدِّرون فتاوى في نقض فتاوى العلماء.

الأمر الثالث: عدم العمل بالعلم، وهذا من آفات الزمان، نُكثِر الحُجج على أنفسنا ولا نعمل، نتعلَّم ولا نعمل، والنبي ﷺ يقول: «مررت ليلة أُسري بي بأقوام تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلتُ: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون، ويقرؤون القرآن ولا يعملون به»^(١)، إذن لا نزال بخير ما بقي العلم فينا، ويبقى العلم فينا ما أقبلنا على علمائنا، واهتدينا بكتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ وأعليناهما فوق كل شيء، وحكَّمنا على كل شيء بهما، وما عملنا بالعلم، فلنحرص على هذا الأمر العظيم.

قال شيخ الإسلام **رحمته الله**: (فنسأل الله العظيم أن يرزقنا الهدى والسداد، ويُلهمنا رُشدنا، ويقينا شر أنفسنا، وألَّا يُزيغ قلوبنا بعد إزهدنا، ويهب لنا من لدنه رحمة، إنه هو الوهاب، والحمد لله رب العالمين، وصلواته على أشرف المرسلين).

وبهذا نكون قد فرغنا من شرح «الوصية الصغرى»، شرِّحاً أرجو الله **عجل** أن يكون نافعا لشارحه، نافعا لقارئه، وأن يكون سبباً لفهم كلام هذا العالم الناصح للأمة. رحمه الله رحمة واسعة، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) تقدَّم تخريجه .

الفهرست

الموضوع	رقم الصفحة
• المقدمة.....	٥
• ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية.....	٧
• مولده و نشأته.....	٨
• صفاته الخلقية والخلقية والعلمية.....	٩
• شيوخه وتلاميذه.....	١١
• جهاده وابتلاؤه.....	١٣
• مؤلفاته.....	١٤
• وفاته وثناء العلماء عليه.....	١٥
• ترجمة الشيخ سليمان الحارثي.....	١٩
• شرح الوصية الصغرى.....	٢٥
• سبب تأليف الرسالة وما تضمنته.....	٢٥
• بيان شيخ الإسلام كون وصية النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه أنفع ما يكون للمسلم.....	٢٧
• وجوه أهمية وصية النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه.....	٣٤
• أسباب تكفير الذنوب.....	٤٥
• شروط التوبة خمسة.....	٤٦
• الفرق بين التوبة والاستغفار.....	٥٠

الموضوع	رقم الصفحة
• الكفارات زواج قبل الوقوع جوابر بعد الوقوع.....	٥٤
• مسألة: هل الدم الواجب في واجبات الحج بدل عن الواجب أو أثر لترك الواجب؟.....	٥٦
• هل الكبائر تُكفّر بالصالحات أو لا بُدَّ فيها من توبة.....	٦٠
• أنواع التشبه بالكفار.....	٧٠
• الفرق بين الإطلاق والتعيين في التكفير.....	٧٣
• البدعة أحب إلى إبليس من المعصية.....	٧٩
• مما يعين العبد على الصبر عند البلاء أمور.....	٨٠
• التفضيل لا يقتضي النقص.....	٨٦
• أسباب قطع الرحم: دنيوية ودينية.....	٩٢
• بيان شيخ الإسلام بأن وصية النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه تفسير لوصية الله تعالى.....	١٠١
• حقيقة التقوى.....	١٠٣
• الفرق بين الإيمان عند أهل السنة وعند المرجئة بأنواعها.....	١٠٩
• مكفرات الذنوب العشرة.....	١٢٠
• حديثان ظاهرهما التعارض.....	١٢٦
• الميزان في معرفة الأفضل من الأعمال.....	١٤٢
• أفضل الأعمال بعد الفرائض ثلاثة.....	١٤٩
• كلام لابن القيم في المراتب الثلاثة.....	١٥١
• معنى المفردون.....	١٥٤

الموضوع	رقم الصفحة
• الأذكار نوعان : مطلق ومقيد	١٥٩
• متى يبدأ وقت أذكار الصباح والمساء	١٦٠
• المقصود بقوله : (أدبار الصلوات)	١٦١
• أفضل الذكر المطلق	١٦٤
• متى يكون المفضول فاضلاً ؟	١٦٥
• سبب الاختلاف بين السلف في أفضل الأعمال	١٧٠
• الأفعال التي ليس فيها استخارة	١٧١
• متى يكون دعاء الاستخارة	١٧٢
• كيف تتبين الخيرة إذا استخار الإنسان	١٧٣
• آداب الدعاء	١٧٥
• حكم قول إن شاء الله في الدعاء	١٧٩
• من الاعتداء في الدعاء	١٨٠
• رفع اليدين في الدعاء على ثلاثة أحوال	١٨٢
• أقل درجات الاقتصاد الواجب	١٩٢
• أفضل المكاسب	١٩٩
• انتقاء الكتاب يقدم على أمور منها	٢٠٠
• من طرق تدريس العوام العقيدة «صحيح البخاري»	٢١٠
• من طرق تحصيل العلم إذا تزامت الدروس	٢١١
• كيف يختلس العلم من الأمة	٢١٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



مطبعة النظار

هاتف: ٢٤٧٤٤٧٤٠ - فاكس: ٢٤٧١٦٩٩٣

www.nazaer.com

قال الإمام أبو حفص عمر بن الخطاب المظفر بن الوردى المغربي الشافعي النحوي

رَحِمَهُ اللهُ يَرِثِي شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللهُ:

لَهُمْ مَنْ نَثَرَ جَوْهَرَهُ التَّقَاطُ	❖❖❖	عَثَا فِي عَرْضِهِ قَوْمٌ سَلَاطُ
خُرُوقُ الْمَعْضَلَاتِ بِهِ تُخَاطُ	❖❖❖	تَقَى الدِّينَ أَحْمَدُ خَيْرُ حَبَرٍ
وَلَيْسَ لَهُ إِلَى الدُّنْيَا انْبِسَاطُ	❖❖❖	تَوَفَّى وَهُوَ مُحَبُّوسٌ فَرِيدُ
مَلَائِكَةُ النِّعَمِ بِهِ أَحَاطُوا	❖❖❖	وَلَوْ حَضَرُوهُ حِينَ قَضَى لِأَلْفَا
وَلَا لِنَظِيرِهِ لَفَ الْقِمَاطُ	❖❖❖	قَضَى نَحْبًا وَلَيْسَ لَهُ قَرِينُ
وَحُلُّ الْمَشْكَلاتِ بِهِ يُنَاطُ	❖❖❖	فَرِيدًا فِي نَدَى كَفٍّ وَعِلْمٍ
وَيَنْهَى فِرْقَةً فَسَقُوا وَلَا طَا	❖❖❖	وَكَانَ إِلَى التَّقَى يَدْعُو الْبَرَايَا
بَوْعَظٍ لِلْقُلُوبِ هُوَ السَّيَاطُ	❖❖❖	وَكَانَ يَخَافُ إِبْلِيسَ سَطَاهُ
وَيَا لِلَّهِ مَا غَطَّى الْبَسَاطُ	❖❖❖	فِيَا لِلَّهِ مَاذَا ضَمَّ لَحْدُ
مَنَاقِبُهُ فَقَدْ مَكُرُوا وَشَاطُوا	❖❖❖	هُمْ حَسَدُهُ لَمَّا لَمْ يَنَالُوا
وَلَكِنْ فِي أَذَاهُ لَهُمْ نَشَاطُ	❖❖❖	وَكَانُوا عَنْ طَرَائِقِهِ كَسَالَى
وَعِنْدَ الشَّيْخِ بِالسَّجَنِ اغْتِبَاطُ	❖❖❖	وَحَبَسُ الدَّرِّ فِي الْأَصْدَافِ فَخَرُ
فَقَدْ ذَاقُوا الْمَنُونَ وَلَمْ يَوَاطُوا	❖❖❖	بِالْهَاشِمِيِّ لَهُ اقْتِدَاءُ
نَجُومِ الْعِلْمِ أَذْرَكُهَا انْهَبَاطُ	❖❖❖	بَنُو تَيْمِيَّةٍ كَانُوا فَبَاتُوا
فَشَكُّ الشَّرِكِ كَانَ بِهِ يُمَاطُ	❖❖❖	وَلَكِنْ يَا نِدَامَةَ حَاسِدِيهِ
فَإِنَّ الضَّدَّ يَعْجِبُهُ الْخَبَاطُ	❖❖❖	وَيَا فَرَحَ الْيَهُودِ بِمَا فَعَلْتُمْ
يَرَى سَجْنَ الْإِمَامِ فَيُسْتَشَاطُ	❖❖❖	أَلَمْ يَكْ فَيْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدُ
وَلَا وَقَفَ عَلَيْهِ وَلَا رِبَاطُ	❖❖❖	إِمَامٌ لَا وِلَايَةَ كَانَ يَرْجُو
وَلَمْ يُعْهَدْ لَهُ بِكُمْ اخْتِلَاطُ	❖❖❖	وَلَا جَارَاكُمْ فِي كَسْبِ مَالٍ
أَمَّا لَجْزَا أَذْيَتِهِ اشْتِرَاطُ	❖❖❖	فَفِيمَ سَجْنَتَمُوهُ وَغِظْتَمُوهُ
فَفِيهِ لَقَدْرٌ مِثْلَكُمْ انْحِطَاطُ	❖❖❖	وَسَجْنُ الشَّيْخِ لَا يَرْضَاهُ مِثْلِي
وَخَوْفُ الشَّرِّ لَانْحِلُ الرِّبَاطُ	❖❖❖	أَمَّا وَاللَّهِ لَوْلَا كَتَمْتُ سَرِّي
بِأَهْلِ الْعِلْمِ مَا حَسُنَ اشْتِطَاطُ	❖❖❖	وَكُنْتُ أَقُولُ مَا عِنْدِي وَلَكِنْ
وَكُلُّ فِي هَوَاهُ لَهُ انْخِرَاطُ	❖❖❖	فَمَا أَحَدٌ إِلَى الْإِنْصَافِ يَدْعُو
وَنِيَّتُكُمْ إِذَا نُصِبَ الصَّرَاطُ	❖❖❖	سَيُظْهِرُ قَصْدَكُمْ يَا حَابِسِيهِ
فَعَاطُوا مَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَعَاطُوا	❖❖❖	فَهَا هُوَ مَاتَ عِنْدَكُمْ اسْتَرَحْتُمْ
جَمِيعًا وَانْطَوَى هَذَا الْبَسَاطُ	❖❖❖	وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْبَرَايَا



IBN ABI TALIB



IBNABITALIB



WWW.IBNABITALIB.COM



+965 99762977

+965 55999986



@IBNABITALIB



IBNABITALIB



IBNABITALIB1@GMAIL.COM



+965 99494122